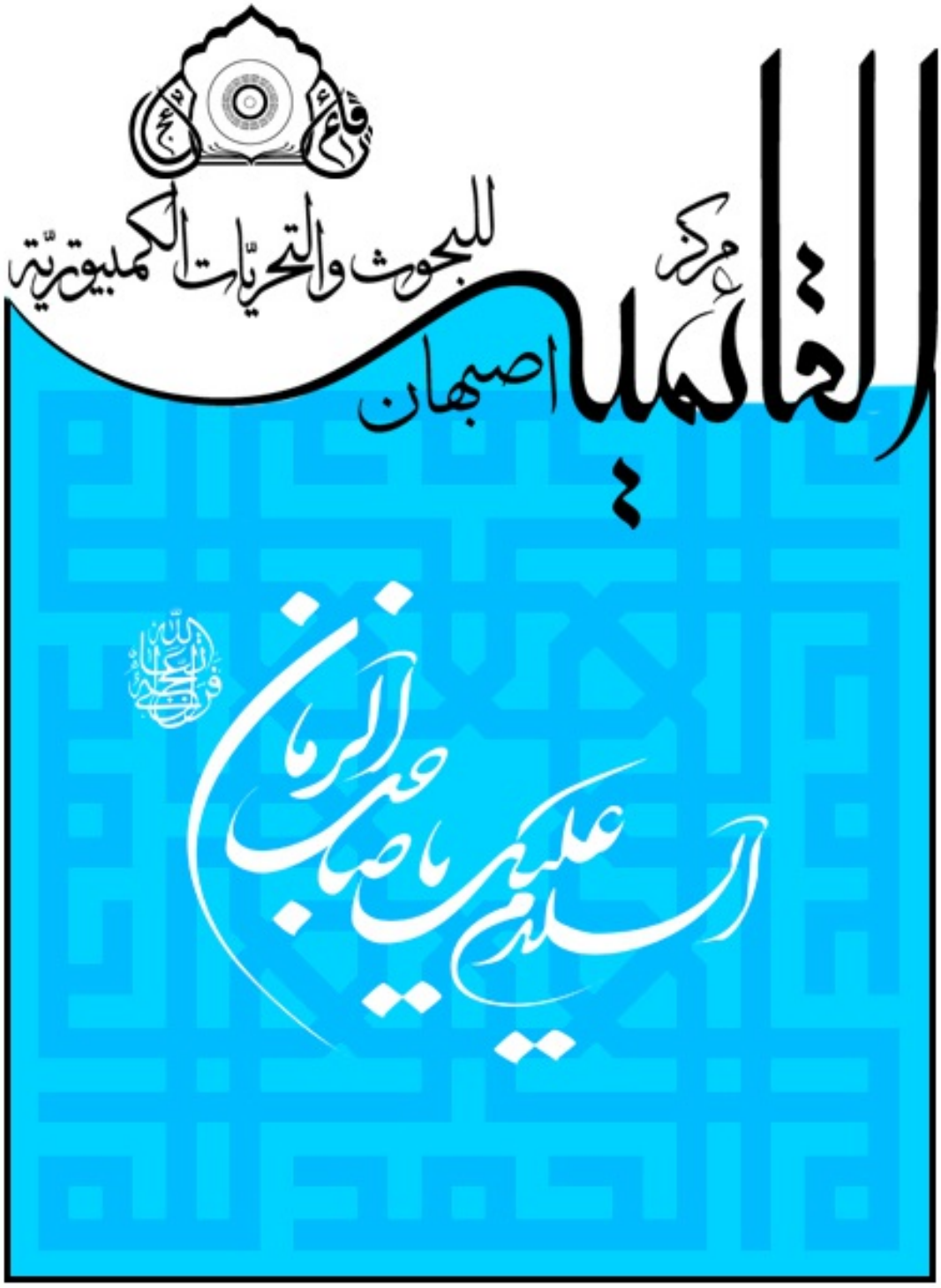

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

في ضيافة الرحمن

تأملات ورؤى في مناسك
الحج والعمرة

محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحيم

فی ضیافۀ الرحمن

کاتب:

محمدمهدی آصفی

نشرت فی الطباعۀ:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیۀ باصفهان للتحریات الکمبیوتریۀ

الفهرس

الفهرس ----- ۵
فی ضیافة الرحمن ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
رحلة إلی الله تعالی ----- ۱۳
المراحل الثلاثة فی رحلة الحج ----- ۲۱
اشارة ----- ۲۱
الرحلة الکادحة إلی الله ----- ۲۳
رحلة الحج ----- ۲۴
المرحلة الأولی: التحرر من الأنا و الهوی ----- ۲۵
اشاره ----- ۲۵
التجمّل والترف ----- ۲۷
سلطان الهوی والشهوات ----- ۲۸
المرحلة الثانیة: الإنصهار فی الجماعة ----- ۳۰
اشارة ----- ۳۰
حرم آمن ----- ۳۲
الحرم رقعة نموذجیة لساحة الحیاة ----- ۳۳
المرحلة الثالثة: الإنتقال إلی المحور الإلهی ----- ۳۶
وهذه هی المرحلة الثالثة من رحلة الحجّ الإبراهیمی ----- ۳۶
لماذا عبر الانصهار فی الجماعة؟ ----- ۳۸
ونتساءل بعد ذلک لماذا؟ ----- ۴۰
والجواب: ----- ۴۱
الأبعاد الثلاثة للحج: ----- ۴۲
البیت الحرام ----- ۴۳

اشارة ----- ۴۳
۱- البیت ----- ۴۵
اشارة ----- ۴۵
مقوّمات البیت: ----- ۴۶
(البیت) والانتماء الحضاری ----- ۴۷
بیت التوحید وبیت الشرک: ----- ۴۸
أیّ البیتین أَقدم؟ ----- ۵۰
الصراع بین البیتین: ----- ۵۱
الکعبة بیت الموحدین ----- ۵۲
الکعبة البیت الأول علی وجه الأرض ----- ۵۳
الکعبة (بیت الله) و (بیت الناس) ----- ۵۴
بیت الله ----- ۵۴
منزلة الکعبة عند الله: ----- ۵۵
بیت الناس ----- ۵۶
الکعبة قیام للناس ----- ۶۰
الکعبة مبارکة ----- ۶۱
۲- الحرام ----- ۶۲
اشارة ----- ۶۲
حُرُمات البیت الحرام ----- ۶۵
التلبیة ----- ۷۵
اشارة ----- ۷۵
الحج «دعوة» و «تلبیة»: ----- ۷۷
الدعوة: ----- ۷۸
الدعوة والوعد بالاستجابة: ----- ۷۸

الدعوة إلى التلبية الطوعية: ۷۹
الدعوة من الله والتلبية من العباد: ۸۰
اشارة ۸۰
التلبية جوهر العبودية: ۸۲
التلبية، لدعوة الله وحكمه: ۸۳
العقل مبدأ التلبية والاستجابة: ۸۴
مراتب الاستجابة والتلبية: ۸۴
«تكبيرة الإحرام» و «التلبية»: ۸۹
تكبيرة الإحرام مفتاح الصلاة: ۹۰
والتلبية مفتاح الحج: ۹۲
التلبية إستجابة وإعراض: ۹۳
الانقلاب الذى يحدث فى «الميقات» بفعل «التلبية»: ۹۴
تأكيد التلبية: ۹۶
شعور الحاج عند التلبية: ۹۶
القبلة والطواف ۱۰۰
اشارة ۱۰۰
قيمة الكعبة: ۱۰۲
فضل الكعبة: ۱۰۳
دروس من الكعبة: ۱۰۴
۱- القبلة ۱۰۴
اشارة ۱۰۴
الدور الأول للقبلة: تسليم الوجوه إلى الله: ۱۰۵
أنحاء التسليم: ۱۰۵
الحالات الثلاث للإنسان: ۱۰۷

الدور الثانی للقبلة: ۱۰۸
۲- الطواف ۱۰۹
اشارة ۱۰۹
الحالات الثلاث للإنسان: ۱۱۰
المنازل الثلاثة للرحمة فی السعی ۱۱۸
اشارة ۱۱۸
المنزل الأول: الفقر والحاجة: ۱۲۰
المنزل الثانی: الدعاء والسؤال: ۱۲۴
اشارة ۱۲۴
ولکل (دعوة) (إجابة) ۱۲۴
التبدیل، والتأجیل، والتعجیل: ۱۲۶
ففی دعاء الافتتاح: ۱۲۶
المنزل الثالث: السعی والعمل ۱۳۱
اشارة ۱۳۱
الروایة التاریخیة لقصة السعی الأول: ۱۳۳
أسرار الموقف: ۱۳۴
الرحمة الهابطة علی عرفة ۱۴۲
اشارة ۱۴۲
عرفة روح الحج ۱۴۴
عرفة یوم الاعتراف والمعرفة ۱۴۴
عرفة من منازل الدعاء والمغفرة ۱۴۶
عرفة من منازل الرحمة ۱۴۶
إنما ینال کل إنسان من الرحمة فی عرفة علی قدر وعاء نفسه ۱۴۸
عرفة منزل الدعاء والاستجابة ۱۴۸

کیف ندعو الله؟ وماذا نطلب من الله؟ ۱۵۰
کیف ندعو الله؟ ۱۵۰
الاجتهاد فی الدعاء: ۱۵۰
اللواذ بالله: ۱۵۱
التحضیر للدعاء والاستعاذة: ۱۵۱
التحضیر لعرفة بالصلاة ۱۵۲
حسن الظنّ بالله فی الدعاء والمغفرة ۱۵۳
أعظم الناس ذنباً ۱۵۳
لیس فی عرفة دعاء موقت ۱۵۳
ماذا نطلب من الله تعالی فی الدعاء؟ ۱۵۴
التعمیم فی الدعاء للمؤمنین ۱۵۹
التخصیص فی الدعاء للمؤمنین ۱۶۱
عرفة منزل المغفرة ۱۶۲
عرفة قریبة من الله ۱۶۵
کیف تستقبل عرفةُ ضیوف الرحمان وکیف تودعهم؟ ۱۶۶
کیف نحافظ علی مکاسب الحج؟ ۱۶۸
اشارة ۱۶۸
ضیافتان من الله تعالی لعباده ۱۷۰
تخصیص شهر رمضان وذی‌الحجة بالضیافة الإلهیة ۱۷۲
المقارنة بین الضیافتین ۱۷۴
قیمة الضیافة الرمضانیة ۱۷۵
قیمة الضیافة الرحمانیة فی الحج ۱۷۵
المکاسب الخمسة فی الحج ۱۷۶
منازل الرحمة الزمانیة والمکانیة فی الحج ۱۷۸

باقة من الحديث ----- ۱۸۰
منزلة الحاج عند الله فی الجنة ----- ۱۸۰
فی ضمان الله ----- ۱۸۱
ثواب الحج الجنة ----- ۱۸۲
أفضل الأعمال بعد الجهاد ----- ۱۸۲
الدعاء المستجاب للحجاج ----- ۱۸۲
نور الحج ----- ۱۸۳
خير الدنيا والآخرة ----- ۱۸۳
غفران الذنوب ----- ۱۸۳
يرجع الحاج كهيئة يوم ولدته أمّه ----- ۱۸۵
الرواتب الثلاثة فی العبادات ----- ۱۸۶
كيف يتناقص خزين الحج فی ساحة الحياة؟ ----- ۱۸۷
كيف نحافظ على مكاسب الحج؟ ----- ۱۸۹
اشارة ----- ۱۸۹
۱- التقوى ----- ۱۸۹
اشارة ----- ۱۸۹
مراقبة التقوى ----- ۱۹۰
أهمّ آليات مراقبة التقوى: ----- ۱۹۱
۲- الذكر ----- ۱۹۲
اشارة ----- ۱۹۲
المداومة ----- ۱۹۳
المراقبة والمداومة ----- ۱۹۳
تجليات الأمة الواحدة فی مشاهد الحج ----- ۱۹۴
اشارة ----- ۱۹۴

الإضاءات الثلاثة فی طریق وحدة الأمة ----- ۲۰۰
اشارة ----- ۲۰۰
۱- الأمة الواحدة ----- ۲۰۰
۲- الصراع الحضاری ----- ۲۰۱
۳- الترافد الثقافی ----- ۲۰۲
أولًا: الوعی والخطاب ----- ۲۰۳
اشارة ----- ۲۰۳
الوعی والتقوی ----- ۲۰۴
الوعی السیاسی ----- ۲۰۴
وعی الجمهور ----- ۲۰۵
الوعی والخطاب ----- ۲۰۶
منطلقات الخطاب الدینی ----- ۲۰۷
الصدق والنصح فی الخطاب ----- ۲۱۰
الشجاعة والصراحة فی الخطاب ----- ۲۱۱
خطبة رسول الله (ص) بمنی ----- ۲۱۵
ثانیاً: الجماعة، واللقاء، والحوار ----- ۲۱۶
اشارة ----- ۲۱۶
الجماعة (الأمّة) ----- ۲۱۶
اللقاء والاجتماع ----- ۲۱۹
(الجماعة) و (الجمعة) ----- ۲۲۰
الجماعة والجمعة تجمعان کل الشرائح والمذاهب ----- ۲۲۲
مساحات اللقاء والحوار ----- ۲۲۳
شروط اللقاء والحوار ----- ۲۲۶
أحادیث أهل البیت (علیهم السلام) فی ضرورة اللقاء والحوار ----- ۲۳۱

ثالثاً- الأعمال والمشاريع المشتركة ----- ۲۳۵
اشارة ----- ۲۳۵
جدلية الشرعية و الواقع: ----- ۲۳۶
القضية الثانية: قيام أنظمة متعددة من الحكم فی طول العالم الإسلامی وعرضها ... ----- ۲۳۷
منهج أهل البيت (عليهم السلام) الفقهی ----- ۲۳۸
المشروع السياسی الإسلامی ----- ۲۴۰
تساؤلات حول هذا المشروع ----- ۲۴۴
المرجعية السياسية للعالم الإسلامی: ----- ۲۴۵
فی المساحة الاقتصادية ----- ۲۴۷
تعريف مركز ----- ۲۵۱

فی ضیافة الرحمن

اشارة

نام کتاب: فی ضیافة الرحمن

نویسنده: محمد مهدی الآصفی

موضوع: احکام و مناسک

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: نشر مشعر

مکان چاپ: تهران

سال چاپ: ۱۴۳۱ ه. ق.

نوبت چاپ: ۱

ص: ۱

رحلة إلی الله تعالی

قد کانت هذه الرحلة بدعوة من الله تعالی علی لسان عبده وخلیله إبراهیم (ع): (وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ)؛ وتتم الرحلة کلها فی ضیافة الله.

فالحجاج وفد الله وضیوفه تعالی، لا شک فی ذلک، والتلبیة التی یرفعها الحجاج إلی الله تعالی فی المیقات، إعلان لإجابة هذه الدعوة التی أعلنها إبراهیم (ع) من جانب الله لعباده، ولا تزال أجیال المؤمنین یُلَبّون هذه الدعوة جیلًا بعد جیل إلی الیوم، وإلی أن یأخذ الله الأرض ومن علیها.

و فی هذه الرحلة بعد التلبیة یدخل الحاج دورة تدریبیة رمزیة للتحرر من أهم عقبتین فی الطریق إلی الله، وهما (الأنا) و (الهوی).

و یتم هذه المواجهة والتحرر الرمزیان من (الأنا) و (الهوی) فی بدایة الرحلة فی محرمات الإحرام بعد التلبیة، مباشرة، فإنّ تحریم المخیط من الأزیاء للرجال،

ص:۱

ص:۲

ص:۳

ص:۴

ص:۵

ص: ۶

والتجرد عن الملابس والأزياء القومية والوطنية، وتحريم الجدال فی الحج يحمل معنی محاولة الحاج للتحرر من (الأنا) وتحريم ممارسة العلاقة الجنسية يحمل معنی محاولة التحرر من (الهوی) فی هذه الرحلة، ولو كان بصورة رمزية.

و هما يحملان واحدة من أعظم معارف الحج، وهی أنّ التحرر من سلطان الأنا والهوی، (و ليس من الأنا والهوی) هو الشوط الأول من الطريق ... وليس يتأتّی للعبد أن يسلك الطريق الصعب إلی الله، وهو يخضع لسلطان الأنا والهوی.

و تتمّ هذه الرحلة بصورة جماعية، فلا يُقْبل ضيوف الرحمان علی الله فی هذه الرحلة فرادی، وإنما يقبلون علی الله مجتمعين فی مكان واحد وزمان واحد.

و هی عبادة ورحلة فريدة فی نوعها، فلستُ أعرف عبادة يجمع المستطيعين للعبادة، من كل أقاليم الأرض من الموحّدين، فی مكان واحد وزمان واحد، غير هذه العبادة.

و كلما يكون الاقبال علی الله جمعيّاً، يكون القبول من الله تعالی لعباده أسرع وأكثر؛ فيتقبّل الله تعالی المسيئين منهم بمن أحسن، وضعفائهم بأقويائهم.

ففی رحلة الصلاة فنقول كل يوم عشرة مرات: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فنعرض علی الله عبادتنا ضمن عبادة عباده الصالحين بصورة جمعيّة؛ هكذا (نعبد) ونطلب من الله الاستعانة، ضمن طلب الصالحين من عباده للاستعانة؛ هكذا (نستعين)، فإنّ الله تعالی لايرد عبادة الصالحين من عباده، ولايرد طلب الاستعانة من عباده الصالحين، وهو تعالی أكرم من أن يبعّض الصفقة الواحدة من الطلب، فيتقبّل البعض ويَرُدّ البعض.

ونحن نقدم عبادتنا لله، واستعانتنا به، صفقة واحدة مع سائر عباده، وهكذا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

و كذلك فی رحلة الحج يقف الحجاج كلهم جميعاً فی عرفة، فی مكان واحد

ص: ۷

وزمان واحد، یرفعون أیدیهم إلی الله تعالی بالدعاء والاستغفار، لیتقبل الله تعالی دعاء مسیئهم بدعاء محسنهم، واستغفار المسیئین منهم باستغفار المحسنین منهم.

و علی العموم: الحج رحلة فریده فی نوعها إلی الله، ولستُ أعرف عبادة أخری، تجمع الخصائص التی جمعها الله لهذه الرحلة، وهی رحلة العمر کله، فإنّ الحج الواجب حج واحد فی العمر کله، ومعنی ذلک أنّ المواهب التی یکتسبها الحاج فی الحج یکفیه لکل العمر، إذا أحسن الاستفادة منها والمحافظة علیها، وأنّ الزاد الذی یتزود به الحاج فی الحج، یغنیه لرحلة العمر کلها، إذا أحسن المحافظة علیها.

و لیس یتیسر لأغلب الحجاج الحج مرة أخری ... غیر الحج الواجب، ولذلک فإنّ من الضروری جداً أن یحضّر الحاج نفسه تحضیراً کاملًا للتزود من مواهب الحج، و هی عظیمة وکثیرة، وکل حاج یتزود من هذه الرحلة الإلهیة الفریدة بقدر ما یتسع له وعاء نفسه؛ ووعاء کل إنسان بقدر ما یحضّر نفسه لاستقبال مناسک الحج والتزود من موائد رحمة الله الواسعة فی هذه الضیافة الإلهیة الفریدة ... وبقدر ما یحمل من فقه ووعی لمناسک الحج.

ولابدّ للحاج من هذا وذاک، من فقه أحکام الحج ومناسکه أولًا، ووعی معارف الحج وأسراره ثانیاً؛ ولعل دعاء إبراهیم وإسماعیل (علیهما السلام) یشیر إلی ذلک: (وأرنا مناسکنا).

وبین یدی القاری مجموعة من التأملات فی أعمال الحج ومناسکه، یحسن بالحاج أن یقرأها قبل الحج، إلی جانب قراءة دقیقة لفقه مناسک الحج، لیتأتی له أن یتزود من هذه المائدة الإلهیة الواسعة المعدّة لضیوف الرحمان بأکثر ما یمکن لأمثالنا.

وقد کتبت أکثر هذه المواضیع خلال رحلة الحج فی المرات العدیدة التی وفقنی

ص: ۸

الله تعالی له، وقد رغبت مجلة (میقات الحج) أن تجمع هذه المقالات فی کتاب واحد، تقدمه إلی حجاج بیت الله الحرام، لعلّه ینفع ضیوف الرحمان فی التزود من مواهب هذه الرحلة الإلهیة العظیمة.

فشکراً لفضیلة السید قاضی عسکر، وفضیلة الشیخ المقدادی اللذین تحمّلا عنی هذه المهمة؛ جزاهما الله خیراً.

و أسأل الله تعالی أن ینفع به ضیوفه و وفده، وأن یجعله زاداً لکاتبه یُقدّمه بین یدیه، یوم یُقْدِمُ علیه تعالی ببؤسه، وفقره، وفاقته إلی رحمته، (یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ).

محمّد مهدی الآصفی

النجف الأشرف/ فی شعبان ۱۴۳۰ ه-

ص: ۹

المراحل الثلاثة فی رحلة الحج

اشارة

ص:۱۰

ص: ۱۱

الرحلة الكادحة إلى الله

رحلة الإنسان إلى الله تعالى رحلة كادحة متعبة، تبدأ ب- (الأنا والهوى) وتنتهى إلى لقاء الله ... يتم للإنسان فيها التحكم على (الأنا والهوى) بشكل كامل، (ولا يقضى عليهما).

و لايتمّ للإنسان هذه السيطرة والتحكم فى (الأنا والهوى) إلّا بعد جهد شاق، وكدح عسير ... (إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا)، وهذا الكدح العسير هو فى مواجهة (الأنا والأهواء) المغروستين فى عمق النفس وفى مواجهة (الفتن) الموزعة على ساحة الحياة، وما بين (الأنا والهوى) من جانب، و (الفتن) من جانب آخر، من التجاذبات القويّة المهلكة للنفس.

و هذا هو معنى الابتلاء الذى جعله الله تعالى على طريق الإنسان إليه عزّ شأنه، ولا يرقى الإنسان إلى الله إلّا من خلال هذه الابتلاءات الصعبة، العسيرة الكادحة، والغاية فى هذه الرحلة الكادحة هى لقاء الله (فَمُلاقِيهِ).

و لكن هذه الحركة الكادحة للتحرر من سلطان (الأنا) و (الهوى) و (المغريات والفتن) التى تعيق حركة الإنسان إلى الله، لا تتم إلّا من خلال الوسط الاجتماعى، والحشر فى وسط الناس، وليس من خلال الاعتزال عن الناس

ص: ۱۲

بالحياة الرهبانية.

فقد جعل الله تعالى الطريق إليه، للتحرر من سلطان الأنا والهوى والمغريات التى تعيق حركة الإنسان إليه تعالى، من خلال حركة الجمهور المؤمن الراشد، وليس فى الرهبانية والاـعتزال و الخلوات، كما يسلك الرهبان الطريق إلى الله، بالهروب عن الناس والفتن والمغريات والمثيرات، لتسهيل أمر الحركة إلىالله. (۱)فهذه ثلاث نقاط جوهرية فى الحركة إلى الله:

مجاهدة الأنا والأهواء، لغرض التحكم فيها، وليس لكبتها والقضاء عليها، والانتهاء إلى لقاء الله، وهو غاية هذا الطريق الصعب.

ثم اختيار الوسط الاجتماعى ساحة للانطلاق إلى الله ... وهذه هى النقطة الثالثة فى هذه الحركة.

رحلة الحج

و الحج صورة مصغرة رمزية لهذه الحركة الشاقة العسيرة إلى الله، واختزال لمراحل هذه الرحلة الشاقة، وهو ينطوى على هذه المراحل جميعاً، ويتدرج بالإنسان مرحلة مرحلة إلى الله، ويدرّب الإنسان، ويمكّنه من طى هذا الطريق الصعب، وكأنه دورة تدريبية للسلوك الشاق إلى الله ... قد قطعها أبونا إبراهيم (ع) بأمر من الله من قبل، وجاء بعده أنبياءالله:، ثم من بعدهم رسول الله وخاتم الأنبياء (ص) على نهجه ومسلكه بأمر من الله فى سلوك هذه المراحل الرمزية إلى الله، ونحن نسلك هذا الطريق، ونأخذ بهديهم، ليعيننا الله تعالى على سلوك المراحل الشاقة الكادحة إلى لقائه عز وجل (يا أَيُّهَا الإنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ).

۱- لاـ نرفض مطلقاً الخلوت السلوكيه التى يختارها السالكون إلى الله تعالى- ولكنها- ليست المنهج العام فى الإسلام للعبادة والتربية والتزكية والحياة الاجتماعية

ص: ۱۳

و تبتدأ هذه الرحلة (الاختزالية) بالميقات، وتنتهى بطواف الوداع (المعروف بطواف النساء)، ونحن نشير إن شاء الله إلى المراحل الثلاثة التى يقطعها الحاج فى هذه الرحلة النموذجية من الأنا والهوى إلى الله.

المرحلة الأولى: التحرر من الأنا و الهوى

اشاره

تبدأ هذه الرحلة من الميقات بتجاوز الذات والأنا، ومحاولة الانصهار فى المسيرة الإيمانية إلى الله تعالى؛ وهذه هى المرحلة الأولى فى هذه الرحلة الإلهية.

و يصبّ الناس بعد تجرّدهم (الرمزى) من حالة (الأنانية) و (الأنا) فى الحشد البشرى الكبير فى الطواف حول البيت، كما تصب السواقى والأنهر الصغيرة فى البحر الكبير، فلا تستطيع أن تميّز بعد ذلك موقع هذه السواقى من البحر الكبير.

بداية هذه الرحلة (الميقات)، حيث يحاول الإنسان أن يتجرّد عن ذاته وأهوائه وخصائصه التى تميّزه عن الآخرين بالإحرام، وينصهر فى المسيرة الإلهية الحاشدة، التى لا يتمايز فيها الأفراد.

فى الميقات تتساقط هذه الحواجز، وينصهر الناس فى الحشد الربانى العظيم المتدفق إلى المسجد الحرام، لا يتميز فيها العربى من الكردى والفارسى عن التركى، ولايتميز فيها الغنى عن الفقير.

إنّ الميقات حد فاصل بين (الأنا)، وبين الأُمّة المؤمنة.

ص: ۱۴

و قبل أن يدخل الحاج الميقات يعيش كما يعيش سائر الناس متمايزين، منفصلين، ولل- (أنا) تمييز وتشخيص، ولل- (أنا) تظاهر وبروز فى حياتهم، ولل- (أنا) سماته ومعالمه الواضحة فى حياتهم، فإذا دخل الميقات تضاءل (الأنا)، وخفّ صراخه وصوته، وفقد جملة من معالمه ومميّزاته، وفقد لونه وصيغته الصارخة؛ وهذا الانقلاب فى الشخصية ينبغى أن يتم فى (الميقات)، ويرمز إلى هذا الانقلاب (لباس الإحرام)، وقد قلنا إنّ الحج يعبر عن المعانى والمفاهيم التى ينطوى عليها بلغة الرمز.

عند الميقات يتجرّد الحاج من كل ملابسه، وما تحمله ملابسه من سمات شخصية، وطبقية، وقومية، وإقليمية. إنّ لباس الإنسان يحمل هوية الإنسان، ويحمل الإشارة إلى شخصية الإنسان وانتمائه القومى، والإقليمى، والعشائرى، وطبقته، ومهنته، ودرجته فى الثراء والفقر، والمستوى الاجتماعى.

فإذا بلغ الحاج الميقات تجرّد عن ملابسه، ولبس ثياب الإحرام إزاراً ورداء ... قطعتين من القماش، لم يستعمل فيهما الخيط كالآخرين، على نحو سواء، فى غير بذخ، ولا- ترف، ولا- تمييز، وخلع عن نفسه ملابسه التى كانت تحمل هويته، وتعبر عن شخصيته؛ إنّ هذه الخطوة الأولى فى الميقات تعبّر عن تجرّد الإنسان عن هويته، وشخصيته، وأنانيته، وعن عبور الذات وتجاوز (الأنا).

و كما يُجرّد الميّت عن ملابسه، لأنّ دور الأنا فى حياته قد انتهى، ولم‌يعد للأنا حجم ولا دور، لا شكل فى المرحلة الجديدة من حياته، كذلك الميقات، يتجرد فيها الحاج عن هويته و ذاتيته، وكأنّ الميقات مصفاة، وأول شىء تأخذه هذه المصفاة من الإنسان هو ذاته، فإذا تجرد عن الأنا، وانسلخ عن ذاته أو حاول ذلك، حقَّ له أن يتجاوز الميقات إلى الحرم، وما لم يتخلّص الإنسان عن ذاته، فلا يتمكّن أن يواصل الرحلة إلى لقاء الله ... فإذا خلص فى هذه المصفاة من ثقل الذات اجتاز

ص: ۱۵

المیقات توجه إلی الحرم.

و إنّ أکثر ما یثیر المتاعب فی حیاة الناس، ویعکّر العلاقة فیما بین الناس، هو التصادم والتخالف الذی یحدث بین الذوات والأنانیات، وعندما تذوب الذات عند الإنسان، وتنصهر، ویخلص الإنسان عن طغیان (الأنا) ینتهی شطر کبیر من مشاکل الإنسان ولقاءاته السلبیة مع الآخرین، وما یستتبعه من صدام، وتردی العلاقة، وحالة الإثرة، والأنانیة، وحبّ الذات، فإذا خلصت حیاته من سلطان الذات والأنا سلم الإنسان من هذه المشاکل والمتاعب التی تعج بها حیاة الناس وتمکن من أن یضع حیاته وعلاقاته الاجتماعیة علی أسس سلیمة وأن یحکّم السلام فی علاقاته مع الآخرین.

التجمّل والترف

و فی المیقات یخلص الإنسان من خصلة أخری من خصال (الأنا)، وهی خصلة ممدوحة لو کانت فی الحدود المعقولة التی لا تستأثر باهتمام الإنسان کله، ولا تملک إرادة الإنسان، ولا تَحْکُمها فإذا تحولت هذا الخصلة إلی خصلة حاکمة علی إرادته کانت صفة ذمیمة للإنسان.

و تلک هی خصلة التجمّل، فهی خصلة ممدوحة، فی الحدود التی تظهر علی الإنسان نعم الله تعالی وفضله، فإذا تحوّلت إلی خصلة من خصال الذات، مهمتها إبراز الذات وإظهارها، لا إبراز نعم الله تعالی، کانت من البطر والرئاء، وتحولت إلی صفة ذمیمة تسلبه القدرة علی تحمّل الشظف، وسلوک طریق ذات الشوکة، والإسلام لا یکافح هذه الخصلة، وإنما یعدّلها ویهذّبها.

و فی المیقات یدخل (الأنا) فی هذه التصفیة الإلهیة، ویلزمه الإحرام بالتخلی فی فترة الإحرام، من هذه الخصلة، ویحرّم علیه الطیب والتجمّل، حتی

ص: ۱۶

بالنسبة للنساء فيما يتجاوز الحد المألوف للمرأة فى التجمّل ليتمكّن الإنسان فى نفسه من هذه الخصلة التى تشكّل حالة تظاهر للأنا، وحالة ترف تؤثر تأثيراً سلبياً على إرادة الإنسان وقدرته فى مواجهة متاعب الطريق، إذا لم يعمل على تعديل هذه الخصلة، وتهذيبها، وإرجاعها إلى نصابها الممدوح الذى يُقرّه الإسلام ويأمر به.

سلطان الهوى والشهوات

و فى الميقات يمرّ الإنسان بتصفية ثالثة، وهى تخليص الإنسان من سلطان الهوى والشهوات والغرائز، وهى مسألة فى غاية الدقة فى الإسلام، وقد قلنا تخليص الإنسان من سلطان الهوى والشهوات، ولم نقل من الهوى والشهوات، وبينهما فرق، وذلك لأنّ الإسلام لا يكافح الأهواء والشهوات فى نفس الإنسان، وإنما يعتبرها ضرورة من ضرورات الحياة، ومن دونها تختل الحياة، وإنما الذى يكافحها الإسلام هو سلطان الهوى والشهوات على الإنسان وإرادته.

و ليس الأهواء والشهوات فى حد ذاتها مصدر للانحراف، والسقوط فى حياة الإنسان، وإنّما الانحراف والسقوط يأتى من ناحية سلطان الهوى على إرادة الإنسان، فإذا تمكّنت الأهواء والشهوات من الإنسان، وخضع الإنسان لها عند ذلك فقط، يتمكن الشيطان من الإنسان، ويتعرض للسقوط والانحراف، ولذلك فإنّ المنهج الإسلامى فى التربية يعمل على ترويض الأهواء وتطويعها لإرادة الإنسان، وتمكين الإرادة منها، دون أن يكافحها ويحاربها ويستأصلها ويصادرها.

و (الصوم) نموذج واضح لهذا المنهج التربوى، و (الميقات) هو الآخر يقع فى

ص: ۱۷

هذا الخط التربوى، ففى الميقات يتعرّض الإنسان لتصفية واسعة فى (الأنا) و (الهوى)، يمتص منها سلطان الأنا والهوى، ثم يسمح له بالدخول فى رحاب ضيافة الله تعالى، بعد أن يجرده من هذه النزعة الحيوانية التى تطغى على تصرفاته وتحكم إرادته وفعله.

و الهوى عندما يحكم الإنسان يتحول إلى مصدر للشرّ فى علاقات الإنسان وحياته الاجتماعية، يسلب الأمن والسلام من حياة الناس، فليس ما بين الناس من خلاف، وصراع، وصدام، مصدره الاختلاف فى الرأى غالباً، وإنما يعود السبب فى نسبة كبيرة وواسعة من هذه الخلافات إلى عامل الهوى فى العلاقات الاجتماعية.

و للإمام الخمينى ۱ كلمة ذات دلالة عميقة فيما نقول؛ يقول ۱: (لو أنّ مائة وأربعة وعشرين ألف نبى عاشوا فى مكان واحد، لما اختلفوا فيما بينهم، لأنه لا سلطان للهوى فى نفوسهم).

فالميقات نقطة تحول وانقلاب فى حياة الإنسان وأهم ما فى هذا الانقلاب هو العبور من (الأنا) و (الهوى) وخصالهما فى حياة الإنسان، فإذا تجرد عن ذلك، كان مؤهلًا للدخول فى رحاب ضيافة الله فى الحج، ومن عجب أنّ المذاهب الفكرية المادية تؤكد عكس ذلك، على تعزيز الأنا وتثبيته، واعتماد عنصر الاعتداد بالنفس وتنمية حالة الغرور والعجب، بخلاف الإسلام الذى يضع منهجه التربوى على أصل مكافحة سلطان الأنا، وإضعافه، وتحجيمه، وتحويل الإنسان من محور سلطان الأنا إلى محور عبودية الله تعالى، وسلطانه فى حياته، ويدعو الإنسان إلى التحلّل من هذا المحور، والارتباط بالمحور الربانى والانصهار فيه (قُلْ إِنَّ صَلاتِى ونُسُكِى ومَحْيايَ ومَماتِى

ص: ۱۸

لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ).(۱) و هذه هى المرحلة والسمة الأولى من سمات الحج.(۲)

***

المرحلة الثانية: الإنصهار فى الجماعة

اشارة

فإذا تجرّد الإنسان عن (الأنا)، وانسلخ عن ذاته، وجد نفسه فجأة فى وسط حشد بشرى كبير هادر، ينطلق من الميقات إلى الكعبة، كما تصبُّ الأنهر فى البحر.

من كل ميقات من هذه المواقيت التى وقّتها رسول الله (ص) يجرى نهر كبير من الناس، يتدفق ويصبّ فى الحرم حول الكعبة، فتتجمع هذه الأنهر حول البيت الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ۸ وفى هذا الخضم البشريالمتلاطم لا يشعر الإنسان بذاته، ولا يشعر بكينونته الفردية ... وتذوب شخصية الفرد فى هذا التيار البشرى العظيم، ويتضاءل عنده الإحساس ب- (الأنا)، حتى لا يكاد يشعر به صاحبه، ويقوى عنده الإحساس (بالجماعة) و (نحن) و (الأُمّة) بدل (الأنا والأنا

۱- الأنعام: ۱۶۲

۲- لكى يكون تعبيرنا دقيقاً فى هذا البحث لابد أن أقول: إنّ هذه النقاط تعبّر عن حالة رمزية للمحاولة للتخلص عن سلطان الأنا والهوى وحالة البطر والرئاء فى حياة الإنسان، وتشعر الإنسان بهذه المحاولة لتحجيم سلطان الأنا والهوى فى حياته. وهى فى نفس الوقت تدخل الإنسان فى دورة تدريبية مؤقتة تمكنه من تحجيم سلطان الذات والهوى إذا رجع إلى ساحات حياته الّتى يألفها، وهى (البيت) و (السوق) و (الشارع). واستثناء المرأة من بعض هذه النقاط لاينفى الحقيقة التى قررناها آنفاً؛ فإن حالة الرفق بالمرأة واضح فى هذا الاستثناء، فيما يتعلق بأحكام المرأة فى الحج؛ ولاينفى ذلك الخط العام الذى شرحناه لدور الإحرام والميقات فى حياة الحجاج رجالًا ونساءاً.

ص: ۱۹

والأنـا)، فيملأ عليه كل حواسه ومشاعره، فلا ترى فى المطاف أفراداً يتحركون، وإنّما ترى كتلـة بشـرية واحـدة من الناس تطوف حول البيت العتيق.

و لـو أنّ الحـاج الـذى تجرد فى الميقـات لم يكن يصبّ فى المطـاف فى بحر الجماعـة المؤمنـة لكـان يضـيع ويفقـد مقومـات وجوده وشخصيته، كما يضيع الوجوديون اتباع جان بول سارتر، عندما يتجردون عن هوياتهم وماهياتهم التى خلقها الله تعالى عليها (۱)، ولكنّه لا يكاد يتجرّد من الأنا ومعالمه وحدوده حتى يستلمه البحر البشرى الكبير فى المطاف، كما تصب سواقى الماء فى النهر الكبير، ويعود فى المطاف إلى لون جديـد من الحياة، وإلى حياة جديدة لم يألفها من قبل بهذه القوة والفاعلية، ولم يتذوقها بهذه الصورة؛ يموت فيه الأنـا، ويبعث الله فى نفسه الإحساس بالجماعـة، وينتقل إلى طور جديـد من الحياة، أهم خصائصه غياب الفرديـة وحضور الله تعالى فى حياته، وسط بحر متلاطم من الناس.

۱- مع فارق جوهرى بين طريقـة تفكير (جان بول سارتر) معلم الوجوديـة المعاصـرة (اكزيسـتانياليسم) وبين المنهـج الإلهى فى إعـداد الإنسان للقاء الله.

إنّ المنهـج الإلهى فى إعـداد الإنسان لا ينفى أنّ هذه الخصال الفردية والاجتماعية والقيم واللّاقيم الموجودة عند الإنسان كله من خلق الله، ومغروسـة فى الفطرة ... يقول تعـالى: خُلِقَ الإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ الأنبياء: ۳۷، إِنَّ الإِنْسـانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً المعارج: ۱۹- ۲۰، وَ كانَ الإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا الكهف: ۵۴، خُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً النساء: ۲۸.

إنّ الحياء مغروس فى الفطرة، فى خلق الله، وليس من إضافات الأعراف الاجتماعية، كما أنّ الشـهوات مغروسات فى الفطرة، فى مرحلة الخلق، وأنّ النزعات الفردية (الأنا، والحسد، والطمع، والإثرة، والجدل، والرياء، وحب المال والموقع ...) من خلق الله، فى عمق الفطرة، كما أنّ الخصال والنزعات الاجتماعية من خلق الله (الإيثار، والرحمة، والعاطفة، والإنصاف، وحب الآخرين ...).

بينما يرى سارتر والمار كسـية أنّ هـذه الخصال والنزعات الفرديـة وكـذلك الاجتماعيـة من إضافات الحياة الاجتماعية، ويولد الإنسان ولا يحمل فى نفسه خصـلة من هـذه الخصال الفرديـة والاجتماعيـة، وإنما يضـيفه إليه الوسط الاجتماعى الـذى يعيشه الإنسان، ويأخذه الإنسان منه.

والإسلام ينفى هذه الكلية، من غير أن ينفى دور الوسط الاجتماعى والتربية فى تحكيم هذه الخصال.

والفارق الآخر بين النهـج الإلهى فى إعـداد الإنسان للقاء الله، والمناهـج البشـرية الوجودية والماركسـية (وهما متقاربان فى هذه النقطة بالـذات)؛ إنّ المنهـج الإلهى يـدعو إلى تحديـد وتعـديل هذه الخصال والنوازع الفردية، ولا يدعو إلى إلغائها، بينما لانعرف للوجودية والماركسية منهجاً تربوياً لتعديل هذه النوازع فى نفس الإنسان.

و هذا الموضوع يحتاج إلى بسط، ليس موضعه هنا.

ص: ۲۰

و یقوی هـذا الإحساس لـدی الإنسان فی المطاف، وفی السـعی، وفی الموقف فی عرفات، وفی الإفاضـة إلی المزدلفـة، وفی المزدلفة، وفی منی، وفی العودة إلی الطواف والسـعی، ویتضاءل لدی الإنسان المسلم الإحساس بالأنا، ویتأکد لدیه الإحساس بالجماعة المسلمة، وبأنه عضو من جسم واحـد، ولیس فرداً من مجموعـة إنسانیـة، وبأن هذه الأُمّة کیان واحد (۱)، ومصـیر واحد، وما یصیبه من خیر وشر یصـیب الجمیع، وما یصیب الجماعة یصیبه لامحالة، وبأنه وحده لایستطیع أن یتحرک إلی الله علی خطی إبراهیم (ع) إلّا أن یذوب فی هذا الحشد البشری الکبیر المتجه إلی الله.

إنّ النـاس قبل أن یـدخلوا المیقات مجموعـة من الأفراد، یتمایزون فیما بینهم، ویتزایـدون، ویتکاثرون، ویتفاخرون، ویتجادلون، ویضـرّ بعضـهم بعضاً، ویعتدی بعضهم علی بعض، وتجمعهم المجامع من المدن، والضواحی، والقری، فتجتمع فی هذه المجامع هذه النزعات المتضاربـة، والأهواء المتخالفـة، والرغبات المتضادة، وتتقاطع، فتکون المجامیع البشـریة ساحـة للصـراع والخلاف؛ أمّا عنـدما یدخلون المیقـات، ویتجـاوزونه إلی الحرم، ویصـبّون من خلاـل قنوات المواقیت التی وقّتها رسول الله (ص) إلی الحرم، فإنهم یتحوّلون إلی أمّة واحـدة، یتحرکون باتجّاه واحـد، ویلبّون دعوة واحـدة، ویلبسون زیاً واحـداً، ویطوفون حول کعبـة واحـدة، ویسـعون فی مسار واحـد، ویؤدون مناسک واحـدة، لا یختلفون، ولا یتجادلون، ولا یتفاخرون، ولا یتضاربون، ولایؤذی بعضـهم بعضاً، وکأنّ الحرم یصـهرهم فی بوتقة واحدة، ویجعل منهم کیاناً جدیداً یختلف عما کانوا علیه.

حرم آمن

و أبرز خصائص هـذا الترکیب الجدید للمجتمع البشـری الذی یسـتحدثه (الحرم) فی حیاة الناس هو الأمن والإحساس ب- (الأمن) إنّ هذا الأمن من نتائج هذا

۱- إِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ الأنبیاء: ۹۲

ص: ۲۱

التركيب البشرى الجديد الذى يجده الناس فى الحرم، وهو فى نفس الوقت من أسبابه وموجباته.

فإنّ الناس إذا شعروا بالأمن، بعضهم من بعض، التقى بعضهم بعضاً فى غير حذر، وتعامل بعضهم مع بعض، وتلاقوا، وتآلفوا، وتعاونوا. فالأمن يُعدّ الناس، ليكونوا أمة واحدة، والأمن يعطى للناس هذه الفرصة التى تتطلبها عملية الانتقال من الحياة الفردية التى يعيشها عامة الناس إلى هذا النمط الجديد الذى يريده الله تعالى لعباده، والذى يرسم (الحرم) نموذجاً لها، كما يصح العكس أيضاً، فإنّ الأمن والإحساس بالأمن هو النتيجة الطبيعية لهذا اللون الجديد من الحياة الاجتماعية، فإنّ الناس عندما يحشرون فى الحرم لايختلفون، ولا يتشاجرون، ولا يتفاخرون، ولا يتزايدون، ولايتضاربون.

الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة

و الله تعالى يريد أن يكون وجه الأرض كله آمناً للناس، يعيش الناس بعضهم مع بعض فى أمن، ودعة، وسلام، لا يحقد بعضهم على بعض، ولا ينوى أحد لأحد شراً يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه، ويجب بعضهم بعضاً.

يقول تعالى فى صفة المهاجرين والأنصار فى الصدر الأول من هذا الدين ...

و لكن الناس يرفضون أن يعيشوا كما يريد الله تعالى لهم.

ص: ۲۲

فجعل الله لهم من الحرم (رقعة نموذجية) للحياة الآمنة التى يريدها للناس بدعاء عبده وخليله إبراهيم (ع) (وإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ). (۱) و قد استجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليله إبراهيم (ع) فقال: (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وأَمْناً). (۲)و المثابة، المحل الذى يثوب ويرجع إليه الناس، ويجمع الناس، وقد جعل الله تعالى البيت مثابة للناس، يجمع الناس، ويرجعون إليه، ويقصدونه من كلّ فجّ عميق، ثم جعله آمناً يأمن فيه الناس بعضهم من بعض، ولا يحذر فيه أحد الآخرين على نفسه؛ يقول تعالى: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً) (۳)، وجعل رقعة الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة كلها، كما جعل الشهر الذى يؤم فيه الحجاج البيت الحرام، وهو (ذو الحجة) من الأشهر الحرم.

يقول الله تعالى: (وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً).(۴) وحتى (الجدال) الذى يتضمّن نوعاً من الصدام، يحرمه الله تعالى على الحجاج (فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ فِي الْحَجِّ). (۵) و الأمن فى الحرم أمن شامل يشمل حتى الحيوان والنبات، فلا يجوز الصيد فى الحرم، ولا يجوز قطع النباتات والأشجار فيه، إلّا فى حالات خاصة يذكرها الفقهاء، وحرمة الصيد وقطع النباتات لاتخص حالة الإحرام، فإنهما تحرمان على المحُرِم والمحُلّ معاً فى منطقة الحرم.

و (الحرم) فى الإسلام عينة صغيرة لساحة الحياة كلها، والذى يحبّ أن يعرف

۱- البقرة: ۱۲۶

۲- البقرة: ۱۲۵

۳- العنكبوت: ۶۷

۴- آل عمران: ۹۷

۵- البقرة: ۱۹۷

ص: ۲۳

رأى الإسلام فى الحياة، فإنّ هذه العينة الصغيرة، والرقعة المحدودة من الأرض، تجسد تخطيط الإسلام لساحة الحياة الواسعة.

فإنّ (العلاقة) فيما بين الناس، والارتباط، والتلاقى، هو الإفراز الطبيعى للحياة الاجتماعية، فمن أجل هذه (العلاقة) و (اللقاء) و (التلاقى) خلق الله تعالى الإنسان اجتماعياً، وأعدّه للحياة الاجتماعية، ولايبلغ الإنسان الكمال والنضج الذى أعدّه الله تعالى له إلّا فى وسط هذه العلاقات واللقاءات، فى الحياة الاجتماعية؛ فلو أنّ إنساناً اعتزل الناس، وعاش وحده فى جزيرة قاصية فى البحر، لم يبلغ بالتأكيد النضج والكمال الذى أعده الله تعالى له، وهذه اللقاءات والعلاقات إنما تثمر، وتعطى، وتنتج فى حياة الإنسان، فيما إذا توفر له الجوّ السليم بالأمن والسلام؛ أمّا عندما تتكوّن هذه العلاقة فى جوّ من الريبة، والحذر، والخوف، والقلق، والعدوان، والكيد، والمكر، فإنّ هذه العلاقة والارتباط فيما بين الناس لا ـ تكاد تثمر هذه الثمرة، ولا ـ تكاد تبلغ بالإنسان النضج والكمال الذى يطلبه الإنسان فى الحياة الاجتماعية من خلال هذه العلاقات، بل قد تعود العلاقة فى مثل هذا الجوّ إلى نتائج سلبية فى حياة الإنسان، وهو كثير.

فالإسلام يخطط بناءاً على هذا الفهم، لإقامة شبكة العلاقات فيما بين الناس، وتنظيمها، وتهذيبها، وتحديدها بالحدود الإلهية الآمنة فى حياة الناس، ليجعل العلاقة فيما بين الناس فى الحياة الاجتماعية فى جوّ آمن وسليم، فيأمن الإنسان الآخرين على نفسه فى حضوره، وغيبته، وفى نفسه، وعرضه، وماله، كما يأمنه الآخرون على أنفسهم و أعراضهم وأموالهم فى الحضور والغياب، ويعيش فى جوّ من الأمن الشامل، ويبنى علاقاته كلها مع الآخرين فى هذا الجوّ الآمن، فى السّراء والضّراء، وفى التجارة والبيع، وفى الزواج والعلاقات الاجتماعية، وفى علاقاته مع أصدقائه وزملائه، وفى علاقاته مع أعضاء أسرته، وفى ارتباطه بمن هو فوقه ومن هو دونه، وحينما يأخذ

ص: ۲۴

وحينما يعطى، وحينما يحتاج إلى الآخرين، وحينما يحتاج إليه الآخرون.

يخطط الإسلام و يعمل ليجعل (العلاقة) فيما بين الناس فى الحياة الاجتماعية على كلّ الأصعدة فى جوّ من الأمن والسلام، لتعطى هذه (العلاقة) الثمرات المطلوبة منها فى الحياة الاجتماعية، ويسعى الإسلام فى هذا التنظيم والتخطيط الشامل للعلاقات الاجتماعية، ليجعل الحياة الاجتماعية حياة آمنة مطمئنة، يعيش الناس فيها بسلام.

(و الحرم)- كما قلنا- عيّنة صغيرة نموذجية من الحياة الآمنة والمطمئنة التى يطلبها الإسلام ... و (الإحرام) عينة أخرى نموذجية للحالة التى يطلبها الإسلام للناس فى الحياة الاجتماعية فى علاقة بعضهم ببعض.

و يعود الحجاج من (الإحرام) و (الحرم) إلى واقع حياتهم، ليأخذوا معهم النموذج الإلهى للحياة وللعلاقات الاجتماعية، ويعيشوا حياتهم بها، أو بما يقرب منها.

***

المرحلة الثالثة: الإنتقال إلى المحور الإلهى

وهذه هى المرحلة الثالثة من رحلة الحجّ الإبراهيمى

فى المرحلة الأولى يتخلّص الإنسان من فرديته، و أنانيته، و أعراض هذه الأنانية.

و فى المرحلة الثانية يصبّ فى الحرم فى الجماعة المسلمة، وينصهر فى هذه الجماعة (الأُمّة).

و فى المرحلة الثالثة وهى الغاية الأخيرة فى هذه الرحلة تصبّ هذه الجماعة فى المطاف حول الكعبة، لتطوف حول الكعبة.

و الكعبة فى لغة الحجّ الرمزية: هى المحوريه الإلهية فى حياة الإنسان، وإذا

ص: ۲۵

استطاع الإنسان فى المرحلة الأولى من هذه الرحلة أن يتخلص من جاذبية محور (الأنا) فى حياته، فإنّ المحور الإلهى يجذبه جذباً قوياً بطبيعة الحال إلى المحور الربانى.

و انجذاب الإنسان إلى هذا المحور أمر طبيعى كامن فى عمق فطرة الإنسان، و (الأنا) هو الذى يحجز الإنسان عن هذه الجاذبية، فإذا تحرّر الإنسان عن حاجز سلطان (الأنا) فإنّ الجاذبية الإلهية تجذبه و (الطواف) بعد الإحرام من الميقات يرمز لذلك.

و عليه فإنّ حركة الطواف نقلة رمزية تعليمية فى حياة الإنسان من الأنا إلى الله تعالى، و تعبير رمزى عن التوحيد فى حياة الإنسان المسلم، إلّا أنّ هذا التوحيد ليس هو التوحيد النظرى الذى يعرفه الناس، وإنما هو توحيد العبودية لله، وتوحيد الحبّ، والولاء، والاهتمام، كما ترسمه الآية المباركة: (قُلْ إِنَّ صَلاتِى ونُسُكِى ومَحْيايَ ومَماتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ* لا شَرِيكَ لَهُ وبِذلِكَ أمِرْتُ وأنَا أوَّلُ الْمُسْلِمِينَ). (۱)إنّ الطواف يرمز إلى الحركة الإنسانية الدائمة والمستمرة حول هذا المحور الإلهى فى التاريخ، وإننا لننظر من بعيد إلى حركة التاريخ، فنرى: أنّ حركة التاريخ تجسّد (التوحيد) فى حياة الإنسان، وأنّ الأنبياء: وأممهم- إلّا فى فترات قصيرة- يجسّدون هذه الحركة البشريه الدائمة حول محور الألوهية، فنشعر بحركة واحدة متصلة متواصلة، يتلقاها رسول من رسول، ونبى عن نبى، منسجمة وعلى صراط واحد، هو صراط الله المستقيم، ولكن عندما ندخل نحن ضمن هذه الحركة، فسوف نواجه ألواناً من المضايقات، والأذى، والمشاكسات من الهوى فى داخل أنفسنا، ومن الطاغوت فى المجتمع، ومن شياطين الجن والإنس، الذين يضايقون الناس فى حركتهم إلى الله، ومن التنافس، والتنابذ، والاختلاف، والتقاطع داخل الحركة، فيما بين المؤمنين أنفهسم.

و حركة الطواف حول الكعبة تجسد هذا الواقع بالدقة ... فإذا أطلّ الإنسان من

۱- الأنعام: ۱۶۲- ۱۶۳

ص: ۲۶

أعلی إلی المطاف، یری حرکة دائریة لجماهیر الطائفین بصورة مستمرة، وکأن أرض المسجد الحرام تطوف بهم حول البیت علی شریط متحرک فی حرکة منظمة وهادئة، أمّا إذا دخل فی المطاف، التقی بالوجه الآخر لهذه الحرکة الإنسانیة حول المحور الإلهی، من المعاناة، ومواجهة العقبات، والمضایقات، والتدافع، وهو یختلف اختلافاً کبیراً عن الوجه الأول الهادئ والمریح.

لماذا عبر الانصهار فی الجماعة؟

فی هذه الرحلة نحن نفهم المنطلق والغایة فی حرکة الإنسان بصورة دقیقة، فالمنطلق الذی ینطلق منه الإنسان هو تجاوز الأنا والذات، ویعبّر الإحرام فی المیقات عن هذا المنطلق.

و الغایة هی الحرکة إلی الله تعالی، وتوحید الله تعالی، ویرمز الطواف إلی هذه الغایة.

و لکن الإنسان فی الحج یصل إلی هذه الغایة عبر الانصهار فی الجماعة المسلمة، ومن دون الانصهار فی الأُمّة المسلمة لا یمکن الوصول إلی هذه الغایة.

إنّ التخطیط الإسلامی للحج یؤکّد علی ضرورة حضور الأُمّة المسلمة، وتواجدها فی موسم الحج، من کلّ فجّ عمیق.(۱)

(وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وعَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ). إنّ هذا الأذان، والأمان الجمعی، والدعوة الإلهیة العامة للحج من قبل الله ورسوله، والاستجابة، والتلبیة الجمعیة من قبل الناس، من کلّ فجّ عمیق، یشکل بالتأکید بعداً هاماً من أبعاد الحج.

و عندما نستعرض آیات الحج، و (الکعبة) و (البیت) فی القرآن، منذ أن رفع إبراهیم وإسماعیل القواعد من البیت، نجد اهتماماً کبیراً بحضور جمهور الناس فی

۱- الحج: ۲۷

ص: ۲۷

هـذا البیت، وفی هذا الموسم، وأبلغ ما فی ذلک تعبیر القرآن عن بیت الله بأنه بیت الناس: (إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وهُدیً لِلْعالَمِینَ* فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِیمَ ومَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً وللَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا). (۱) و من عجب أنّ الله تعالی یخصّ الناس- عباده- بأول بیت، وأشرف بیت، ویعلن عنه أنه بیت للناس، ثم یدعو الناس إلیه: (وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ).

و فی دعاء إبراهیم (ع) نجد أنّ إبراهیم، خلیل الرحمن، عندما أودع أهله وذریته بهذا الوادی القاحل غیر ذی زرع، دعا الله تعالی أن یجعل أفئدة من الناس تهوی إلیهم: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ). (۲)و نقرأ فی سورة البقرة: (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وأَمْناً). (۳) فالبیت مثابة للناس، یجتمع الناس حوله، ویثوب إلیه الناس، ویجمع الناس من کل حدب وصوب، ثم نقرأ أننا فی سورة المائدة:

(جَعَلَ اللَّهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ).(۴)

فالکعبة تقوّم حیاة الناس، وتَقوُم حیاة الناس بها، وعند الإفاضة یأمر الله تعالی عباده أن لا ینفرد بعضهم عن بعض فی الإفاضة، وإنما یفیض کل منهم من حیث أفاض الناس: (ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللَّهَ). (۵) إذن حضور جمهور الناس حول البیت، وتواجدهم فی الموسم، وانصهار الفرد فی البیت والحرم فی وسط جمهور الناس، شیء أساس فی الحج، فی طریق حرکة الإنسان، فی هذه الرحلة الإبراهیمیة، إلی الله تعالی.

۱- آل عمران: ۹۶- ۹۷

۲- إبراهیم: ۳۷

۳- البقرة: ۱۲۵

۴- المائدة: ۹۷

۵- البقرة: ۱۹۹

ص: ۲۸

ونتساءل بعد ذلك لماذا؟

ونتساءل بعد ذلك لماذا؟ (۱)

و هو سؤال هامّ يرتبط بسرّ من أسرار هذا الدين، فإنّ هذا الدين يحرك الإنسان إلى الله تعالى، ولكن من خلال الحضور فى وسط الناس ... وليس من داخل الكهوف والمغارات فى أعالى الجبال.

فالحج حركة إلى الله، ولكن من خلال الانصهار فى الناس، والصلاة معراج كل مؤمن، ولكن من خلال الجماعة، وحتى الاعتكاف الذى هو نحو من الخلوة يتمّ فى المسجد الحرام، ومسجد النبى (ص)، والمسجد الجامع فى الكوفة، والمسجد الجامع فى أىّ بلد، وليس فى مساجد الصغيرة، فنسأل مرة أخرى: لماذا لا تتم حركة الإنسان إلى الله فى الحج إلّا من خلال الانصهار فى الناس، ومن خلال الحضور فى وسط الناس؟

۱- يوجد نوعان من الخلوات السلوكيه:

خلوات للتأمل والتفكير، وهى خلوات مشروعة، وقد كان رسول الله ۹ يمارس هذه الخلوات قبل المبعث، ولم يرد نهى فى الشريعة عنها، ولكنها محدودة.

والنوع الثانى من الخلوات، خلوات للعبادة ومجاهدة النفس وكفّ النفس عن شهواتها وأهوائها، واعتزال الحياة الاجتماعية الحافلة بالمغريات والمزالق ... وقد نهت الشريعة عن هذا النوع من الخلوات واعتبرتها من الرهبانية المحظورة فى الإسلام.

وقد روى أنّ رسول الله ۹ جلس يوماً للناس ووصف يوم القيامة ولم يزدهم على التخويف، فرقّ الناس، وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة فى بيت عثمان بن مظعون، واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يقربوا النساء، ولا الطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدينا، ويسيحوا فى الأرض، ويترهّبوا؛ فبلغ ذلك النبى (ص) ... فأتى منزل عثمان، فأخبرته زوجته بذلك، فأتى هو وأصحابه إلى النبى (ص)، فقال: إنى لم أؤمر بذلك، ثم قال: إنّ لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنى أصوم، وأفطر، وأقوم، وأنام، وآكل اللحم والدسم، وآتى النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى، ثم جمع الناس، فقال: ما بال قوم حرّموا النساء، والطيب، والنوم، وشهوات الدنيا..، وأما أنا فلست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً، إنه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء واتخاذ الصوامع، إنّ سياحة أمتى فى الصوم، ورهبانيتها فى الجهاد. (عوالى اللئالى ۴۲: ۲)

وفى رواية أخرى، جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبى ۹ فقالت: يا رسول الله! إنّ عثمان يصوم النهار، ويقوم الليل، فخرج رسول الله مغضباً يحمل نعليه، حتى جاء إلى عثمان، فوجده يصلّى، فانصرف عثمان حين رأى رسول الله ۹، فقال له: يا عثمان! لم يرسلنى الله بالرهبانية، ولكن بعثنى بالحنيفية السهلة السمحة، أصوم وأصلّى، وألمس أهلى، فمن أحبّ فطرتى فليستنّ بسنتى، ومن سنتى النكاح. (بحارالانوار ۲۲: ۲۶۴)

ص: ۲۹

والجواب:

إنّ من غير الممكن أن يتجاوز الإنسان (الأنا) فی عزلة من الناس، وهو شرط أساس فی الحرکة إلی الله تعالی.

إنّ الإنسان قد یتصور إذا اعتزل الناس وابتعد عن الحیاة الاجتماعیة، یتحرّر من الأنا والهوی، ولکنه یخطئ کثیراً، فإنّ نزعات الأنانیة تبقی مطویة فی خبایا دهالیز النفس العمیقة، وهو غیر شاعر بها، فإذا دخل الحیاة الاجتماعیة، واحتک بالناس وأثاره الناس، برزت هذه النزعات المخبوءة علی السطح الظاهر من شخصیته، ولا یمکن اجتثاث هذه النزعات، والقضاء علیها، إلّا فی وسط الحیاة الاجتماعیة.

إنّ هذه النزعات لایمکن استئصالها إلّا من خلال صراع مریر مع النفس فی وسط الحیاة الاجتماعیة، ولا شک أنها تختفی فی حیاة العزلة والرهبانیة، وتبقی کامنة ومختفیة فی النفس، ولکنها عندما تصادف فرصة مناسبة، وجوّاً مناسباً، تبرز مرة واحدة، ولذلک نجد فشل وانتکاسة الکثیر من التجارب الرهبانیة عند أوّل احتکاک بالحیاة الاجتماعیة.

إنّ الحقیقة المؤسفة فی هذه التجارب التجریدیة للنفس: أن النوازع الفردیة لم تنته، ولم تمت أثناء التجربة الرهبانیة، ولکنها تخمد لعدم وجود الوسط الملائم لبروزها وحرکتها، وعند أول احتکاک بواقع الحیاة الاجتماعیة تعود قویة نشطة.

و لذلک لابدّ من هذا الوسط الاجتماعی، والحیاة الاجتماعیة، والحضور فی وسط المغریات، والمثیرات، والفتن (۱)، لیستطیع الإنسان أن یتجاوز (الأنا) بصورة کاملة.

و حقیقة أخری لا تقل أهمیة عن الأولی، وهی أنّ حرکة الإنسان إلی الله تعالی حرکة شاقة، عسیرة، وصعبة، ولا یستطیع الإنسان أن یطوی هذا الطریق

۱- ولیس معنی ذلک أن یعرض الإنسان نفسه لمزالق الشیطان، ویحضر مواقع الفتنة، وبین هذا وذاک فرق لا یخفی علی اللبیب.

ص: ۳۰

وحـده، فإذا حشـر نفسه فی الجماعـة المؤمنـة، وانصـهر فی وسط الأُمّة، هان علیه السـیر، واسـتطاع أن یطوی معهم هذا الطریق بکفاءة، وجدارة، ویسر.

لذلک نقول فی الصـلاة، ونکرّر فی کلّ یوم عشـر مرات: (إِیَّاکَ نَعْبُدُ وإِیَّاکَ نَسْـتَعِینُ)، بصـیغة الجمع، ولیس بصیغة المتکلم لوحده، فإنّ الطریق إلی الله طریق صعب، ولیس من شک أنّ سلوک هذا الطریق وطیّ هذه المسافة مع الجماعة المؤمنة، آمن، وأسلم، وأیسر.

و لذلک نجد أنّ الطریق إلی الله تعالی یتمّ فی الإسلام عبر الحضور فی الجماعة المسلمة، والانصهار فیها، ولیس بمعزل عنها.

الأبعاد الثلاثة للحج:

تلک هی المراحل الثلاثة التی یرسمها الحج، بلغته الرمزیة الخاصة:

۱- مرحلة تجاوز الذات.

۲- مرحلة الانصهار فی الجماعة.

۳- مرحلة الحرکة إلی الله.

و هـذه المراحـل الثلاثـة هی الأـطراف الثلاثـة فی علاقات الإنسان، فإنّ للإنسان علاقـة بالله تعالی أولًا، وعلاقـة بالمجتمع ثانیاً، وعلاقة بنفسه ثالثاً.

و هذه العلاقات الثلاثة منظورة جمیعاً فی الحج فی هذه المراحل الثلاثة، ومن عجب أن تکون علاقة الإنسان بالجماعه وانصـهاره فیها، هو الجسـر الـذی یوصل الإنسان إلی الله تعالی، ولیس هو الحاجز والحجاب والعقبـة، کما فی التصورات الرهبانیـة المجافیـة لروح هذا الدین.

***

ص: ۳۱

البيت الحرام

اشارة

ص:۳۲

ص: ۳۳

(جَعَلَ اللهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ)(۱) .

یطلق «البیت الحرام» فی القرآن علی الکعبة المشرفة، وتتضمن هذه الکلمة مفردتین:

(البیت) و (الحرام).

وفیما یلی سأتحدث إن شاء الله عن کل من هاتین الکلمتین، ونبدأ بالحدیث عن (البیت).

۱- البیت

اشارة

یکثر فی القرآن استعمال (البیت) فی الکعبة الشریفة، وفیما یلی نذکر طائفة من آیات کتاب الله، التی أطلقت کلمة (البیت) علی (الکعبة):

(وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَ إِسْماعِیلُ)(۲) .

(فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما) (۳).

(وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً)(۴) .

۱- المائدة: ۹۷

۲- البقرة: ۱۲۷

۳- البقرة: ۱۵۸

۴- البقرة: ۱۲۵

ص: ۳۴

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً)(۱) .

(وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا)(۲).

مقوّمات البيت:

ولا بد من أن نقف وقفة تأمل قصيرة عند هذه الكلمة.

إن للبيت مقومات ثلاثة:

۱- فالبيت يجمع شمل الأسرة الواحدة من نسيج حضارى واحد.

۲- وفى البيت يجد الإنسان (سكناً) واستقراراً لا يجده فى غيره، وفى أى مكان آخر على وجه الأرض. يقول تعالى (وَ اللهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً) (۳).

و (السكن) هو ما يطمئن إليه الإنسان، ويجد فيه استقراره النفسى، ويركن إليه.

وقد عَدَّ الله تعالى (الصلاة) و (الليل) و (الدار) الّتى يؤوى إليها الناس سكناً.

يقول تعالى: (وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ) (۴).

فالإنسان يسكن إلى الصلاة والدعاء واللجوء إلى الله تعالى، ويجد فى كلّ ذلك سكناً، تطمئن به نفسه وقلبه (أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) وطمأنينة القلوب، وسكون النفس من مقولة واحدة.

والليل، يسكن إليه الإنسان، ويجد فيه راحة من زحمة النهار ومتاعبه، يقول تعالى: (وَ جَعَلَ اللَّیْلَ سَکَناً) (۵).

۱- آل عمران: ۹۶

۲- آل عمران: ۹۰

۳- النحل: ۸۰

۴- التوبة: ۱۰۳

۵- الانعام: ۹۶

ص: ۳۵

والدار التى يسكنها الإنسان هى الأخرى سكن وقرار له. يقول تعالى: (وَ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً)(۱) .

۳- إضافةً الى ما يتذوقه الإنسان فى البيت من (السكن والاستقرار النفسى) ... يجد فى البيت (الأمان) أيضاً، فإنَّ للبيت فى المجتمعات البشريّة حرمة وأماناً، وقد يخترق الظالمون هذه الحرمة ويدخلون الرعب الى (البيوت)، ولكن يبقى الأصل فى (البيت) الحرمة والأمان، وليس لأحد الحقُّ أن يخترق هذه الحرمة والأمان إلا بموجب القانون الذى يحمى حرمة المجتمع وأمن المجتمع؛ وحرَّم القرآن على الذين آمنوا أن يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم إلا بعد الاستيناس والسلام والإذن من أصحابها، يقول تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)(۲) .

(البيت) والانتماء الحضارى

يعيش الناس على وجه الأرض على حالتين حالة الانتماء الحضارى وحالة اللاانتماء، والحالة الأولى هى: حالة الحياة البيتية، والحالة الثانية هى: حالة الغربة الحضارية واللاانتماء.

وحالة (البيت) هى حالة الانتماء والتآلف والتعاون، وفى هذا النمط من الحياة يُحِسّ الإنسان بالعلاقة العضوية بالمجتمع الذى يحتضنه ويؤويه، ويتذوق التآلف والتعارف فى الحياة الاجتماعية، وهذه الحالة هى حالة الإنسان الذى ينتمى

۱- النحل: ۸۰

۲- النور: ۲۷، ۲۸

ص: ۳۶

الی‌البیت.

والحالة الأخری هی حالة اللاانتماء، وهی حالة لا حضاریة یفقد فیها الإنسان الإحساس بالعلاقة العضویّة بالمجتمع الذی یعیش فیه، ویفقد فیها الإحساس بالتآلف والتعارف، ویسیطر علیه شعور غریب ب- (الغربة)، وهذه الحالة هی حالة الإنسان الذی لا ینتمی الی بیت.

ومن یقرأ روایة (الغریب) (۱)... یشعر بصورة دقیقة بعمق الشعور بالغربة فی نفس الإنسان المعاصر، وهذه هی حالة عدم الانتماء الی بیت یجمع شمل المجتمع.

إذن فی حیاة الناس حالتان: حالة البیت، وحالة اللابیت.

وحالة البیت لیست حالة واحدة، بل حالتین: بیت التوحید وبیت الشرک، ونتحدث الآن عن هذین البیتین فی حیاة الناس.

بیت التوحید وبیت الشرک:

یعبّر کل من هذین البیتین عن حالة الإنتماء الحضاریة فی حیاة الإنسان، غیر أن البیت الأوّل انتماء الی أسرة التوحید، والبیت الثانی انتماء الی أسرة الشرک، وکل منهما انتماء، ولا یصح أن نتصور أن حالة الشرک والکفر لا تعبر عن الإنتماء غیر أن الانتماء انتماءان.

وکل من هذین الإنتماءین یتألّف من نسیج حضاری تحکمه شبکة من العلاقات العضویة. والقرآن یقرر هذه الحقیقة فی کل من هذین البیتین، یقول تعالی عن العلاقة العضویة داخل البیت الأول: (وَ الَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ) (۲) الذین آووا ونصروا فی التاریخ، وعلی وجه الأرض أسرة واحدة، أینما کانوا من الأرض، ومن التاریخ ... بعضهم أولیاء بعض، ولا تضعف وشیجة

۱- ۱ قصة وجودیة معروفة لالبیرکامو مترجمة إلی العربیة تعبر عن حالة الغربة الحضاریة للإنسان.

۲- المائدة: ۵۱

ص: ۳۷

الولاء بالفواصل المكانية والزمانية الشاسعة ولا باختلاف اللغات والألوان والدماء.

ولوشيجة (الولاء) أصولها وأحكامها ومقوماتها. وهذه الوشيجة هى التى تحفظ أُسرة التوحيد من التفكّك والتفرق والتمزق، والعقم والتعطيل فى التاريخ.

إلّا أنّ هذه العلاقة العضوية لا تخصّ أسرة التوحيد ... فإن الذين كفروا، فى أنحاء الأرض وفى التاريخ أيضاً، أسرة واحدة، على وجه الأرض، فى مواجهة أسرة التوحيد، رغم كل الخلاف الثقافى والسياسى والعسكرى فيما بينهم، داخل هذه الأُسرة.

يقول تعالى فى الوشيجة الحضارية داخل الأسرة الكافرة: (وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ)، ويقول تعالى عن حالة النفاق والمنافقين: (الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) ((۱))، ولا أعرف تعبيراً أدق فى تصوير حالة الانتماء والعلاقة العضوية داخل هذه الأسرة من قوله تعالى: (بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) وقوله تعالى: (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) و فى داخل هذه الأسرة الكبيرة أُسرٌ صغيرة أيضاً (بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ) على درجات مختلفة من القوة والضعف، ولكن تبقى القاعدة الثابتة فى كلّ الحالات، وفى المجتمعات الصغيرة والمجتمع الكبير أنها بعضها من بعض.

وليس معنى ذلك أن الأسرة الكافرة تابعة لمحور ولاء واحد، فهى قد تكون ولاءات متعددة، وصدق الله تعالى فى التعبير عن هذه الحقيقة حيث يقول: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) (۲) فالذين كفروا لهم ولاءات عديدة، إلا أنهم لهم براءة واحدة، لا يختلفون فيها وهى البراءة من الذين آمنوا.

۱- ۲ التوبة: ۶۷

۲- البقرة: ۲۵۷

ص: ۳۸

يقول تعالى: (ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) (۱) ويقول تعالى: (وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا) (۲) وهذه البراءة الواحدة تجعلهم صفاً واحداً كتلة واحدة، كلما اقتضى الأمر، فى مواجهة الأمّة المسلمة، وتكسبهم بذلك حالة الولاء الواحدة، فتكون عندئذ كما قال ربنا: (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) و (بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ). فالذين كفروا، إذن رغم كلّ الصراع والخلاف المنتشر بينهم أمة واحدة، وأسرة واحدة، وكتلة واحدة فى مواجهة الذين آمنوا، ولنقرأ بيان هذه الحقيقة الخطيرة من كتاب الله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) . وفى سورة الأنفال: (وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ).(۳)

إذن هناك فى التاريخ بيتان، وعلى وجه الأرض (بيتان) و (أسرتان) و (جبهتان) و (انتماءان) انتماء الى الله ورسوله وإلى الذين آمنوا، وهذا هو الانتماء الأول، وله عمق وجذور ضاربة فى التاريخ منذ إدريس، ونوح، وإبراهيم

والامتداد الآخر انتماء إلى الذين كفروا، وهذا هو الانتماء الثانى.

وكل منهما (بيت)، تحكمه علاقات البيت الواحد، من حيث الولاء والبراءة.

أيّ البيتين أَقدم؟

إذا عرفنا أنّ هناك بيتين فى التاريخ، وعلى وجه الأرض، فإنَّ من الطبيعى أن نتساءل أيّ البيتين أسبق وأَقدم فى التاريخ ... بيت التوحيد أم بيت الشرك؟

۱- البقرة: ۱۰۵

۲- البقرة: ۲۱۷

۳- المائدة: ۵۱

ص: ۳۹

الـذى يقرره القرآن: أن النـاس كـل النـاس كـانوا على هـدى التوحيـد بـالفطرة، ثـم اختلفـوا بعـد ذلـك فبعث الله تعـالى فيهم النـبيين والمرسلين مبشرين ومنذرين.

يقول تعالى: (وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)(۱) .

ويقول تعـالى: (كـانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِـدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْـذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) (۲).

إذن البيت الأول فى التاريخ هو (بيت التوحيد)، ولما اختلف الناس وانشـقّوا عن التوحيد أقاموا لأنفسهم بيتاً بديلًا، بدلًا عن البيت الذى أقامه الله تعالى لهم.

فكان هذا البيت الثانى متأخّراً عن البيت الأول، وانشقاقاً على البيت الأول، وخروجاً على أصوله وقيمه وأحكامه.

الصراع بين البيتين:

ومنـذ أن انشقَّ البيت الثـانى عن البيت الأـول اسـتقر بينهمـا الصـراع الى اليوم، ولا يزال الصـراع قائماً بينهما، حتى يقضـى الله أمراً كان مفعولا.

والصـراع بين هـذين البيتين من حتميـات التاريـخ، ورغم كل شـراسَة الشـرك فى ضـرب قلاع التوحيـد، فإن بيت التوحيـد بيت مقاوم وصـعب، وبيت الشـرك بيت موهون وضـعيف كبيت العنكبوت، يتخـذه العنكبوت ليكون لها وقايـة وأمناً، فتمزقه الرياح وتبدده (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ).(۳)

۱- يونس: ۱۹

۲- البقرة: ۲۱۳

۳- العنكبوت: ۴۰

ص: ۴۰

الكعبة بيت الموحدين

وقرّر الله تعالى أن تكون الكعبة المشرفة بيتاً للموحدين، يجمع شملهم من نقاط شتى من الأرض، ويوحدّ جهة حركتهم على امتداد التأريخ، ويؤلّف بين قلوبهم، ويوحّدها، برغم الفواصل المكانية والزمانية الكثيرة، ويؤلّف بين قلوبهم، ويُعرّف بينهم.

والمعمار الأول لهذا البيت هو إبراهيم (ع) وابنه إسماعيل:

و قداستولى المشركون على البيت ردحاً من الزمان، ولكن هذا البيت للمتقين حصراً بقرار من الله تعالى صاحب البيت.

وهذا فارق جوهرى بين هذا البيت، وبيوت الشرك، فإن أولياء هذا البيت المتقون حصراً، حتى إذا تسلط عليه الجائرون والمشركون.

وأما غير هذا البيت من بيوت الشرك والكفر فلا يتولاه إلا الجبابرة والطغاة، والصادون عن سبيل الله.

و روّاد هذا البيت، بعكس روّاد البيوت الأخرى، هم الطائفون والعاكفون والركع السجود.

وهذا هو الفارق الجوهرى الآخر بين هذا البيت والبيوت التى يقيمها الكافرون

ص: ۴۱

لأنفسهم فی الأرض.

فإن هـذا البيت رواده الطائفون، العاكفون، الركع السجود، المسبحون، الـذاكرون، بينما يرتاد البيوت التی يقيمها الكافرون أهل البطر وأهل الرياء من الناس، ومن لا يطلب فی عمله وحركته وجه الله.

الكعبة البيت الأول على وجه الأرض

والكعبة، بصراحة القرآن، أول بيت وضع للناس، يقول تعالى:

كان لابـد لأسـرة التوحيـد فی التاريخ، وعلى وجه الأرض، من موضع يجمع شـملهم، ويوحّد جهة حركتهم، ويقرّب، ويعرّف، ويؤلف بينهم، فأَمَر الله تعالى إبراهيم وإسـماعيل ببناء الكعبة المشـرفة؛ ليتخذه الناس (أهل التوحيد) بيتاً لهم، وليكون لهم سـكناً، وأَمناً، ومحلا يجمع شملهم.

وهو أول بيت للناس، وبعد ذلك عمّر أولياء الله بيوتاً كثيرة للناس على وجه الأرض.

وأمـا البيوت التی أقامها المشـركون للبطر والرياء فلم تكن لخدمـة الناس وتوجيههم إلى الله، وإنما كانت لتضـليل الناس، واسـتعبادهم، وصـدّهم عن سبيل الله، ولم تكن بأمر الله، وإنما كانت بإغراء وإغواء من الشـيطان، لدعوة الناس إلى الانشـقاق على التمرد على حدود الله، وليَأوی إليه المنشقون على حدود الله وأحكامه.

ص: ۴۲

الكعبة (بيت الله) و (بيت الناس)

الكعبة، بصراحة القرآن (بيت الله) وفي نفس الوقت (بيت الناس) أيضاً.

وسوف نقدم إن شاء الله توضيحاً لهاتين النسبتين للكعبة الشريفة فيما يلي:

بيت الله

الكعبة (بيت الله) بصريح القرآن؛ نسبه الله تعالى إلى نفسه، ونسبه إليه تعالى عبده وخليله إبراهيم، وأنبياؤه (عليهم السلام).

يقول تعالى لعبديه وخليليه إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام): (طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ).(۱) وينسب إبراهيم (ع) البيت إلى الله، فيقول كما يحدثنا القرآن: (رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)(۲) والله تعالى بَوَّأ لإبراهيم (ع) مكان البيت من الأرض يقول تعالى:

والله تعالى أمر إبراهيم (ع) أن يطهر بيته ويُعِدّه للطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود من عباده (وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ).

وأمر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم أن يعلن في الناس حجّ هذا البيت، ويدعو الناس إليه.

والله تعالى جذب أفئدة الناس من كلّ فجّ عميق إلى هذا البيت، وإلى

۱- الحج: ۲۶

۲- إبراهيم: ۳۷

ص: ۴۳

الاستجابه لأذان إبراهيم (ع) (يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ). (۱)

منزلة الكعبة عند الله:

وهذا البيت أحبّ بقاع الأرض إلى الله تعالى.

روى الصدوق فى الفقيه، عن سعيد بن الأعرج، عن أبى عبد الله (ع)، قال: أحبّ الأرض إلى الله تعالى مكة، وما تربة أحبّ إلى الله عز وجل من تربتها، ولا حجر أحبّ إلى الله من حجرها، ولا شجر أحبّ إلى الله من شجرها، ولا جبال أحبّ إلى الله من جبالها. (۲)وروى الكلينى عن ابن أبى عمير عن زرارة، قال: كنت قاعداً إلى جنب أبىجعفر (ع)، وهو مستقبل الكعبة، فقال: (أما إنّ النظر اليها عبادة).

فجاءه رجل، من بجيلة يقال له: عاصم بن عمر، فقال لأبى جعفر (ع): إن كعب الأحبار كان يقول: إنّ الكعبة تسجد لبيت المقدس فى كل غداة.

فقال أبو جعفر (ع): فما تقول فيما قال كعب الأحبار؟ فقال: صدق. القول ما قال كعب.

فقال أبو جعفر (ع): كذبت وكذب كعب الأحبار معك، وغضب.

قال زرارة: ما رايته إستقبل أحداً بقول: كذبت، غيره.

قال (ع): ما خلق الله عز وجل بقعة فى الأرض أحبّ إليه منها؛ ثم أومأ بيده نحو الكعبة، ولا أكرم على الله عز وجل منها، لها حرّم الله عز وجل الأشهر الحرم فى كتابه، يوم خلق السماوات والأرض ثلاثة متوالية للحجّ: شوال، وذو القعدة،

۱- الحج: ۲۷

۲- من لا يحضره الفقيه ۲/ ۱۶۲

ص: ۴۴

وذو الحجة، وشهر مفرد للعمرة، رجب.(۱) وقد تظافرت الروايات: إنّ النظر إلى الكعبة عبادة.

روى حريز عن أبى عبد الله (الصادق) (ع) قال:

النظر إلى الكعبة عبادة، والنظر إلى الوالدين عبادة، والنظر إلى الإمام عبادة. وقال: مَن نظر إلى الكعبة كتبت له حسنة، ومحيت عنه عشر سيئات. (۲) وعن سيف التمار عن أبى عبد الله (ع) قال: من نظر إلى الكعبة لم يزل تكتب له حسنة، وتمحى عنه سيئة حتى ينصرف ببصره عنها. (۳)وعن أبى عبد الله الصادق (ع)، قال: من أيسر ما يعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه الله بكل نظرة حسنة، وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة.(۴)

بيت الناس

والكعبة بيت الناس، جعله الله للناس بيتاً، يَأوون ويثوبون إليه، ويتآلفون ويتعارفون فى رحابه؛ يقول تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً).(۵) فما هى علاقة هذا البيت بالناس، بعد علاقته بالله تعالى؟

من خلال كتاب الله نتعرف على وجوه ثلاثة لهذه العلاقة.

فهو مسجد للناس أولًا، ومثابة للناس ثانياً، وقوام معايش الناس، ومصالحهم فى الدنيا، ومنازلهم ومواقعهم من الله فى الآخرة ثالثاً.

وإليكم إيضاحاً لهذه الأنحاء الثلاثة من علاقة البيت بالناس من خلال

۱- الكافى، الفروع ۲۳۱: ۱، ووسائل الشيعه ۳۶۳: ۹

۲- وسائل الشيعة ۳۶۴: ۹

۳- المصدر نفسه.

۴- المحاسن للبرقى ۶۹

۵- آل عمران: ۹۶

ص: ۴۵

کتاب‌الله.

۱- الکعبة مسجد للناس، وفی رحابها یجتمع الطائفون، العاکفون، القائمون، الراکعون، الساجدون، المسبحون، الذاکرون الله کثیراً؛ لیذکروا الله کثیراً، ویسبحوه، ویطوفوا له، ویعکفوا فی بیته.

یقول تعالی:

ویقول تعالی:

ویُسْکن إبراهیم أبو الأنبیاء (ع) ذریته عند البیت الحرام؛ لیقیموا فیه لله الصلاة.

إذن، فقد وضع الله تعالی هذا البیت للناس؛ لیتخذوه مسجداً، ومصلی ومطافاً، ومقاماً بین یدیه تعالی ... ومن هذا البیت ینطلق الناس الی الله، وفی هذا البیت أَمر الله تعالی عباده أن یعبدوه، ویوحّدوه، ویسبحوه ویذکروه کثیراً.

۲- والکعبة مثابة للناس یثوبون إلیها، فیجتمع بعضهم ببعض، والخلف بالسلف، والإنسان بنفسه، یقول تعالی: (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ) ومن طبیعة الحیاة الدنیا أنها تشتت، وتُقَطِّع وتُغیّب.

تشتت الناس بعضهم عن بعض.

وتُقَطّع الناس عن أصولهم.

ص: ۴۶

وتُغيب الإنسان عن نفسه.

وهـذا التشتيت والتقطيع والتغييب، يَضُـرُّ الإنسان، ويفسده ويغرّبه (يشـعره بالغربَة)، ويحجبه عن أصوله وشـمله، فلابد للإنسان من محل يثوب إليه، يجمع شملهم بعضهم ببعض، ويصل الإنسان بأصوله، ويعيد الإنسان الى نفسه.

والكعبة هى هذه المثابة التى جعلها الله تعالى للناس، فهى تجمع الناس كل سنة مرة منذ أن أذّن إبراهيم (ع) فى الناس بالحج إلى اليوم (وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

ويجمع النـاس فى كل يوم خمس مرات من شتى مناطق الأرض، يسـتقبلونها فى صـلواتهم، يقول تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ). (۱) فيجد المسـلمون الموحّدون، الذين أسلموا وجوههم لله على ملّة إبراهيم فى الكعبة مثابة لهم، تجمعهم كلّما تشتتوا، وتوحّد حركتهم كلما تفرقت بهم المذاهب والمسالك فى الحياة الدنيا.

وتصـل الخلف بالسـلف، كلما قطعت الحياة الـدنيا هـذه الأواصـر التى تربط الأبناء بالآباء، فيعيـدهم البيت الحرام إلى آبائهم وأصولهم إبراهيم وإسماعيل، ويأمرهم الله تعالى أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى (وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى).

فيـذكّرهم (المقام) بإبراهيم، و (الحجر وزمزم) بإسـماعيل و (الصـفا والمروة) بهاجر، ويـذكرهم البيت الحرام بالأنبياء الذين طافوا بهذا البيت، وحجوا إليه (عليهم السلام).

وإذا عاد الناس الذين أسلموا لله حنفاء، بعضهم إلى بعض، وعادوا إلى أصولهم وأسلافهم ... عادوا إلى أنفسهم، ولم يضيعوا فى زحمة الحياة.

فالكعبة تشعر هذه الأمة بعرضها العريض على وجه الأرض، وعمقها

۱- البقرة: ۱۴۴

ص: ۴۷

فی التأریخ.

إن المسلم الذی یحضر ضمن هذا الحشد الهائل من حجاج بیت الله الحرام ... یلمس فی الحج حجمه وعمقه ونفسه، فیلمس حجمه الحقیقی فی الحشد الهائل الذی یقصد الحج من مختلف مناطق الأرض، ویلمس فی الحج عمقه الحقیقی، عندما تذکره الکعبة وأجواؤها بجذوره التأریخیه الضاربة فی أعماق التاریخ، ویشعره الحج بأنه فرع من الشجرة الطیبة التی تضرب أصولها فی أعماق الأرض، وفروعها فی السماء، وأعظم من هذا کله أنّه یجد نفسه عند الکعبة عندما یتعرف علی أصوله وأسرته وبیته.

وهذا هو البعد الأول من هذه المعرفة وهو بعد «الولاء».

والبعد الثانی هو بعد «البراءة»، فإن البیت الحرام کما یصل الإنسان بالله تعالی، وبأصوله وجذوره الممتدة فی التأریخ، وبأسرة التوحید الکبیرة علی وجه الأرض، کذلک یقطعه عن المشرکین ویفصل بینه وبین أسرة الکفر والشرک علی وجه الأرض وفی التأریخ.

ففی رحاب الکعبة إذن یثوب الناس إلی أصولهم، وأسرتهم، وبیتهم، ویتمیزون، وینفصلون عن المشرکین والکفار.

یقول تعالی: (وَ أَذانٌ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی النَّاسِ یَوْمَ الْحَجِّ الأَکْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِیءٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ وَ رَسُولُهُ). (۱) ۳- والکعبة تؤمّن معیشة الناس، وتقوّم معایشهم فی دنیاهم، کما تُقوّم آخرتهم.

وهذه الحقیقة یذکرها الله تعالی لعبده وخلیله إبراهیم (ع) عندما أمره أن یؤذِّن فی الناس بالحج.

۱- التوبة: ۳

ص: ۴۸

(وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ). (۱) کما أنّ هذه القضیة وردت فی دعاء إبراهیم (ع)، عندما أودع أهله وذریته بوادٍ غیر ذی زرع عند البیت المحرم لیقیموا الصلاة.

فقد دعا الله تعالی أن یجعل أفئدة من الناس تهوی إلیهم، ویرزقهم من الثمرات.

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ). (۲) وقد استجاب الله دعاء عبده وخلیله إبراهیم (ع).

الکعبة قیام للناس

فالکعبة إذن قضیة کُبری وأساسیة فی حیاة الناس، لا یستغنی عنها الناس فی دنیاهم، ولا فی آخرتهم، ولا یستغنون عنها فی سلم أو فی حرب، ولا فی ولاء من یجب ولاؤه، ولا فی البراءة عمن تجب البراءة عنه.

فهی إذن قوام حیاة الناس، یقول تعالی: (جَعَلَ اللهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ).(۳) و «القیام» هو ما یُقوّم حیاة الناس.

وقد ذکر الله تعالی فی کتابه المال، وقال عنه: إنه قیام للناس، قال تعالی: (وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَکُمُ الَّتِی جَعَلَ اللَّهُ لَکُمْ قِیاماً).(۴)

۱- الحج: ۲۷- ۲۸

۲- إبراهیم: ۳۷

۳- المائدة: ۹۷

۴- النساء: ۵

ص: ۴۹

والكعبة، قيام للناس، يُقَوِّم حياة الناس ومعايشهم فى الدنيا، كما تُقوّم آخرتهم، فيَستقيم بها دينهم ودنياهم وآخرتهم.

وقد روى: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة». (۱)فإن الكعبة تُقوّم دين الناس ودنياهم، وتدفع عنهم العذاب الذى يستحقه الناس بأعمالهم.

عن أبى عبد الله الصادق (ع) قال: لو ترك الناس الحجّ أنزل عليهم العذاب. (۲) وعن عبد الرحمن بن أبى عبد الله، قال: قلت لأبى عبد الله (ع): إنّ ناساً من هؤلاء القصاص يقولون: إذا حج الرجل حجة ثم تصدّق ووصل كان خيراً له، فقال: كذبوا، لو فعل هذا الناس لعُطِّل هذا البيت، إن الله عز وجل جعل هذا البيت قياماً للناس. (۳)

الكعبة مباركة

وجعل الله الكعبة مباركة فى الحياة، تستنزل رحمة الله تعالى وبركاته على الناس، يقول تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ). (۴) فهى من منازل رحمة الله على الناس.

روى معاوية بن عمار، عن أبى عبد الله (ع) قال: إنّ الله تبارك وتعالى جعل حول الكعبة عشرين ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين. (۵)

۱- وسائل الشيعة ۱۴: ۸

۲- المصدر نفسه ۱۳: ۸

۳- المصدر نفسه ۱۴: ۸

۴- آل عمران: ۱۹۶

۵- وسائل الشيعة ۳۶۳: ۹

ص: ۵۰

وعن الحسن بن راشد عن أبی عبد الله (ع)، قال: «قال أمیر المؤمنین (ع): إذا خرجتم حجاجاً الی بیت الله، فأکثروا النظر الی بیت الله، فإن لله مائة وعشرین رحمة عند بیته الحرام: ستون للطائفین، وأربعون للمصلین، وعشرون للناظرین»(۱) .

هذا إجمال من رسالة الکعبة ودورها فی حیاة الناس، فهی تشدّهم بالله تعالی وبأولیائه، وتشدّهم بأسرة التوحید علی وجه الأرض، وفی التاریخ، وتجمع شملهم، وتؤلف بین قلوبهم، وتوحد حرکتهم، وتعرّف بینهم، وتؤلف بین قلوبهم، وتعیدهم إلی أنفسهم، وتُقوّم لهم معایشهم فی دنیاهم، ومنازلهم من الله فی آخرتهم.

۲- الحرام

اشارة

الحرام والحرمة بمعنی الحظر والمنع.

یقول تعالی:

(وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُکُمُ الْکَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ).(۲) (قُلْ أَ رَأَیْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللَّهِ تَفْتَرُونَ). (۳) وتأتی کلمة المُحرّم بنفس المعنی، یقول تعالی: (قُلْ لا أَجِدُ فِی ما أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلی طاعِمٍ یَطْعَمُهُ). (۴)کما أنّ «الحَرْم» وهو المنطقة المحیطة بالبیت الحرام منطقة حظر ومنع، ویطلق علیه الحرم بهذا الاعتبار.

۱- المصدر نفسه ۳۶۵: ۹

۲- النحل: ۱۱۶

۳- یونس: ۵۹

۴- الأنعام: ۱۴۵

ص: ۵۱

یقول تعالی:

(أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ) (۱).

والشهر الحرام هو کذلک شهر حظر فیه الله تعالی القتال.

یقول تعالی: (یَسْئَلُونَکَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِیهِ قُلْ قِتالٌ فِیهِ کَبِیرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ کُفْرٌ بِهِ). (۲) یقول الراغب فی (المفردات): و «الحَرَم» سمی بذلک لتحریم الله تعالی فیه کثیراً مما لیس بمُحرم فی غیره من المواضع، وکذلک «الشهر الحرام». (۳) والعلاقة بین (ما یحُرّمه الله تعالی) وبین (من یُحَرَّم علیه) و (ما یُحَرَّم فیه) علاقة عکسیة.

وتوضیح ذلک:

إنّ ما یحرّمه الله تعالی من قول وفعل فلا بد من أن یکون ذلک لسبب فیه من فساد أو دناءة کالشرک والفحشاء، وقول الزور والباطل والعدوان، أو أن الله تعالی یکرهه لعباده، ولو لظرف خاص من مکان أو زمان.

وأما من یحرم الحرام علیه، ویضع الله تعالی علیه الحرمه والنهی فإن ذلک إشعار بقیمته ومنزلته عند الله، ومهما کثرت علیه المحرمات عند الله کان ذلک دلیلًا علی منزلته وقیمته.

فلیس علی الحیوان تکلیف من حرام وحلال، ولیس علی المجنون والطفل تکلیف، فالتکلیف بالحرمة إشعار بقیمة المکلف عند الله، کما أنّ کثرة الحرمات فی مکان أو زمان إشعار بقیمة ذلک المکان والزمان عند الله.

فإذا کان یحرم فی المسجد ما لا یحرم فی غیره، کالإجناب ودخول الجنب مثلًا،

۱- القصص: ۵۷

۲- البقرة: ۲۱۷

۳- مفردات الراغب حرف الحاء: ۱۱۵

ص: ۵۲

وتتأكد فيه حرمة اللهو واللغو الباطلين فإنّ ذلك إشعار بأن قيمة المسجد أعظم عند الله من قيمة غيره من الأماكن.

وإذا كان يحرم فى الأشهر الحرم ما لا يحرم فى غيرها، أو تتأكد فيها الحرمة، دون غيرها من الأشهر ... فذلك لأهمية هذه الأشهر ومنزلتها عند الله تعالى.

وبنفس الميزان نقول: إنّ اعتبار الكعبة الشريفة والمسجد الحرام، ومنطقة الحرم منطقة حظر ومنع، يكثر فيها الحظر والمنع من عند الله على الناس، ويحظر الله تعالى فيها على الناس ما لا يحظر فى غيره ... لأهمية هذه البقعة المباركة والمنطقة من‌الأرض.

ولذلك وصف الله تعالى الكعبة بالحرام، فقال تعالى: (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ) ووصف الله المنطقة بالحرم فقال تعالى: (أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً) ووصف الله تعالى المسجد بالحرام فقال تعالى: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ)(۱) .

ومن هذا التفصيل نريد أن نخلص إلى النتيجة التالية: كل ما يحرمه الله تعالى على عباده فهو سبحانه وتعالى راغب عنه كاره له، وإذا حرّم الله تعالى على عباده المحرمات فهو إشعار بحبه لهم، ورغبته فيهم، ومهما أكثر الله تعالى المحرمات على عباده كان ذلك إشعاراً لحبه لهم، ورغبته فيهم، وتنزيهه لهم عنها، وكذلك المكان والزمان.

فمهما أكثر الله تعالى من المنع والحظر والحرمة على مكان أو زمان ك- (الحرم) و (المسجد الحرام) و (الأشهر الحرم) و (شهر رمضان) كان ذلك إشعاراً بقيمة متميزة لذلك المكان عند الله تعالى.

والآن، بعد هذا التوضيح ل- (الحرام) نتحدث عن المحرمات، التى حرمها الله تعالى على الناس فى (البيت الحرام) وحُرُمات هذا البيت.

۱- البقرة: ۱۴۴

ص: ۵۳

حُرُمات البيت الحرام

۱- البدء بالقتال: حرم الله تعالى على المسلمين أن يبدأوا الكفار بالقتال عند المسجد الحرام، إلّا أن يبدأ الكفار قتال المسلمين عنده، فيجوز عندئذ قتالهم وصدّهم عن العدوان، يقول تعالى:

(وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ* فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (۱).

فينهى الله تعالى المسلمين من قتال الكفار عند المسجد الحرام، إلا أن يكون الكفّار هم البادِئون بالقتال.

ثم يقول تعالى عن القتال فى الحرم عند المسجد الحرام، وفى الأشهر الحرم (الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (۲).

فأجاز الله تعالى للمسلمين أن يقتصّوا من المشركين إذا قاتلوهم فى الأشهر الحرم، أو عند المسجد الحرام، وأجاز للمسلمين أن يقاتلوهم كما يقاتلهم المشركون فيه ويعاملوهم بالمثل.

والحرمات التى تشير إليها الآية الكريمة بقوله تعالى: (وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ) هى حرمة «الشهر الحرام» وحرمة «المسجد الحرام» وحرمة «الحرم».

فإذا تجاوز المشركون على هذه الحرمات، وقاتلوا المسلمين فيها جاز للمسلمين معاملتهم بالمثل.

عن ابن أبى عمير، عن معاوية بن عمار، قال: قال رسول الله (ص) يوم فتح

۱- البقرة: ۱۹۱، ۱۹۲

۲- البقرة: ۱۹۴

ص: ۵۴

مکـة: «إنّ الله حَرَّم مکة یوم خلق السـماوات والأرض، وهی حرام إلی أن تقوم الساعة، لم تحِلَّ لأحد قبلی، ولا یَحلَّ لأحد بعدی، ولم تحل لی إلّا ساعة من نهار» (۱).

وعن أبی عبـد الله الصادق (ع) فی حـدیث فتح مکة إنّ النبی (ص) قال: «ألا إنّ مکة محرمة بتحریم الله، لم تحل لأحد کان قبلی، ولم تحل لی إلا ساعة من نهار إلی أن تقوم الساعة، لا یختلی خلاها، ولا یقطع شجرها، ولا ینفر صیدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد» (۲).

۲- حرمة تلویث الکعبة بالشرک، وحرمة الإبقاء علی مظاهر الشرک وآثاره حول الکعبة، ووجوب تطهیرها منه.

والشـرک حرام علی کـل حال وفی أی مکان، ویجب تطهیر الأرض منه فی کل مکان، ولکن هـذه الحرمـة، وهـذا الوجوب فی الحرم أعظم وأبلغ وآکد.

فإنّ الشرک بالله العظیم رجس یلوّث کل شیء یصیبه، ویفقده دوره ویسلبه خصائصه ویعطّله.

والإنسان خلیفة الله، ولیس فی الکون کله صـفة أشـرف من هذه الصفة، ولیس لشیء دور أعظم من هذا الدور (خلافة الله)، ومع ذلک فإذا أشـرک الإنسان فَقَدَ کُلَّ خصائصه وکرامته، وسـقط مرة واحدة، کما لو أنه خَرَّ من السـماء دفعة واحدة (وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَکَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّیْرُ أَوْ تَهْوِی بِهِ الرِّیحُ فِی مَکانٍ سَحِیقٍ). (۳) ویُحوِّل الشرک الإنسان من محور خلافة الله إلی محور الصدود والإعراض عن الله، وکذلک الکعبة المشرفة إذا أصابتها لوثة الشرک أفقدتها خصائصها وبرکاتها،

۱- وسائل الشیعة ۶۸: ۹

۲- المصدر نفسه ۶۹: ۹

۳- الحج، ۳۱

ص: ۵۵

ودورها الكبير والمبارك فی حياة الناس.

ولكی يتم تفعيل دور الكعبة فی حياة الناس، وتعدّ الكعبة الشريفة، لتكون منطلقاً لعروج الإنسان إلی الله تعالی، لابد من تطهير الكعبة من الشرك، يقول تعالی: (وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِی شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِیَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ) (۱).

فلا يعرج الناس إلی الله من الطواف حول البيت والقيام والركوع والسجود بين يدی الله فی رحاب البيت الحرام، إن لم يطهر الناس الكعبة من رجس الشرك.

وقد عهد الله تعالی بذلك إلی إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام).

يقول تعالی: (وَ عَهِدْنا إِلی إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِیَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ)(۲) (۳) .

۳- حرمة إدخال المشركين إلی المسجد الحرام، ووجوب إقصائهم عنه.

يقول تعالی:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ) (۴).

۴- تحريم قطع الحشيش والشجر من الحرم للمُحل والمحرم.

هكذا عنون صاحب الوسائل هذا العنوان.

وروی عن حريز عن أبی عبد الله الصادق (ع) بسند معتبر قال: «كل شیء ينبت فی الحرم فهو حرام علی الناس أجمعين» (۵).

۱- البقرة: ۱۲۵

۲- تفسير التطهير فی هذه الآية المباركة بتنظيف البيت من القمامة والنجاسات المادية لا يناسب الاهتمام البليغ الذی يعطيه الله تعالی لهذا الأمر، فيعهد الی إبراهيم واسماعيل (عليهما السلام)، والله اعلم.

۳- البقرة: ۱۲۵

۴- التوبة: ۲۷

۵- وسائل الشيعة ۱۷۲: ۹

ص: ۵۶

۵- یحرم الصید فی الحرم وتنفیره مطلقاً للمحرم والمحل.

وروی الکلینی عن حریز عن أبی عبد الله الصادق (ع) بسند صحیح، قال: «قال رسول الله: ألا إنّ الله عز وجل قد حَرَّم مکهٔ یوم خلق السماوات والأرض، وهی حرام بحرام الله إلی یوم القیامهٔ، لا ینفر صیدها، ولا یعضد شجرها، ولا یختلی خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد»(۱) .

۶- یحرم فی الحرم کل ذنب، وتعظم حرمته عند الله حتی لو کان مثل شتم الخادم وضربه، ولیس شأن الحرم شأن غیره من الأماکن، فإنّ کل ذنب حرام فی أیّ مکان، وفی أیّ زمان، ولکن هذه الحرمهٔ فی الحرم أعظم وأبلغ وآکد.

وقد کان بعض الفقهاء والصالحین یتحرجون من الإقامهٔ فی جوار الحرم خشیهٔ أن یصدر منهم ذنب، فیعاقبهم الله تعالی علیه بالعذاب الألیم.

یقول تعالی: (إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِی جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاکِفُ فِیهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ یُرِدْ فِیهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ)(۲) .

یذکر المفسرون فی تفسیر قوله تعالی: (ومن یرد فیه بإلحاد ...): أن الذی یرید فی البیت إلحاداً بظلم فالله تعالی یذیقه العذاب الألیم.

والإلحاد هو العدول عن القصد والاعتدال.

وروی الطبرسی عن ابن عباس والضحاک ومجاهد وابن زید أنّ الإلحاد هو استحلال الحرام وارکوب الإثم(۳) .

وقد صحّت النصوص المعتبرهٔ أنّ کلّ إثم إلحاد.

فقد جاء بسند معتبر عن الحلبی قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله

۱- المصدر نفسه ۱۷۵: ۹

۲- الحج: ۲۵

۳- مجمع البیان للطبرسی ۸۱: ۴

ص: ۵۷

عزّوجل: (وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) فقال: «كل الظلم فيه إلحاد حتى لو ضربت خادمك ظلماً خشيت أن يكون إلحاداً»، فلذلك كان الفقهاء يكرهون سكنى مكة (۱).

وروى أبو الصباح الكنانى قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله عزّ وجلّ (وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) فقال: «كل ظلم يظلمه الرجل على نفسه بمكة من سرقة، أو ظلم أحد، أو شيء من الظلم، فإنى أراه إلحاداً، ولذلك كان يتّقى أن يسكن الحرم»(۲) .

وعن رسول الله (ص): «جعل الله الحسنات فى الحرم مضاعفة والسيئات مضاعفة» (۳).

۷- يحرم ملاحقة المجرم الذى أقدم من خارج الحرم على جريمة تستوجب قصاصاً أو حدّاً أو تعزيراً ففر الى الحرم، احتراماً للحرم، وأمنه، ولكن يضيّق عليه، ويمنع من الشراء من الأسواق حتى يضطر للخروج من الحرم.

وقد استدل الفقهاء على ذلك بقوله تعالى:

(وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) (۴)(۵) .

روى ثقة الإسلام الكلينى بسند معتبر عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبدالله (الصادق) (ع) عن رجل قتل رجلًا فى الحل، ثم دخل الحرم، فقال: لايقتل، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يباع، حتى يخرج من الحرم، فيقام عليه الحدّ قلت: فما تقول فى رجل قتل فى الحرم أو سرق؟ قال: يقام عليه الحدّ فى الحرم صاغراً؛ لأنه

۱- وسائل الشيعة ۳۴۱: ۹

۲- المصدر نفسه ۳۴۱: ۹

۳- المصدر نفسه ۳۳۶: ۹

۴- آل عمران: ۹۷

۵- راجع «آيات الأحكام للجزائرى» ۷: ۲

ص: ۵۸

لم یر للحرم حرمة، وقد قال الله عز وجل: (فَمَنِ اعْتَدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَیْکُمْ)(۱) .

وروی أیضاً بسند معتبر عن الحلبی، عن أبی عبد الله (ع) قال: سألته عن قول الله عزّوجل: (وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً). قال: «إذا أحدث العبد فی غیر الحرم جنایة، ثم فَرَّ إلی الحرم لم یسع لأحد أن یأخذه فی الحرم، ولکن یمنع من السوق، ولا یبایع ولا یطعم، ولا یسقی، ولا یتکلم، فإنه إذا فعل ذلک یوشک أن یخرج فیؤخذ، وإذا جنی فی الحرم جنایة أقیم علیه الحد فی الحرم، لأنه لم یرع للحرم حرمة» (۲).

عن عبد الله بن سنان أنه سأل أبا عبد الله (الصادق) (ع) عن قول الله عزوجل: (وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً) قال: «من دخل الحرم مستجیراً به کان آمناً من سخط الله، ومن دخله من الوحش والطیر کان آمناً من أن یهاج أو یؤذی، حتی یخرج من الحرم» (۳).

والنصوص بهذا المعنی کثیرة.

فإذا کان لا یجوز ملاحقة المجرم فی الحرم، ولا یجوز تنفیر الصید وتهییجه وأذاه فلا یجوز بشکل آکد وأبلغ ترویع المسلمین وإرعابهم فی رحاب حرم الله، وتعظم حرمته عند الله.

روی محمد بن مسلم، عن أبی جعفر الباقر (ع) قال: سألته عن قوله تعالی (وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً). قال: «یأمن فیه کل خائف مالم یکن علیه حدّ من حدودالله» (۴).

۱- وسائل الشیعة ۳۳۷: ۹

۲- المصدر نفسه ۳۳۷: ۹، ح ۲

۳- المصدر نفسه ۲۰۲: ۹

۴- المصدر نفسه ۳۳۹: ۹

ص: ۵۹

والذی یقرأ اهتمام القرآن بأمْن هذا البیت لا یشک فی أنّ للأمن دوراً أساسیاً فی رسالة البیت.

وقد کان (أمن البیت) من دعاء إبراهیم (ع).

(وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً).(۱) (وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً). (۲) وبین الدعاءین فرق.

فی الـدعاء الأول یـدعو إبراهیم (ع) أن یجعل الله الکعبـة بلـداً أمناً، ویبدو أنّ هذا الدعاء کان قبل أن یحل الناس بجوار الکعبة فیکون بلداً، فدعا الله تعالی أن یجعل البیت بلداً آمناً.

وفی الدعاء الثانی یدعو الله تعالی أن یجعل هذا البلد آمناً، ویبدو أن الدعاء کان بعد أن حلّ الناس بجوار البیت.

ومن اهتمام القرآن بأمن البیت: القَسَمُ بالبلد الأمین، یقول تعالی: (وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ* وَ طُورِ سِینِینَ* وَ هذَا الْبَلَدِ الأَمِینِ)(۳) .

ویمنّ الله تعالی علی المؤمنین: أن جعل لهم الحرم آمناً، تجبی إلیه الثمرات من کل حدب، ومکّنهم منه ...

(أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ) (۴).

فقد مَنَّ الله تعالی علیهم إذن، فی هذه الآیة مرتین.

مَکَّنهم من حرمه، بعد أن کان بید المشرکین وتحت نفوذهم وهذا هو المنّ الأول.

۱- ۳ البقرة: ۱۲۶

۲- ۴ إبراهیم: ۳۵

۳- التین: ۱، ۲، ۳

۴- القصص: ۵۷

ص: ۶۰

وجعله آمناً فی وسط دنیا صاخبة وهائجة بالحروب، ویتخطف الناس من حوله وهو المنّ الثانی.

یقول تعالی: (أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ یُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) (۱).

۸- یحرم التمکین لولایة الظالمین علی البیت الحرام، الذین یصدون الناس عن سبیل الله وعن المسجد الحرام، ویعطلون دور هذا البیت، ویجب تمکین المتقین من ولایة البیت الذین یُعدّون البیت ویطهّرونه للطائفین والقائمین والرکّع السجود.

یقول تعالی: (وَ ما لَهُمْ أَلَّا یُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ یَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما کانُوا أَوْلِیاءَهُ إِنْ أَوْلِیاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) (۲).

وقد أوعد الله تعالی الذین کفروا، والذین یصدون الناس عن سبیله والمسجد الحرام بالعذاب الألیم فقال تعالی:

(إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِی جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاکِفُ فِیهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ یُرِدْ فِیهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ)(۳) .

فأنذر الذین یصدّون عن المسجد الحرام، الذی جعله الله تعالی للناس عامة بالعذاب الألیم.

ویندّد القرآن بأولئک الظالمین الذین یصدون الناس عن المسجد الحرام:

(هُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ) (۴) فَیُحرّم علی الناس تمکین الظالمین من ولایة البیت الحرام، ویجب علیهم تحریر هذا البیت من نفوذ الطاغوت وسلطانه، کما یجب علیهم تمکین المتقین منه؛ وقد وصف الله تعالی هذا البیت

۱- العنکبوت: ۶۳

۲- الانفال: ۳۴

۳- الحج: ۲۵

۴- الفتح: ۲۵

ص: ۶۱

ب- (العتيق) فقال تعالى: (ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۱).

وقال تعالى: (وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۲).

والعتيق من العتق، وهو التحرير. فهذا البيت حَرّره الله تعالى من قبضة الظالمين مثل أبرهة، وعتاة قريش، ولم يجعل الله لأحد عليه سلطاناً فى دينه، ولم يمُلِّكه أحداً من الناس حتى يكون بيتاً للناس جميعاً.

يقول الجزائرى فى آيات الأحكام فى معنى العتيق: إنه لا يملكه أحد من الناس.

ثم ذكر فى معناه أيضاً: أنه عُتِق من الجبابرة، وحفظه منهم كأبرهة وغيره(۳) .

عن أبى جعفر الباقر (ع) فى جواب من سأل: لِمَ سمَّى البيت عتيقاً؟ قال: هو بيتٌ حرٌ عتيق من الناس لم يملكه أحد (۴).

۱- الحج: ۲۹

۲- الحج: ۲۹

۳- آيات الأحكام للجزائرى ۲۶: ۲

۴- وسائل الشيعه ۳۴۷: ۳

ص:۶۲

ص: ۶۳

التلبية

اشارة

ص:۶۴

ص: ۶۵

الحج «دعوة» و «تلبية»:

دعوة من الله- تعالى- لعباده أن يَحِلُّوا ضيوفاً عليه، عند بيته المحرّم، ويطلبوا قِراه، ويستفتحوا أبواب رحمته الواسعة. وإبراهيم (ع) خليل الرحمن، و أبوالأنبياء و رائد التوحيد، هو رسول الله- تعالى- إلى عباده، والمبلّغ عن الله فى هذه الدعوة.

يقول تعالى: (وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)(۱) ، هذه هى الدعوة.

وأما التلبية فهى من ناحية الذين دعاهم ربّهم إلى بيته (وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ) يُشهرون فيها استجابتهم لدعوة ربّهم، ويعلنون الاستجابة كلّ سنة فى جموع غفيرة حاشدة فى الميقات من كلّ فجٍّ عميق.

ويرفعون إلى الله تعالى هذه التلبية كلّ سنة فى رحاب الميقات بالتلبيات الأربعة التى علّمناها رسول الله (ص): «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ».

۱- الحج: ۲۷

ص: ۶۶

روى عبيد الله الحلبى عن أبى عبد الله (الصادق) (ع) قال: سألته لِمَ جُعِلَتْ التلبية؟ فقال: «إنّ الله- عزّ وجلّ- أوحى إلى إبراهيم (ع): (وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا) فنادى فأجيب من كلّ فجٍّ عميق يلبّون» (۱).

وسنتحدّث- إن شاء الله- عن كلّ من «الدعوة» و «التلبية».

الدعوة:

الحجّ ضيافة الله- تعالى- لعباده، فهو عزّ شأنه استضافهم فى بيته المحرّم فى موسم الحج، كما أنّ الصيام ضيافة أخرى فى شهر رمضان المبارك، وفى كلا الضيافتين يدعو الله- تعالى- عباده إلى أفضل مواهبه ونعمه.

والمواهب والنعم التى يدعو الله- تعالى- عباده إليها فى الحج تختلف عمّا نألفه ونعرفه فى حياتنا الدنيا من المواهب الإلهية والنعم، حتى عن تلك التى يهبها لعباده الصائمين فى شهر رمضان.

فإنّ دعوة الحج تتضمن الدعوة إلى «التوحيد» و «التسليم» و «الإخلاص» و «الكدح فى سبيل الله» و «التجرّد عن الأنا والهوى» و «الانقطاع إلى الله» و «انتزاع الغل والحقد من النفوس»، كما تتضمن الدعوة: الالتزام بقيم العبودية الخالصة لله وحده.

هذهِ هى الدعوة، والتلبية استجابة لهذه الدعوة الإلهية من العباد لدعوة الله- تعالى- لهم على لسان نبيّه إبراهيم (ع).

الدعوة والوعد بالاستجابة:

ومن جمال هذه الدعوة الإلهية- التى أشْهَرها إبراهيم خليل الرحمن بأمر من الله تعالى فى عباده: (وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ

۱- بحار الأنوار ۱۸۴: ۹۹؛ وعلل الشرايع: ۴۱۶

ص: ۶۷

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)- أنّ الله تعالى وعد عبده وخليله إبراهيم عندما أمره بإشهار هذه الدعوة ... إستجابة عباده لهذه الدعوة، (يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ).

فكأنّ الدعوة من الله لعباده، وإشهار الدعوة بأمر من الله، والاستجابة للدعوة بضمان ووعد من الله تعالى لعبده وخليله إبراهيم (ع).

ومنذ أنّ وعد الله- تعالى- إبراهيم عبده وخليله بالاستجابة لهذه الدعوة يُقْدم فى كلّ عام حشد غفير من الحجاج من الميقات إلى البيت الحرام ليلبّوا هذه الدعوة.

الدعوة إلى التلبية الطوعية:

وكل ما فى هذا الكون يلبّى أمر الله طائعاً، منقاداً فى كلّ شىء لله تعالى، إلّا أنّ الله- تعالى- أكرم الإنسان بالدعوة إلى عبادته وطاعته طوع إرادتهم، وأكرمهم بهذه التلبية الطوعية.

وتختلف التلبية «الطوعية» عن التلبية «القهرية» أنّ الحركة منّا إلى الله حركة واعية، وبالحركة الواعية يبلغ الإنسانمن الكمال والعروج إلى الله ما لا يصله بغيرها.

وهى ميزة وتكريم خصّ الله بها من اصطفى من خلقه؛ والنقطة المقابلة لهذا التكريم هى «السقوط» والهلاك إذا رفض الإنسان الاستجابة لله طوعاً، وعن إختيار؛ إنّ فى كل استجابة طوعية لدعوة الله تعالى عروج إلى الله، وفى كل إعراض وصدود عن الله تعالى سقوط وهلاك.

وخصّ الله الإنسان وأكرمه بهذا الخيار «الصعب» (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا)(۱) .

فى ضيافة الرحمن ؛ ؛ ص۶۸

۱- الأحزاب: ۷۲

ص: ۶۸

الدعوة من الله والتلبية من العباد:

اشارة

وتكريم آخر للإنسان فی أصل الـدعوة؛ فإنّ الـدعوة عادة من صاحب الحاجـة، والتلبية ممن يملك هذه الحاجة، والله تعالى هو الغنى، وعباده الفقراء إليه: (يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)(۱) .

وشاء الله أن يُكْرم عباده بأن دعاهم إلى عبادته، وهو الغنى عن عبادة عباده له، وشاء الله أن تكون التلبية من عباده الفقراء إليه.

وحـقّ عليهم أن يطلبوا من الله- تعـالى- أن يـأذن لهم بالعبوديـة والعبـادة، ولكن الله- تعـالى- بـدأهم بهـذه الـدعوة، وأكرمهم بـالتلبية والاستجابة، وهو غاية ما يمكن أن يبلغه الكرم، وإذا كانت هذه الدعوة من الله غاية الجود والكرم من الله، فإنّ الإعراض والصدود عنها غايـة اللؤم من الإنسان، وإذا كانت الاسـتجابة لهـذه الـدعوة من سـعادة الإنسان، فإنّ من بؤس الإنسان وشـقائه الإعراض والصدود عن الاستجابة لهذه الدعوة.

ولهذا السبب قلت: إنّ الاستجابة لدعوة الله- تعالى- عروج إلى الله، والصدود والإعراض عنها سقوط وهلاك للإنسان.

وكيف انعكس الأمر- فی هـذه الـدعوة الإلهيـة- وانقلب العبـد فی فقره وحاجته من موقع الطالب والـداعی والسائل إلى موقع «التلبية»؛ وكان الله تعالى هو صاحب الدعوة والطلب، وهو غنى بذاته عن خلقه وعباده.

إنّ لهـذا الانقلاب فی المواقع سرّاً، وهو خصـلة الكرم والجود الذاتيـة والأصـيلة فی الذات الإلهية، فهو سـبحانه وتعالى يُحبُّ أن يجود على عباده، ويُحبُّ أن يكرمهم وأن يحسن إليهم، كما نحتاج نحن إلى جوده وكرمه وإحسانه.

وحبّ الجود والكرم والإحسان والعطاء صفة من صفات ذاته عزّ شأنه، وليس

۱- فاطر: ۱۵

ص: ۶۹

على الإنسان إلّا أن يضع نفسه فی مواضع جوده وكرمه وإحسانه وعطائه تبارك وتعالی، وهـذه حقيقـة من حقائق العلاقة بين الله تعالی وعباده، وهذه الحقيقة تفتح علی الإنسان أبواباً من المعرفة.

فكما نحتاج نحن إلی رحمـة الله تعالی وفضـله يحبّ الله تعالی أن يجود برحمته وفضـله علی عباده؛ وهـذه العلاقـة قائمـة بين كلّ غنی وفقير؛ ولا تقلّ حاجة الغنی إلی العطاء والكرم عن حاجة الفقير إلی الغنی، فی حالة سلامة الفطرة.

والله تعـالی غنی عن عبـاده، وغنـاه فی ذاته، فلاـ يحتـاج عبـادَه وخلقه فی شـیء، ولكنّه يحبّ أن يجود عليهم، ويكرمهم، ويعطيهم من فضله ورحمته، كما نحتاج نحن إلی رحمته وفضله وجوده.

وهذا هو سـرّ دعوة الله لعباده بالإقبال عليه، والدخول فی رحاب ضيافته، والوقوف علی أبواب رحمته، فی شهر ذی الحجة، فی عرفات، عند بيته المحرّم، وفی شهر الصيام، فيدعو الله تعالی عباده لدعائه؛ ليستجيب لهم برحمته وفضله.

وهـذه الألطاف من سـنن الكرم الإلهی؛ يقول تعالی: (ادْعُونِی أَسْـتَجِبْ لَكُمْ) فتحل دعوة العبـد، فی هـذه الآيـة الكريمـة بين دعوة الله تعالی واستجابته.

فالله عزّ شأنه يـدعو عباده لـدعائه ليسـتجيب لهم (ادْعُونِی أَسْـتَجِبْ لَكُمْ)، فيقع دعاء العبـد بين «دعوته» تعالی له بالدعاء، و «اسـتجابته» سبحانه لدعائه.

والله عزّ شأنه يحبّ دعاء عباده، ويشتاق إلی مناجاتهم، ويحب الاستجابة لدعائهم.

عن رسول الله (ص): «إنّ الله أحبّ شـيئاً لنفسه، وأبغضه لخلقه، أبغض لخلقه المسألـة، وأحبّ لنفسه أن يُسـأل، وليس شـیء أحبّ إلی الله- عزّ وجلّ- من أن يُسأل فلا يستحی أحدكم من أن يسأل الله من فضله، ولو شسع نعل» (۱).

۱- فروع الكافی ۱۹۶: ۱؛ من لا يحضره الفقيه ۲۳: ۱

ص: ۷۰

وعن أبى عبد الله الصادق (ع): «أكثروا من أن تدعو الله، فإنّ الله يحبّ من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة» (۱).

وفى الدعاء الذى علّمه أمير المؤمنين (ع) لكميل بن زياد النخعى (رحمة الله):

«وأمرتهم بدعائك، وضمنت لهم الإجابة» ودعاء العبد يقع بين تلك الدعوة وهذه الإجابة.

التلبية جوهر العبودية:

التلبية هى الاستجابة.

والاستجابة لله فى مساحتين: مساحة الدعوة ومساحة الأحكام والأمر والنهى.

والله تعالى يدعو عباده، ويأمرهم. وبينهما فرق. فإنّ الدعوة هى أساس الأحكام والأوامر الإلهية.

يدعو عباده إلى ما يحييهم، ويطلب من عباده أن يستجيبوا لدعوته: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ)(۲) ، ويأمر عباده ويحكمهم.

والله تعالى يحكم عباده فى التكوين والتشريع؛ يحكم عباده فى التكوين بالقضاء والقدر، بألوان الابتلاء، والفتنة، والجوع، والمرض، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ وليس للناس حيلة فى ذلك كلّه، والله- تعالى- يطلب من عباده أن يستجيبوا لحكمه وأمره فى قضائه وقدره، ويطمئنوا إليه، ويفوّضوا أمرهم إليه- تعالى- فى كلّ ذلك، ويسلّموا أمرهم له تسليماً، (وَ أُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ)، هذا فى مساحة التكوين.

والله تعالى يحكم عباده فى مساحة التشريع بالأمر والنهى. ويطلب منهم أن

۱- وسائل الشيعة ۱۰۸۶: ۴ ح ۸۶۱۶

۲- الأنفال: ۲۴

ص: ۷۱

يستجيبوا له فى أمره وحكمه ويسلّموا تسليماً (ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (۱).

التلبية، لدعوة الله وحكمه:

والاستجابة لدعوة الله تعالى هى الإيمان والإسلام؛ والإعراض عن دعوة الله تعالى، هو الكفر، والشرك، والريب، والشك، والنفاق.

والاستجابة لقضاء الله تعالى وقدره وأحكامه على عباده فى الابتلاء، والفتنة، والفقر، والجوع، والموت، والمرض، هى التفويض، والرضا، والتسليم، والاطمئنان، والثقة بحكم الله تعالى.

وقد ورد فى الدعاء: «واجعلنى بقسمك راضياً قانعاً، وفى جميع الأحوال متواضعاً»، «واجعل نفسى مطمئنة بقدرك، راضية بقضائك».

وخلاف ذلك «الاعتراض» و «التذمر» و «الشكوى» من أمر الله وحكمه.

ولا ينفع الإنسان إعتراض وتذمر عن أمر الله، وحكمه، وقضائه، وقدره فى مساحة التكوين، فإنّ الله- تعالى- يقهر عباده بقضائه وقدره، ولكنه يطلب من عباده أن يستجيبوا لقضائه وقدره، ويسلّموا أمرهم إليه تسليماً، ويفوّضوا إليه أُمورهم تفويضاً، ويطمئنّوا إلى قضائه وقدره، دون اعتراض وتذمر.

والاستجابة لأمر الله وحكمه فى التشريع هى الطاعة والانقياد عن طوع وإرادة.

وخلاف ذلك الذنب، والمعصية، والفسوق.

وفى مساحة القضاء والقدر هى التسليم و التفويض؛ وخلاف ذلك هو الجزع من أحكام الله وعدم الرضا به.

۱- النساء: ۶۵

ص: ۷۲

العقل مبدأ التلبية والاستجابة:

والاستجابة لله بكلّ أقسامها هى جوهر العبودية لله تعالى.

و قيمة الإنسان فى الاستجابة لله تعالى.

و وزن الإنسان ومقامه عند الله بمقدار عبوديته وتسليمه له تعالى.

و الاستجابة لله هى العبودية والتسليم، و «العقل» هو مبدأ هذه الاستجابة.

روى سماعة عن أبى عبد الله الصادق (ع): «خلق العقل، وهو أوّل خلق خلقه من الروحانيين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر» (۱).

وهذه الرواية تتحدّث بلغة الرمز، وهى لغة مألوفة فى الروايات الإسلامية، والإقبال هنا الاستجابة لأمر الله تعالى، وهو ما ذكرنا آنفاً أنّه جوهر العبودية لله تعالى. والعقل ينهض بهذه الرسالة فى حياة الإنسان ويتبعه القلب ويقترن به.

مراتب الاستجابة والتلبية:

وللاستجابة أربع مراتب بعضها فوق بعض.

المرتبة الأُولى من الاستجابة: هى الاستجابة التكوينية لله تعالى، فكلّ شىء فى الكون مسخّر لأمر الله، يجرى بأمره.

(وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ) (۲).

(وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (۳).

والإنسان جزء من هذا الكون، ومقهور لإرادة الله ومسخّر لأمره تعالى فى شطر

۱- بحار الأنوار ۱۰۹: ۱

۲- الأعراف: ۵۴

۳- النحل: ۱۲

ص: ۷۳

من شخصيته بالضرورة؛ وهذه الاستجابة التكوينية تعمّ المؤمن والمنافق والكافر، من دون فرق.

المرتبة الثانية من الاستجابة: الاستجابة لأمر الله تعالى، بمعنى الطاعة وعدم الاعتراض، وهى أدنى مراتب الاستجابة له تعالى، فى التشريع والتكوين.

فإنّ للاستجابة مرتبتين:

۱- الاستجابة بمعنى التسليم وعدم الاعتراض لأمر الله تعالى وحكمه فى ساحة التشريع والتكوين.

۲- الاستجابة بمعنى الرضا بأمر الله و حكمه فى التشريع والتكوين.

ونقصد نحن بالاستجابة هنا المعنى الأول؛ وسيأتى الحديث عن الاستجابة بالمعنى الثانى فى (المرتبة الثالثة) من هذا التقسيم، وهى فوق الاستجابة بمعنى التسليم بدرجة.

والاستجابة بمعنى التسليم، روح الإسلام وجوهره.

وقد روى عن أمير المؤمنين (ع) فى هذا الشأن: «لأنسبنَّ الإسلام نسبة لم‌ينسبه أحد قبلى، ولا ينسبه أحد بعدى: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، واليقين هو الأداء، والأداء هو العمل»(۱) .

و التسليم بهذا المعنى لأمر الله فى ساحة التشريع هو الإسلام لله تعالى.

يقول تعالى: (وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ)(۲) .

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ ...)(۳) .

(وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ)(۴) .

۱- بحار الأنوار ۳۰۹: ۶۸

۲- النساء: ۱۲۵

۳- آل عمران: ۲۰

۴- غافر: ۶۶

ص: ۷۴

وهو طاعة الله عزّ وجلّ ورسوله (ص).

يقول تعالى: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ) (۱).

(وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(۲) .

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) (۳).

وكما يحبّ الله تعالى من عباده التسليم له فى أحكامه وحدوده وشريعته، يحبّ منهم التسليم فى قضائه وقدره.

وهو من خصائص الإيمان، ولا شك فى أنّ الإنسان يحبّ العافية فيما يرزقه الله تعالى.

ولكن المؤمن إذا أنزل به البلاء سلّم أمره إلى الله تعالى.

يروى أن صبياً لأبى جعفر الباقر (ع) كان قد مرض واشتدّ مرضه، فقلق الإمام الباقر (ع) و بان ذلك على وجهه، فمات الطفل فانبسط وجه الإمام الباقر (ع) واطمأن، فتعجّب من ذلك أصحابه.

فقال (ع): «إنّا لنحبّ أن نعافى فيمن نحبّ، فإذا جاء أمر الله سلّمنا فيما يحبّ»(۴) .

وعن أبى الحسن الرضا (ع) عن أبيه موسى عن جعفر (عليهما السلام) قال: «أمرنى أبى (يعنى أبا عبد الله (ع)) أن آتى المفضل بن عمرو فأعزّيه بإسماعيل، وقال: اقرء المفضل السلام، وقل له: أصبنا بإسماعيل فصبرنا، فاصبر كما صبرنا. إذا أردنا أمراً وأراد الله أمراً سلّمنا لأمر الله»(۵) .

۱- آل عمران: ۳۲

۲- آل عمران: ۱۳۲

۳- الأنفال: ۲۰

۴- بحار الأنوار ۳۰۱: ۴۶

۵- المصدر السابق ۱۰۳: ۸۲

ص: ۷۵

وروى عن الإمام الصادق (ع): «لم يكن رسول الله يقول الشيء قد مضى لو كان غيره»(۱) .

وهذه المرتبة من التسليم فى الاستجابة لأمر الله- تعالى- تجرى فى أحكامه تعالى فى التشريع والتكوين على نحو سواء.

المرتبة الثالثة من الاستجابة: الاستجابة والتسليم لأمر الله عن رضا، وهذه مرتبة فوق المرتبة السابقة وتجرى فى التشريع والتكوين كذلك على نحو سواء.

عن رسول الله (ص): «أعبد الله فى الرضا، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير» (۲).

وفى هذه الرواية تفكيك واضح بين مرتبتين من الاستجابة و المرتبة العليا هى الاستجابة والتسليم عن رضا، فإن لم يتمكّن العبد من هذه المرتبة فليصبر، ويسلّم أمره لله تعالى عن صبر على قضاء الله وقدره، ولا يعترض، ولا يتذمر، ولا يشكو من قضاء الله.

وليس معنى «الرضا» بأمر الله أن لا يحبّ الإنسان لنفسه ولن يحبّ شيئاً، ولكن معنى ذلك أنّ العبد إذا عرف أنّ الله يحبّ ما يكره رضى بما يحبّ الله، وجعل رضاه تبعاً لرضا الله عزّ وجلّ.

روى عن أبى عبد الله الصادق (ع):

«إنّا قوم نسأل الله ما نحبّ فيمن نحبّ، فيعطينا، فإذا أحبّ ما نكره فيمن نحبّ رضينا» (۳).

والمرتبة الرابعة للاستجابة: هى الاستجابة عن حبّ وشوق إلى الله تعالى،

۱- تنبيه الخواطر: ۴۱۷

۲- المحجة البيضاء ۱۰۴: ۵

۳- بحار الأنوار ۱۳۲: ۸۲

ص: ۷۶

ودعوته، وأمره، وقضائه.

والحبّ والشوق مرتبة فوق مرتبة الرضا.

وأحسن حالات العبادة والإقبال على الله والاستجابة لدعوته تعالى وأمره وذكره، هو ما يكون عن شوق وحبّ.

عن رسول الله (ص):

«أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالى أصبح من الدنيا على عُسر أم على يُسر»(۱) .

يروى هارون بن خارجة عن أبى عبد الله الصادق (ع) قال:

«إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله حبّاً له فتلك عبادة الأحرار، وهى أفضل العبادة»(۲) .

عن يونس بن ظبيان قال: قال الصادق جعفر بن محمد (ع):

«إنّ الناس يعبدون الله عزّ وجلّ على ثلاث أوجه: فطبقةٌ يعبدونه رغبةً فى ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء، وهو الطمع؛ وآخرون يعبدونه خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد، وهى الرهبة؛ ولكنى أعبده حبّاً له عزّ وجلّ، فتلك عبادة الكرام، وهو الأمن لقوله عزّ وجلّ: (هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) (۳)، ولقوله عزّ وجلّ: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)(۴) ؛ فمن أحبّ الله عزّ وجلّ أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين» (۵).

۱- أُصول الكافى ۸۳: ۲

۲- وسائل الشيعة ۴۵: ۱، مكتبة الإسلامية، طهران

۳- النمل: ۸۹

۴- آل عمران: ۳۱

۵- وسائل الشيعة ۴۶: ۱؛ عن علل الشرائع: ۱۶؛ والمجالس: ۲۱؛ والخصال ۸۸: ۱

ص: ۷۷

وعن أمير المؤمنين (ع):

«إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار» .(۱)

يقول الشيخ محمد مهدى النراقى فى كتابه القيّم «جامع السعادات» فى التعليق على الروايات الواردة فى «عبادة الأحرار»:

«لا ـ ريب فى أنّ العبادة على الوجه الأـخير لا ـ نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأوّلين، فإنّ من تنعّم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم يسخر ممّن يلتفت إلى وجه الحور العين» (۲).

«تكبيرة الإحرام» و «التلبية»:

وقد أودع الله تعالى فى «الحج» كنوزاً من الوعى، والإخلاص، والانفتاح، والإقبال على الله، والإعراض عمّا دون الله، والكدح، والتسليم، والتوحيد، والاخلاص، والتوكل، والذكر، والولاء، والبراءة، وغير ذلك من أبواب المعرفة والكدح إلى الله، ومفتاح هذه الكنوز جميعاً «التلبية»، ولا ينال الحاج ما أودع الله تعالى فى الحجّ من هذه الكنوز إلّا إذا أحسن التلبية.

ومن لا ـ يحسن التلبية لا ـ ينال من حجّه الكثير، وكلّ ما كان حظّ الحاج أكثر من الإقبال والانفتاح على الله فى التلبية، كان حظّه من مواهب الحجّ أكثر.

وشأن «التلبية» فى الحجّ شأن «تكبيرة الإحرام» فى الصلاة، فإنّ الصلاة كنز، ومفتاح هذا الكنز تكبيرة الإحرام؛ ومن أحسن «تكبيرة الإحرام» فى الصلاة فتح الله تعالى عليه كنوز الصلاة، ومن لم يحسن تكبيرة الاحرام، كانت صلاته هيكلًا من دون روح.

۱- نهج البلاغة بتحقيق صبحى صالح ۵۱۰: ۳ حكمة رقم ۲۳۷

۲- جامع السعادات ۱۱۷: ۳

ص: ۷۸

فإنّ كلًّا من الصلاة والحج، رحلة إلى الله تعالى، وكلّ رحلة إلى الله عروج وصعود. ولابدّ فى هذا العروج من أن ينفصل عن هذه الدنيا ويقلع عنها إقلاعاً كاملًا بصورة مؤقتة خلال هذه الرحلة، وما لم يقلع الإنسان فى صلاته وحجّه عن دنياه، وما لم يتحرّر من الأواصر والعلائق التى تشدّه إلى هذه الدنيا شدّاً، لايستطيع الإنسان أن يجد فى صلاته وحجّه ذوق العروج والسفر إلى الله.

وليس يدعو الإسلام الناس إلى أن ينفصلوا عن دنياهم التى لابدّ لهم منها، ولايريد منهم أن يعرضوا عن هذه الدنيا وما فيها، من لذّة، ونعيم، وعلائق، و وشائح تشدّهم بها، و إنّما يطلب منهم أن يتحرّروا فى حياتهم من أسر التعلّق بهذه الدنيا وحبّها والافتتان بها؛ وهذا رأى الإسلام فى التعامل مع الدنيا.

تكبيرة الإحرام مفتاح الصلاة:

فإذا أقبل العبد على الله- تعالى- فى صلاته فلابدّ من أن يفصل نفسه عن هذه الدنيا وما فيها من علائق ووشائج ولذّة وفتنة فصلًا كاملًا، لكى يستطيع أن ينعم بلذّة العروج والصعود إلى الله فى الصلاة.

ففى هذه الرحلة العجيبة التى يكرم الله- تعالى- بها عباده فى كلّ يوم خمس مرّات، يمرّ الإنسان بآفاق رحبة من الحمد، والعبادة، والاستعانة بالله، والتوحيد، والتعظيم، والدعاء، والتسبيح، والتأليه، والذكر، والشكر، والتضرّع، والإبتهال، والمناجاة، والتسليم له، وما لا طاقة لى على إحصائه من آفاق العبودية لله، وليس بإمكان الإنسان أن يقطع هذه الآفاق الرحبة المباركة من لقاء الله، ما لم ينفصل بشكل كامل عن هذه الدنيا وما فيها، من لذّة، ونعيم، وعلائق، ووشائج، وهمّ، وحرص، وقلق، وانشغال، فإنّها تصرفه وتشغله عن آفاق اللقاء فى هذه الرحلة.

وأشدّ ما فى الصلاة، هو هذا الانفصال والإقلاع عمّا حول الإنسان من العلائق

ص: ۷۹

والوشائج ومن الهمّ والتفكير فى الدنيا والانشغال بها، فإذا أمكنه أن يقلع فى صلاته عن ذلك كلّه، أمكنه أن يعرج فى صلاته إلى الله، وأن يتمتع فى هذه الرحلة بلذّة لقاء الله، وأن يعيش فيها آفاق اللقاء الرحبة المباركة، وأن يتمتع بمواهبها وكنوزها.

ومفتاح ذلك كلّه «تكبيرة الإحرام»، فإنّها إذا أدّاها مقيم الصلاة أداءً صحيحاً تفصله مرّة واحدة،- وبحركة سريعة خفيفة عمّا حوله- فصلًا سريعاً قويّاً.

فإنّ تكبيرة الإحرام تتضمّن بُعدين، أحدهما يتضمّن الآخر، وهما معاً يقوّمان معنى هذه التكبيرة العظيمة التى يفتح بها المصلّى صلاته.

البُعد الأول: تكبير الله تعالى وتعظيمه؛ والله كبير عظيم، ذو الجلال، والكبرياء، والعظمة، إلّا أنّ هذا التكبير يتضمّن معناً رقيقاً يستحقّ الكثير من التأمل والتفكير، وهو معنى «أفعل التفضيل» فى هذه الكلمة، ومقارنة كبرياء الله تعالى إلى وضاعة الدنيا، وجلال الله إلى حقارة ما يشغله ويصرفه عن الله؛ فكلّ ما فى هذه الدنيا ممّا دون الله حقير وضيع بالقياس إلى الله، ومتاع زائل، ومن سقط المتاع ومتاع الغرور، بالقياس إلى ماعندالله من النعيم الذى لايزول.

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ)(۱) .

ومتاع مثل هذا المتاع زائل ووضيع لا يستحق أن يصرف الإنسان ويشغله عن الله ذى الجلال والاكرام، ولو للحظة واحدة، ولا يحسن به أن يرافقه فى هذه الرحلة، فيشغله عن الله، ويصرفه عنه تعالى، ولو لبعض الوقت، وببعض الانشغال

۱- الحديد: ۲۰

ص: ۸۰

والانصراف، فإنّ الله أكبر من كلّ ذلك وأجلّ وأعظم، وهو الباقى وما فى هذه الدنيا زائل، وهو الحقّ وما فى هذه الدنيا باطل، وهو العظيم وما فى هذه الدنيا حقير. وهذا هو البُعد الثانى الذى تتضمّنه تكبيرة الإحرام؛ وهذا البُعد نستنبطه من معنى «أفعل التفضيل» فى التكبيرة.

ويستحب أن يفتتح الذى يقيم الصلاة صلاته بسبع تكبيرات، ليؤكّد ويعمّق فى نفسه حالة الإقلاع والفصل عن الدنيا، ويتجاوز بها الحجب التى تحجبه عن الله تعالى، ليمكنه بعد ذلك أن ينطلق إلى الله فى هذه الرحلة العجيبة.

وقد روى فى تعليل التكبيرات السبعة فى افتتاح الصلاة: «أنّ النبى (ص) لمّا أسرى به إلى السماء قطع سبعة حُجب، فكبّر عند كلّ حجاب تكبيرة، فأوصله الله- عزّ وجلّ- بذلك إلى منتهى الكرامة» (۱).

والتلبية مفتاح الحج:

وينطلق الحاج إلى الحجّ من «الميقات» ب- «التلبية»، والتلبية مفتاح الحجّ، كما أنّ التكبيرة مفتاح الصلاة، ومن دون التلبية لا يتمكّن الحاج من أن ينطلق فى هذه الرحلة المباركة التى شقّ طريقها إليها أبونا إبراهيم (ع)، وعمّقه، ووكده ابنه المصطفى خاتم الأنبياء (ص).

ولا يتأتّى للإنسان أن ينطلق إلى الله فى هذه الرحلة الإبراهيمية فى الاستجابة لدعوة الله تعالى، من دون أن يفتح كلّ قلبه فى هذه الاستجابة، ويلبّى الدعوة إلى هذه الضيافة التى ينعم بها الله تعالى على عباده فى كلّ سنة، عند بيته المحرّم، بكلّ مشاعره وأحاسيسه وعقله وقلبه.

ولا تتأتّى له هذه الاستجابة وهذا الانفتاح على هذه الدعوة إلّا إذا كان يُعرِض فى هذه الرحلة- على الأقل- عن كلّ دعوة أخرى يدعوه إليها ما فى

۱- وسائل الشيعة ۷۲۲: ۴

ص: ۸۱

هذه الدنيا من متاع الحياة الدنيا- بصورة مؤقتة-، ويصرف نفسه و قلبه عن كلّ ما يشغل باله وهمّه عن هذه الدعوة.

إنّ التلبية من فعل القلب، وأفعال الجوانح تختلف عن أفعال الجوارح.

فليس فى وُسع القلب أن يكون له فى وقت واحد همّان واهتمامان، وانشغالان، وانصرافان واستجابتان، وذكران، بعكس الجوارح التى يمكنها أن تمارس فى وقت واحد أكثر من فعل واحد.

يقول تعالى: (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ)(۱) .

فليس فى جوف الإنسان إلّا قلب واحد، وليس للقلب الواحد إلّا اهتمام واحد.

فإمّا أن يصرف الإنسان هذا الإهتمام فى الاستجابة إلى الله تعالى، وإمّا أن يصرفه إلى غير الله، أو يعطّل الإنسان قلبه، ويبلّده، فيكون محلًا لكل شاردٍ ووارد ويكون مثله مثل الحوانيت، فيها من كل بضاعة وسلعة.

التلبية إستجابة وإعراض:

والتلبية استجابة وإعراض، إستجابة لدعوة الله- تعالى- وإعراض عن كلّ دعوة أخرى، ممّا تلقاها فى هذه الدنيا.

وليس يدعو الإسلام المسلمينَ إلى الإعراض عن الدنيا، وليس ينهى الإسلام عن الإقبال على هذه الدنيا وفتنها، وإنّما يدعوهم إلى أن يجعلوا إستجابتهم لها فى طول استجابتهم لدعوة الله وامتدادها، وليس فى عرضها، وإلى جنبها.

وأمّا فى «الحج» فلا يتمكّن الحاج أن يستجيب لهذه الدعوة الإلهية وأن يقطع آفاق هذه الرحلة الإبراهيميّة المباركة إن لم يمحّض قلبه واهتمامه وإستجابته لله

۱- الأحزاب: ۴

ص: ۸۲

تعالى، ولا يتأتّى له هـذا التمحيض إن لم يعرض عن أيهٔ دعوهٔ أخرى فى هذه الدنيا، حتى لا تشـغله دعوهٔ عن هذه الدعوهٔ، ولا تصـرفه مغريات دعوات الدنيا وعواملها وفتنها عن دعوهٔ الله تعالى لعبادهٔ الله.

و «التلبيهٔ» تتضمّن هذين المعنيين معاً، الاستجابهٔ لله، والإعراض عن غير الله، والانفتاح على الله والانقلاب عمّا دون الله.

الانقلاب الذى يحدث فى «الميقات» بفعل «التلبيهٔ»:

و «التلبيهٔ» تفصل الحاج فى الميقات فصلًا كاملًا عن دعوات هذه الدنيا ومغرياتها، وفتنها، وإثاراتها مرّهٔ واحدهٔ، ويصبّ الحجاج من كلّ فـجّ عميق فى الميقات بأزياء مختلفـهٔ وهموم كثيرهٔ واهتمامات عديدهٔ، فيصـيغهم الله تعالى فى «الميقات» صـياغهٔ جديدهٔ وينتزعهم من كـلّ رغبـاتهم، وهمومهم، وإهتمامـاتهم إنتزاعـاً كاملًا ب- «التلبيـهٔ»، ويمحّضـهم للاسـتجابهٔ لـدعوته تعالى، وينزعهم أزياءهم، ويوحّد نسكهم، وزيّهم، وهمّهم، وإهتمامهم، وعملهم، ومسارهم، ويَصُبَّهُم فى مصبٍّ واحد إلى بيته المحرّم.

و مبدأ كلّ ذلك ومنطلقه «التلبيهٔ»، فإنّ التلبيهٔ توحّد فى نفس الحاج شتات الهموم والاهتمامات والاستجابات والرغبات، وتوحّد همّهم واهتمامهم ورغباتهم واستجاباتهم باتّجاه الاستجابهٔ إلى دعوهٔ الله تعالى.

إنّ «التلبيهٔ» تجمع شتات إهتمامات الإنسان فى همّ واهتمام واحد، وتجمع بنفس الطريقهٔ شتات إهتمام الناس وتعدد مذاهبهم فى الحياهٔ الدنيا فى إتجاه واحد.

إنّ الحياهٔ الدنيا تُشَتِّتُ الإنسان إلى هموم واهتمامات شتّى، وتُشَتِّتُ الناس إلى مصالح ومذاهب شتّى.

ص: ۸۳

والميقات يجمع شتات الناس فى همّ واحد، واهتمام واحد، وزىّ واحد، وطريق واحد.

و «التلبية» هى وسيلة هذا التوحيد، وفى الوقت نفسه توجّه هذا الحشد البشرى الهائل الواحد إلى الله الواحد القهّار.

فهى توحّد الإنسان (الفرد) وتوجهه إلى الله.

وتوحّد الناس (المجتمع) وتوجّههم إلى الله.

وهذا التحول العظيم يجرى فى «الميقات» بفعل «التلبية» و «الميقات»، و «الحرم» وعاء هذا التحول، و «التلبية» عامل هذا التحول.

وغايـة الحـجّ أن تتحوّل ساحة الحياة كلّها إلى «الميقات» و «الحرم»، ويكون لكلمة «لا إله إلّا الله» فى ساحة الحياة الواسـعة نفس الفعل والدور الذى يكون لكلمة «التلبية» فى الحج، وأن ينقل الحجّاج «الحرم» إلى واقع حياتهم فى «السوق».

ومن بؤس الناس وشقائهم أنّهم ينقلون «السوق» إلى «الحرم»، بخلاف ما يريده الله تعالى.

إنّ «التلبية» تعيدُ بناء الفرد والمجتمع.

وهذا البناء يتمّ على صعيدين:

توجيه الناس إلى الاستجابة لله تعالى، وهو البُعد الأوّل.

وتوحيد الناس بهذا الاتجاه، وهو البُعد الثانى.

والبُعد الأول يوحّد شتات هموم الإنسان واهتماماته، والبُعد الثانى يوحّد شتات مذاهب الناس ومصالحهم وأعمالهم.

ويحبّ الله تعالى أن ينقل الحجاج هـذه «الوحدانية الموجّهة» إلى حياتهم فى الأسواق، وفى مواقع الحكم والسـياسة، وساحات الصـراع ... ومن عجب أنّ الناس

ص: ۸۴

ينقلون شتات أهوائهم وميولهم ومذاهبهم إلى «الميقات» و «الحرم» للأسف.

ولو أمعنّا النظر فى «الميقات» و «التلبية» لقلنا: إنّ الميقات ليس فقط يستقبل شتات الناس ليصهرهم فى اتجاه واحد، واهتمام واحد، وأسرة واحدة، وهمّ واحد، وإنّما ينتزعهم من دنياهم انتزاعاً ليعبد بناءهم الفردى والاجتماعى، بعد أن شتتتهم الحياة الدنيا إلى آراء ومذاهب ومصالح وهموم.

هذا إذا أعطى الحاج نفسه ل- «التلبية»، وفَعَّلَ «التلبية» فى نفسه، وفتح كلّ قلبه بالتلبية على الله، ولم يحتفظ لنفسه عند التلبية بشطر من قلبه، ليعطى الشطر الآخر لله تعالى، فإنّ القلب السليم لا ينشطر ولا يتعدّد. (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِی جَوْفِهِ).

والقلب البليد العاطل فقط ينشطر ويتعدّد.

وأمارة سلامة القلب توحيد الله، وأمارة بلادة القلب وعَطَله التعدّد والانشطار.

والتلبية توجه القلوب إلى الاستجابة لله، وتوحّد شتات القلوب فى هذه الاستجابة.

وهذه هى أبعاد هذا التحول العظيم، ووعاؤه «الميقات» و «الحرم»، وعامله «التلبية».

روى عن الإمام الرضا (ع): «إنمّا أمروا بالإحرام ليخشعوا قبل دخولهم حرم الله وأمنه، ولئلّا يلهو ويشتغلوا بشىء من أمور الدنيا وزينتها ولذّاتها، ويكونوا جادّين فيما هم فيه، قاصدين نحوه مقبلين عليه بكليتهم»(۱) .

تأكيد التلبية:

لقد ورد فى النصوص الإسلامية الاهتمام بتكرار التلبية، والإكثار منها وترديدها.

ص: ۸۵

روى ابن أبى عمير وابن فضّال عن رجال شتّى عن أبى جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من لبّى فى إحرامه سبعين مرّة احتساباً أشهد الله له ألف ملك ببراءة من النار وبراءة من النفاق» (۲).

والبراءة من النفاق من نتائج التلبية، فإنّ التلبية وترديدها وتكرارها تزيل النفاق من النفس وتبرئ صاحبها من حالة النفاق، و من تشتت الميول والأهواء والهموم.

وكان رسول الله (ص) يلبّى بالتلبيات الأربع المعروفات ويكثر من ذى المعارج(۳) .

وهى:

شعور الحاج عند التلبية:

إنّ التلبية تقترن فى نفس الحاج بانفعالات نفسيّة وأحاسيس مختلفة، فهى تقترن بالشوق إذ يقبل الحاج إلى الميقات ملبّياً دعوة ربّه، ويقترن بالإحساس بالهيبة عندما يشعر الحاج أنّه يقف بين يدى ذى الجلال والعظمة ليلبّى دعوته. ويقترن بالرهبة والخوف، عندما ينظر إلى نفسه، فلا يراها أهلًا لهذا التكريم الإلهى، ولا يراها موضعاً لهذه الدعوة الإلهية ويخشى إن لبّى أن يردّ الله تعالى تلبيته.

۱- وسائل الشيعة ۳: ۹

۲- المحاسن للبرقى: ۶۴

۳- قرب الاسناد: ۷۶

ص:۸۵

ص: ۸۶

روى الصدوق فى الأمالى عن ابن المتوكل عن السعدآبادى عن البرقى عن أبيه، عن الأزدى قال: سمعت «مالك بن أنس» فقيه المدينة يقول: كنت أدخل إلى الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام)، فيقدّم لى مخدّة، ويعرف لى قدراً، ويقول: مالك إنّى أحبّك، فكنت أسرّ بذلك، وأحمد الله عليه.

قال: وكان- عليه السلام- لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إمّا صائماً، وإمّا قائماً، وإمّا ذاكراً، وكان من عظماء العبّاد، وأكابر الزهّاد الذين يخشون الله عزّ وجلّ، وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله (ص)، اخضرّ مرّة واصفرّ مرّةً أخرى، حتى ينكره من كان يعرفه.

ولقد حججت معه سنة، فلمّا استوت به راحلته عند الإحرام كان كلّما همّ بالتلبية إنقطع الصوت فى حلقه، وكاد أن يخرّ من راحلته، فقلت: يا ابن رسول‌الله ولابدّ لك من أن تقول، فقال: كيف أجسر أن أقول: لبّيك اللّهمّ لبّيك، وأخشى أن يقول عزّ وجلّ لى: لا لبّيك ولا سعديك (۱).

وعند الوقوف بين يدى الله تعالى فى موقف التلبية فى الميقات تتفاعل هذه الانفعالات والأحاسيس فى نفس الحاج، وهذا المزيج المتناسق والمتكامل من المشاعر والانفعالات النفسية تساهم فى هذه النقلة والتحول النفسى والاجتماعى الذى يحصل للحجاج فى «الميقات» و «الحرم».

۱- أمالى الصدوق: ۱۶۹

ص: ۸۷

القبلة والطواف

اشارة

ص:۸۸

ص: ۸۹

قيمة الكعبة:

شرّف الله «الكعبة» وجعلها مثابةً للناس يثوبون إليها، ويجتمعون حولها، ويجدون عندها الأمن الذى يفتقدونه فى حياتهم، (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً ...) (۱).

وهى بيت الله شرّفه الله- تعالى- وخصّه لنفسه، وجعله مباركاً، وهدًى للعالمين.

وخصّ الله- تعالى- الناس من بين سائر خلقه ببيته الذى أكرمه وخصّه لنفسه، فقال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ* فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ...)(۲) .

وجعل الله الكعبة قياماً للناس، تقوّم علاقتهم بالله، وحركتهم وكدحهم إليه، وتقوّم معاشهم ومعادهم، ودنياهم وآخرتهم، وتنظّم علاقتهم بالله- تعالى- وبأنفسهم. (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) (۳).

۱- البقرة: ۱۲۵

۲- آل عمران: ۹۶

۳- المائدة: ۹۷

ص: ۹۰

فضل الكعبة:

وقد خصّ الله- تعالى- الكعبة بفضل عظيم، يقول أمير المؤمنين (ع) فى فضل الكعبة:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْاوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْاخِرِينَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَار لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِى جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِياماً. ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْارْضِ حَجَراً، وَأَقَلَّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْاوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَال خَشِنَةٍ، وَرِمَال دَمِثَةٍ، وَعُيُون وَشِلَةٍ، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ؛ لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِى إِلَيْهِ ثِمَارُ الْافْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَار سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِى فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَار مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلا يُهَلِّلُونَ (يهلّون) للهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمُ، ابْتِلَاءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً الَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّات وَأَنْهَار، وَسَهْل وَقَرَار، جَمَّ الْاشْجَارِ دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَاف مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاض مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاض نَاضِرَةٍ، وَطُرُق عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْاسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْاحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ. وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُور وَضِيَاء لَخَفَّفَ ذلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِى الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ ابْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، اخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِى نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلْ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً الَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلا لِعَفْوِهِ».

ص: ۹۱

وعن أمير المؤمنين (ع): «إذا خرجتم حجاجاً إلى بيت الله- عزوجل- فأكثروا النظر إلى بيت الله، فإنّ لله- عزوجل- مائة وعشرين رحمة عند بيته الحرام، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين»(۱) .

وعن معاوية بن عمّار، عن أبي‌عبدالله (ع)، قال: «الله- تبارك وتعالى- حول الكعبة عشرون ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين» (۲).

وعن إسحاق بن عمار، قال أبو عبد الله (ع): «يا إسحاق! مَن طاف بهذا البيت طوافاً واحداً كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، أفلا أخبرك بما هو أفضل من هذا؟ قلت: بلى. قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كتب الله له طوافاً وطوافاً حتّى بلغ عشراً»(۳) .

دروس من الكعبة:

ل- (الكعبة) المشرّفة توجيهان فى حياة المسلمين وهما: (القبلة) و (الطواف).

وكلّ منهما يرمز إلى معنى يختلف عن المعنى الآخر، وسوف نتحدّث إن شاء الله عن كلّ منهما، ونبدأ بالقبلة.

۱- القبلة

اشارة

(فَلَنُوَلِّيَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضاها) (۴)

للقبلة دور مزدوج، فهى أولًا ترمز إلى توجيه الوجوه إلى الله فى كل يوم

۱- بحار الأنوار ۲۰۲: ۹۹

۲- نفس المصدر

۳- نفس المصدر ۲۰۳: ۹۹

۴- البقرة: ۱۴۴

ص: ۹۲

خمس مرات على الأقل.

فإنّ استقبال القبلة يحمل هذا الرمز التوحيدى فى الصلاة بوضوح وهو:

أنّ الإنسان فى الصلاة إذا استقبل القبلة فإنه يعطى وجهه لله تعالى فى الصلاة، معرضاً بوجهه عن كل شىء آخر غير الله.

وتوجيه الوجوه إلى الله فى الصلاة هو الرسالة الأولى لاستقبال القبلة، بلغة الرمز.

والرسالة الرمزية الثانية لاستقبال القبلة: أنّ القبلة يوحّد وجوه المسلمين جميعاً باتجاه الله، ويحفظ وجوه الناس من التشتّت والاختلاف فى الله وعن الله ... وهذه الرسالة وتلك بلغة الرمز، وهى لغة معروفة ومقروءة فى الثقافة الإسلامية.

ولابدّ من بعض التفصيل لهذا وذاك:

الدور الأول للقبلة: تسليم الوجوه إلى الله:

استقبال الكعبة فى الصلاة يرمز إلى تسليم الوجوه لله تعالى، وتسليم الوجه لله بمعنى أن يسلّم الإنسان جهة حركته ومساره لله تعالى، ويعطى وجهه لله.

أنحاء التسليم:

والتسليم لله فى حياة الإنسان على ثلاثة أنحاء:

۱- التسليم لقضاء الله وقدره؛ بمعنى أن لا يعترض الإنسان ولا يتذمر لما يقدر الله- تعالى- له من القضاء والقدر فى السرّاء والضّراء، وفوق درجة التسليم هذه درجة (الرضا بقضاء الله وقدره) وهو من أسمى مراتب العبودية واليقين ... وقد تحدثنا عن ذلك.

۲- التسليم لدين الله وحكمه وشريعته، بمعنى الطاعة والانقياد والاستسلام لأمر الله وحكمه، والالتزام بحدود الله- تعالى- بصورة دقيقة، وهو (التقوى)؛ وهذا التسليم يختلف عن التسليم الأول، فإنّ التسليم هنا يتمّ بالانقياد الطوعى

ص: ۹۳

والإرادى لحكم الله تعالى وحدوده ... بينما التسليم فى الفقرة الأولى بمعنى عدم الاعتراض والتذمر من قضاء الله- تعالى- وقدره والرضا به؛ أما القضاء والقدر فينزلان على الإنسان بغير إرادته واختياره، ويقهرانه على ذلك، أراد ذلك أو لم يرد.

۳- أن يسلّم الإنسان وجهه لله، بمعنى أن يجعل وجه الله ومرضاته وطاعة أحكامه وأوامره غايته فى حركته، ويسعى إليه، ويكون همّه تحقيق مرضاة الله، والتقرّب إليه وابتغاء وجهه الكريم.

وهذا التسليم يختلف عن التسليم فى الفقرة الثانية، ففى الفقرة الثانية يأتى التسليم بمعنى الطاعة، وتجنّب المعصية، والعمل والحركة ضمن حدود الله تعالى، وعدم تعدى الحدود الإلهية، والاجتناب عن انتهاك حرمات الله.

بينما التسليم فى الفقرة الثالثة مسألة نفسية وذهنية وهى ابتغاء وجه الله ومرضاته حتى فى الطاعة والتسليم لأمر الله، يبتغى بها وجهه ومرضاته تعالى.

*** والتسليم لله بالمعنى الثالث هو رسالة القبلة، وهو أحد الدورين الذين تنهض بهما (الكعبة) فى حياة الإنسان؛ قال تعالى: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ ...) (۱). و (بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ...)(۲) ، و (وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ ...) (۳)، و (وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ...) (۴).

۱- آل عمران: ۲۰

۲- البقرة: ۱۱۲

۳- النساء: ۱۲۵

۴- لقمان: ۲۲

ص: ۹۴

وكما ليس للإنسان إلّا قلب واحد (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِی جَوْفِهِ) (۱) كذلك ليس للإنسان إلّا وجه واحد، وهذا الوجه إمّا أن يكون إلى الله، أو إلى جهة أخرى غير جهة الله.

وقد يتمكن الإنسان فی وقت واحد أن يقوم بعملين (يمشی ويتكلّم مثلًا)، ولكن لا يمكن أن يعطی وجهه فی وقت واحد إلى جهتين.

إذن معنى تسليم الوجه إلى الله هو أن يكون همّ الإنسان، وغايته فی حركته ومسعاه هو مرضاة الله تعالى (قُلْ إِنَّ صَلاتِی وَ نُسُكِی وَ مَحْیایَ وَ مَماتِی لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ) (۲).

وهو أن يضع الإنسان وجهه قبال وجه الله الكريم، ويعطی وجهه لله، وهو بمعنى الإقبال على الله فی الحركة والاعراض عن غير الله.

إذن فإنّ (وجه الله الكريم) ينظم مسير الإنسان وحركته، عندما يعطی الناس وجوههم ونواصيهم لله.

وقد يعبّر القرآن عن هذا المعنى ب- «إقامة الوجه للدين»:

(وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّینِ حَنِیفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِینَ)(۳) .

وإقامة الوجه للدين، بمعنى تسليم الوجوه وتوجيهها لله تعالى، فإنّ مهمة الدين فی حياة الانسان هو توجيه وجه الناس إلى الله.

الحالات الثلاث للإنسان:

وتوجيه الوجوه إلى الله هی الحالة الوحيدة للاستقامة على الصراط المستقيم فی حياة الإنسان؛ وهذه الحالة تقع مقابل حالة الإعراض والانحراف عن الله ... وهما

۱- الأحزاب: ۴

۲- الأنعام: ۱۶۲

۳- يونس: ۱۰۵

ص: ۹۵

حالتان مختلفتان فی حیاة الإنسان.

فحالات الإنسان بالنسبة إلی الله تعالی ثلاث:

۱- حالة الاستقامة علی الصراط المستقیم فی حیاة الإنسان.

۲- حالة الإعراض والصدود عن الله وهی حالة (المغضوب علیهم).

۳- حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهی حالة (الضالین).

وهذه ثلاث حالات للإنسان بالنسبة إلی الله- تعالی- تشیر إلیها سورة الفاتحة.

والحالة الأولی هی الحالة الوحیدة للاستقامة فی حیاة الإنسان.

وأبعد حالات الإنسان عن الله- تعالی- هی حالة الإعراض والصدود عن الله، وهی حالة المغضوب علیهم ... وفی هذه الحالة یخرج الإنسان عن دائرة رحمة الله الواسعة التی لا تضیق بشیء إلّا أن یشاء الله، وهی حالة السقوط والهلاک للإنسان ... وهذه الحالة تحجب الانسان عن الله حجباً کاملًا، وبین هاتین الحالتین حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهی حالة الضالین، وهذه الحالة حالة منحرفة عن الله، ولیست علی الصراط المستقیم، ولکنها لا تحمل إعراضاً وصدوداً عنه تعالی، فهی لذلک تقع فی دائرة رجاء رحمته عزوجل.

واستقبال القبلة یرمز إلی هذه الحالة الوحیدة للاستقامة علی الصراط المستقیم، وهی الحالة التی یوجه الإنسان وجهه ویسلمه لله- تعالی- وهذا هو الدور الأوّل للقبلة.

الدور الثانی للقبلة:

والدور الثانی للقبلة أنّها توجّه وجوه الناس جمیعاً إلی الله، وهذه الصفة (الاجتماعیة) فی تسلیم الوجوه لله تعطی الإنسان قرباً وسرعةً وإقبالًا أکثر فی حرکته إلی الله.

ص: ۹۶

ومن عجب، أنّ حركة الإنسان إلى الله وسط حركة جماهير المؤمنين إلى الله أسرع وأقوى وأرضى إليه تعالى، من أن يتحرّك الإنسان وحده إلى الله إلّا أن يكون أمّة لوحده، كما كان إبراهيم (ع) لوحده أمّةً.

والله تعالى يحبّ أن يستقبل عباده مجتمعين، فإذا أقاموا الصلاة، أقاموها جميعاً، وإذا توجهوا إلى وجهه الكريم بوجوههم توجهوا جميعاً، وإذا صاموا صاموا جميعاً، وإذا أفطروا أفطروا جميعاً. وهذه الصفة (الاجتماعية) أمر أصيل وجوهرى فى هذا الدين؛ والقبلة تحقّق هذه الصفة الاجتماعية فى تسليم الوجوه إلى الله، إضافةً إلى أصل التسليم.

۲- الطواف

اشارة

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيتِ الْعَتِيقْ) (۱)

والدور الثانى للكعبة أن تستوعب هذه الغاية (وهى مرضاة الله، ووجهه الكريم) كلّ جهد الإنسان وهمّه وحركته، وهو ما يرمز إليه (الطواف).

فإنّ (القبلة) توجّه الإنسان إلى الله فى صلاته، وهذه مهمّة صعبة وشاقّة، إلّا أنّ هذه المهمّة- فى حدود القبلة- لا تستوعب كلّ جهد الإنسان وحركته، فإنّ الإنسان يصلّى، ويسعى ويتحرّك فى مناكب الأرض ابتغاءً للرزق، ويتزوّج، ويتعلّم، ويعلّم، ويحبّ، ويبغض، ويذهب إلى السوق، ويعود إلى البيت، وليس عليه من بأس فى ذلك، إذا كانت هذه الحركة فى غير معصية الله؛ غير أنّ شطراً كبيراً من جهد الإنسان وحركته واهتماماته يقع خارج هذه الجهة (مرضاة الله ووجه الله) دون أن تعارضه، ولا تستوعب كلَّ همومه وحركته وسعيه، ولا بأس

۱- الحج: ۲۹

ص: ۹۷

على الإنسان فی ذلک، غیر أنّ حرکته فی هذه الحالة إلی الله تکون حرکة بطیئة؛ یتحرّک إلی الله إذا أقبل بوجهه علی الله فی صلاته، ویتوقّف عن الحرکة إلی الله إذا قضی صلاته، وذهب لغیرها من شؤونه فی الحیاة، کالمجتمعات المسیحیة المعاصرة، فإنّ التوجه إلی الله فی هذه المجتمعات لا یستوعب إلّا جزءاً یسیراً من جهد الناس وحرکتهم فی ساعة أو بضع ساعة من أیام الآحاد فی الکنیسة، فإذا قضوا هذه الساعة فی الکنیسة، وانصرفوا إلی سائر شؤونهم فی الحیاة، انصرفوا عن الله إلی غیره من شؤونهم من حلال أو حرام.

وأقل مایقال فی ذلک أنّ حرکة الإنسان إلی الله تعالی تکون بطیئة، ومنقطعة، ومثل هذه الحرکة البطیئة المتقطعة، لا تکاد أن توصل الإنسان إلی (لقاء الله).

و (الطواف) یعلمنا أنّ من الممکن أن یستوعب (وجهُ الله) و (مرضاةُ الله) کلّ جهد الإنسان وحرکته وسعیه فی السوق والبیت والمسجد والمدرسة وساحات الحرب وموادین السلم دون أن یعطّل شیئاً من حرکته ونشاطه.

الحالات الثلاث للإنسان:

ولابدّ من توضیح وتفسیر لهذا الأمر فنقول:

انّ للإنسان تجاه الله ثلاث حالات:

۱- حالة الشرک.

۲- حالة التوحید.

۳- حالة الإخلاص.

وفیما یلی توضیح لهذه الحالات:

۱- الشرک: وهی أنّ یحکّم الإنسان أکثر من عامل علی سلوکه، بمعنی أن یحکّم الله- تعالی- علی نفسه، ویحکّم الهوی والطاغوت فی الوقت نفسه علی

ص: ۹۸

نفسه، فيخضع فى سلوكه لهذه العوامل جميعاً وليس لحكم الله- تعالى- وأمره فقط، فيطيع الله تعالى، ويطيع الهوى والطاغوت فى معصية الله، ويُحِلّ ما أحلّوه له ويحرّم ما حرّموه عليه فى مقابل ما أحلّ الله وما حرّم الله.

وهذه الطاعة والانقياد للهوى والطاغوت ... تأتى فى حياة الإنسان فى عرض طاعة الله، وبمعصية الله ومخالفته.

والقرآن يسمّى هذه الطاعة التى تأتى فى عرض طاعة الله، وتتمّ بمعصية الله ومخالفته ب- (الشرك).

فيقول- تعالى- فى طاعة الهوى: (أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)(۱) ، (أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ ...) (۲).

وطاعة الهوى هو تأليه الهوى، ولا نعرف نحن معنى آخر لتأليه الهوى غير الطاعة والتسليم لعامل الهوى: هذا فى طاعة الهوى.

وأمّا فى طاعة الطاغوت فيقول تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً)(۳) .

والعبودية هنا الطاعة، فإنّ النصارى لم يزيدوا على طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلّوا لهم وحرّموا عليهم، فعبادتهم لهم هى تحكيم أوامرهم ونواهيهم عليهم.

وقد روى فى ذلك أنّ عدى بن حاتم قال لرسول الله (ص): إنّا لم نعبد أحبارنا ورهباننا؟ فقال له رسول الله (ص): «ألم تحلّوا ما أحلّوه، وتحرّموا ما حرّموه؟».

۲- التوحيد: وهو أن يحكّم الإنسان على نفسه حكم الله- تعالى- فقط، ويأخذ بما أحلّ الله- تعالى- وينتهى عمّا حرّم الله- تعالى-، ولا يحلّل غير ما

۱- الفرقان: ۴۳

۲- الجاثية: ۲۳

۳- التوبة: ۳۱

ص: ۹۹

أحلّ الله، ولا يحرّم غير ما حرّم الله، ويجعل الإنسان كلمـة الله هى العليا فى حياته، وأمر الله ونهيه هو النافذ الحاكم على سـلوكه، يمتثل ما أمر الله تعالى به وينتهى عمّا نهى الله عنه؛ وهذا هو (التوحيد) و (التقوى).

ولكن ليس بالضـرورة أن يكون كـلّ عمله وتحركه وسـعيه لوجه الله، وابتغـاءً لمرضـاة الله، فليس ممّا يضـر ب- (التوحيـد) أن يـذهب الإنسان إلى السوق ابتغاءً للرزق، لا ابتغاءً لوجه الله ومرضاته، وإنّما يضـرّ بالتوحيد أن يجعل عامل الرزق حاكماً على سلوكه فى عرض حاكمية الله، ويأخذ بما يتطلّبه الرزق محلّلًا له، وإن كان فى ذلك معصية الله ومخالفته.

والخلاصـة: أنّ (التوحيد) هو أن يقبل الإنسان سـيادةَ الله- تعالى- وولايتَه المطلقة على حياته؛ و (التقوى) هو تحكيم سـيادة شـريعة الله وحـدها على سـلوكه؛ فلاـ يرتكب الإنسـان مـا ينهى الله عنه، ولاـ يترك عمّـا يـأمر الله تعالى به، وليس من الضـرورى فى (التوحيـد) و (التقوى) أن يكون سلوك الإنسان كلّه- حتّى فى دائرة المباح- لوجه الله وابتغاء مرضاته.

۳- الإخلاـص: وهو فوق مرتبـة التوحيـد، وتتحقّق هـذه الحالـة عنـدما يمحّض الإنسان نفسه وحياته، وسـلوكه كلّه لله، وابتغاءً لمرضاته ووجهه، وتسـتوعب مرضـاةُ الله كـلَّ حركته ونشـاطه وسـلوكه، وتصـبغ هـذه الغايـة (مرضاة الله) كلَّ سـلوكه ونشاطه وحركته، أولئك المخلَصون.

والإخلاـص بهـذا المعنى هو الـدعوة الثانيـة للأنبياء بعـد دعوة (التوحيـد)؛ والإخلاص ليس بمعنى أنّ يعطّل الإنسان نشاطه وسـعيه فى مناكب الحياة، فى السوق، والبيت، والمزرعة، وساحات الحرب، والإدارة، والسياسة، ولكن بمعنى أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته فى هذه الساحات كلّها لله تعالى.

ومن السهل أن يعطّل الإنسان شطراً كبيراً من نشاطاته وسعيه، لئلّا يكون

ص: ۱۰۰

سعيه وحركته لغير الله، ولكن من الصعب أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته كلّها لله تعالى؛ ودعوة الإسلام هو أن يطوّع الإنسان حركته وسعيه لله، وليس أن يعطّل الإنسان نشاطه وحركته.

وهذان منهجان فى التربية الروحية: التعطيل والتطويع.

والأوّل منهج سلبى يرفضه الإسلام، والثانى منهج ايجابى يدعو إليه الإسلام.

والطواف يرمز إلى هذا الشأن الصعب فى علاقة الإنسان بالله تعالى؛ ففى الطواف يطوف الإنسان دورة كاملة حول الكعبة، فى هذه الدورة يتحرّك كتفه الأيمن حول محيط دائرة كاملة من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال وفيما بين هذه الجهات جميعاً، ولا تبقى نقطة على هذا المحيط الدائرى الشامل إلّا ويقطعه الإنسان بكتفه الأيمن. وهذا المحيط يساوى ۰۳۶۰ ولا نعرف جهة هندسية أوسع وأشمل من ۰۳۶۰ (أى محيط الدائرة).

وبينما يتحرّك كتف الإنسان الأيمن حول هذه الدائرة الشاملة يثبت كتفه الأيسر على مركز الدائرة وهو الكعبة، ولا يحيد عنه، فى كلّ هذه الحركة الدائرية. ولهذا التركيز والتثبيت إلى جانب تلك الحركة الشاملة معنى عميق فى حياة الإنسان المسلم، فإنّ من الممكن أن يقوم الإنسان بكامل النشاط المباح، الذى يقوم به سائر الناس فى مناكب الحياة المختلفة، دون أن ينحرف حتّى لحظة واحدة عن ابتغاء وجه الله ومرضاته فى شىء من ذلك، فيذهب إلى السوق لله، ويسعى فى مناكب الحياة لله، ويتزوّج لله، ويؤمّن معيشة أهله لله، ويعمل فى ميادين السياسة لله، ويقاتل لله، ويدافع لله، وإذا أحبّ أحبّ لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا سرّ سرّ لله، وإذا غضب غضب لله.

فلا تفوت الإنسان فى هذه الحركة الواسعة حركة ولا نشاطاً ممّا ينشط له الناس فى مساحة المباح، ولا ينحرف الإنسان فى جزء من هذا النشاط الواسع عن

ص: ۱۰۱

ابتغاء وجه الله ومرضاته، وعندئذ يكون مخلَصاً لله، أى خالصاً، لا يشوب نفسه ونيّته شىء لغير الله.

يقول تعالى عن رسوله وكليمه موسى بن عمران: (وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا)(۱) .

ويقول تعالى: (وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) (۲).

(فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ* إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)(۳) .

و (المخلَص والمخلَصين) فى هذه الآيات بفتح اللام بمعنى الخالص، الذى خلصت نفسه ونيّته من كلّ شائبة لغير الله تعالى.

ففى تفسير قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(۴) .

عن الإمام الصادق (ع)، والراوى سفيان بن عُيينَة، قال: سألته عن قول الله: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) قال: «القلبُ السليم الذى يلقى ربَّه وليس فيه أحدٌ سواه. قال: وكلُّ قلب فيه شركٌ أو شك فهو ساقط. وإنّما أرادوا الزهد فىالدنيا لِتفرغَ قلوبهم للآخرة»(۵) .

واذا أخلص الإنسان نفسه لله، وكان كلّ سعيه وحركته ونشاطه لله، فانّ كلّ شىء فى حياته يقربه إلى الله- تعالى- ... ذلك أنّه مقبل بوجهه إلى الله، كادح للقاء الله كدحاً فى كلّ عمله وحركته ونشاطه، ولا يتوقّف عن الكدح والحركة والإقبال على الله فى سعى أو عمل، مهما كان نوع هذا السعى والعمل، فى ساحات السياسة أو القتال، وفى السّراء أو الضّراء، وفى السوق أو البيت أو المسجد ... كلّ ذلك يقربه

۱- مريم: ۵۱

۲- الصافات: ۴۰

۳- الصافات: ۷۴

۴- الشعراء: ۸۹

۵- أصول الكافى، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح ۵

ص: ۱۰۲

إلى الله. ويكون عندئذ مع الصادقين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

*** وقبل أن ننهى هذا الدرس عن (الطواف) نضيف إلى خصائص الطواف خصلة أخرى، وهى الصفة الاجتماعية فى الطواف، إنّ الله تعالى يحبّ أن يقبل عباده إليه مجتمعين، ويكدحون ويتحركون إلى وجهه الكريم فى صفوف متراصة، وحشود بشرية كبيرة من المؤمنين.

وهذه الخصلة الاجتماعية فى الحركة إلى الله تعطى لهذه الحركة سرعة وقوّة ومتانة واستحكاماً أكثر، وشتّان بين أن يعبد الإنسان الله- تعالى- لوحده، أو يعبده فى وسط حشد من المؤمنين، فإنّ العبادة الثانية أرضى وأقرب إلى الله تعالى، وأسرع إلى القبول ونيل مرضاة الله من الأولى.

و فى الطواف نجد هذه الخصلة الاجتماعية بوضوح؛ حيث يدعو الله تعالى المؤمنين لطواف هذا البيت فى أيام معدودات معلومات من السنة، فيتزاحم المؤمنون حول البيت العتيق، ويتدافعون بطبيعة الحال ويخلصون إلى الله فى وسط هذا التدافع والتزاحم، وهو درس عجيب من دروس الطواف.

فإنّ العبادة وابتغاء مرضاة الله فى وسط حشود المؤمنين يستتبع، بطبيعة الحال، مثل هذا التدافع والتزاحم، والتنافس، وأحياناً التنافس السلبى، ومع ذلك كلّه فإنّ الله- تعالى- يدعونا إلى أن نسلك الطريق إليه وسط حشود المؤمنين مع هذا التزاحم والتنافس، ويدعونا إلى التسامح والتساهل والترفّع عن المشاكل التى تحدث فيما بين المؤمنين أنفسهم؛ ولابدّ مِن أن يحدث مثل ذلك، ولابدّ من الترفّع عنها، والتساهل فيها.

روى داود بن سرحان قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «أربع لا يخلو منهنّ المؤمن أو واحدة منهنّ مؤمن يحسده، وهو أشدُّهن عليه، أومنافق يقفو أثره، أو

ص: ۱۰۳

عدو يجاهده، أو شيطان يغويه».

وللطواف فى نفوسنا مشهدان:

مشهد الطواف من الداخل، ومشهد الطواف من الخارج، ومشهد الطواف فى كلّ منهما يختلف عن الآخر.

فاذا أشرفنا على الطواف من الأعلى من سطح البيت الحرام، وجدنا هذا الجمهور الحاشد يدور حول البيت فى حركة هادئة، مريحة، متّصلة، مستمرّة، وكأنّ أرض المسجد الحرام تدور بهم فى حركة وديعة هادئة؛ وهذا هو مشهد (الطواف) من الخارج، وقراءة لحركة (التوحيد) و (الإخلاص) فى التاريخ من بعيد، من أعماق التاريخ.

وللطواف مشهدٌ آخر، وقراءة أخرى من الداخل، عندما ندخل فى زحمة الطواف، فيتدافع الطائفون، ونشقّ الطريق حول بيت الله الحرام فى زحمة الطائفين ومنافستهم، وأحياناً مضايقاتهم ومشاكساتهم، وهذا مشهد الطواف من الداخل، وكذلك نواجه هذا التدافع والتنافس من الداخل لحركة (التوحيد) و (الإخلاص).

فلا تكاد تخلص حركة (التوحيد) و (الإخلاص) لله- تعالى- فى حياتنا، فى صفوف المؤمنين الموحّدين والمخلَصين من هذا التزاحم والتنافس الايجابى، والسلبى أحياناً؛ ومع ذلك فإنّ الله- تعالى- يريد منّا أن نحمل عبىء رسالة (التوحيد) و (الإخلاص) فى الحياة فى وسط جمهور المؤمنين، وحشود الدعاة إلى الله- تعالى-، ويطلب منّا أن نتقبل نتائج هذا التزاحم والتنافس فى العمل كأمر واقع لابدّ من أن يقع، ويدعونا إلى التساهل والتسامح فى هذا الأمر، وإلى الترفّع عنه ما أمكن. وهذا هو الدرس الثانى من دروس الطواف.

***

ص:۱۰۴

ص: ۱۰۵

المنازل الثلاثة للرحمة فی السعی

اشارة

ص:۱۰۶

ص: ۱۰۷

فی حیاة الإنسان ثلاثة منازل لرحمة الله تعالی:

۱- الفقر والحاجة.

۲- الدعاء والسؤال.

۳- السعی والعمل.

وفیما یلی شرح موجز لهذه المنازل:

المنزل الأول: الفقر والحاجة:

وهو أول منازل رحمة الله- تعالی- فالفقر یستنزل رحمة الله حتی من غیر أن یعی صاحب الفقر فقره إلی الله، وبین (الفقر إلی الله) و (رحمة الله) علاقة تکوینیة، کلّ منهما یطلب الآخر، فالفقر إلی الله یستنزل رحمة الله، ورحمة الله تطلب مواقعَ الحاجة والفقر، وهی سنة عامة فی الکون، فی کلّ موضع للفقر والغنی، والضعف والقوة؛ فإنّ الضعف یطلب القوة، والقوة تطلب الضعف، والفقر یطلب الغنی، والغنی یطلب الفقر، والجهل یطلب العلم، والعلم یطلب الجهل، والمریض یطلب الطب، کما أنّ الطب یطلب المرض.

ولیست حاجة العالِم إلی الجاهل لیعلّمه بأقل من حاجة الجاهل إلی العالم لیتعلّم منه، ولا حاجة الطبیب إلی المریض لیداویه بأقل من حاجة المریض إلی الطبیب لیعالجه، ولاحاجة الأمّ إلی الطفل لتسبغ علیه حنانها وعطفها بأقل من حاجة الطفل إلی الأُمّ لتتولّاه برعایتها وعطفها.

ص: ۱۰۸

إنّها سنة الله فی کل موضع للفقر والغنی، والضعف والقوة، وهی سنة الله- تعالی- فی علاقته بفقر عباده وعجزهم وضعفهم وحاجتهم حتی من غیر سؤال وطلب ودعاء، ومن غیر وعی منهم لحاجتهم وفقرهم.

إنّ هذه العلاقة من أسرار هذا الدین، و من أسرار هذا الکون و قوانینه، و ما لم یفهم الإنسان هذا القانون فی الکون، وفی علاقة الإنسان بالله تعالی لا یستطیع أن یدرک طائفة واسعة من معارف هذا الدین وأسراره.

وکم من مریض تماثل للشفاء برحمة الله من غیر سؤال (وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ) (۱) وکم من فقیر جائع رزقه الله- تعالی-، وأطعمه من جوع من غیر سؤال ولا دعاء، وکم من مضطر فی لجج البحار، أو تحت الانقاض، أو تحت طائل السیوف أو فی وسط الحریق أدرکته رحمة الله- تعالی- وانقذته من غیر سؤال ولادعاء، وکم من ظمآن بلغ به الظماء مبلغاً استنفذ مقاومته، فأدرکته رحمة الله- تعالی- وأروته من غیر سؤال ولا طلب؛ وکم من إنسان واجه الأخطار، وکان قاب قوسین منها، وهو یعلم أولا یعلم، فجاءه (ستر الله) فأنقذه منها؛ وکم من إنسان وصل إلی طریق مسدود فی حیاته ففتح الله- تعالی- علیه ألف طریق وطریق، وکلّ ذلک من غیر سؤال ولا طلب ولا دعاء، بل دون أن یعرف صاحبُه الله، فیمن لایعرف الله من خلقه، فضلًا من أن یعرفه فلا یطلب منه، وکم من رضیع تدرکه رحمة الله- تعالی- دون أن یطلب من الله، ودون أن یسأل الله تعالی، ویقدر علی ذلک (۲).

۱- الشعراء: ۸۰

۲- وهذا لا یعنی أن الناس لا یموتون تحت الانقاض فی الزلازل، ولا یحترقون فی الحرائق، ولا یهلکون فی لجج البحار، ولا یموت إنسان من المرض والألم ولا یموت طفل رضیع.

فقد صمّم الله تعالی هذا الکون بموجب (الرحمة) و (الحکمة)، فاذا کانت حکمة الله تقتضی وقوع کارثة فی إنسان أو حیوان أو نبات، فلا یعنی ذلک أن ننفی البعد الآخر من فضل الله- تعالی- وصفاته الحسنی، وهو الرحمة؛ ولهذا الموضوع شرح وبسط لیس هذا محله.

ص: ۱۰۹

وقد ورد فی دعاء الافتتاح: «فکم یا إلهی من کربة قد فرجتها، وهموم قد کشفتها، وعثرة قد أقلتها، ورحمة قد نشرتها، وحلقة بلاء قد فککتها».

وورد فی دعاء أیام رجب: «یا من یعطی من سأله، یا من یعطی من لم‌یسأله، ومن لم یعرفه تحنّناً منه ورحمة»؛ فإنّ الله تعالی یعطی بموجب هذا الدعاء من لایسأله، ومن لایعرفه من خلقه.

وفی المناجاة الشعبانیّة: «ولکن عفوک قبل علمنا».

إذن الفقر والحاجة من منازل رحمة الله- تعالی-، وحیث یکون الفقر وتکون الحاجة، تجد رحمته تعالی.

وللعارف الرومیّ الشهیر بیتٌ من الشعر فی هذا الباب، أذکر ترجمته:

لا تطلب الماء واطلب الظماء حتّی یتفجّر الماء من کلّ أطرافک وجوانبک.

وقد وردت الإشارة إلی هذه العلاقة بین رحمة الله- تعالی- وحاجة عباده وفقرهم، فی مناجاة بلیغة ومؤثرة لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب ۷، کان یناجی الله تعالی بها فی ظلمات اللیل فی مسجد الکوفة، نورد فیما یلی طرفاً منها:

مولای یا مولای، أنت المولی، وأنا العبد، وهل یرحم العبد إلّا المولی؟ مولای یا مولای، أنت المالک، و أنا المملوک، و هل یرحم المملوک إلّا المالک؟ مولای یا مولای، أنت العزیز، وأنا الذلیل، وهل یرحم الذلیل إلّا العزیز؟ مولای یا مولای، أنت الخالق، و أنا المخلوق، و هل یرحم المخلوق إلّا الخالق؟ مولای یامولای، أنت القوی، وأنا الضعیف، وهل یرحم الضعیف إلّا القوی؟ مولای یا مولای، أنت الغنی، وأنا الفقیر، وهل یرحم الفقیر إلّا الغنی؟ مولای یامولای، أنت المعطی، وأنا السائل، وهل یرحم السائل إلّا المعطی؟ مولای یا مولای، أنت الحی، وأنا المیت، وهل یرحم المیت إلّا الحی؟

الفقر الواعی والفقر المحجوب عن الله بالأسباب:

ص: ۱۱۰

ولكن علينا أن نشير هنا: أن هناك نوعين من الفقر؛ أحدهما يستنزل رحمة الله، والآخر يحجب صاحبه عن رحمة الله، أمّا الذى يستنزل رحمة الله فهو «الفقر الواعى» الذى يشعر صاحبه بحاجته وفقره الى الله تعالى، ويربطه بمسبّب الأسباب، دون أن يكون معنى ذلك إسقاط الأسباب عن الحساب.

وهناك الفقير الذى تحجبه الأسباب المادية عن الله تعالى، مسبّب الأسباب، فلا يكاد يشعر بفقره إلى الله بسبب إعتماده على الأسباب المادية، ويتراءى لى أنّ هذه الأسباب هى التى تغنيه وترفع فقره، فيبقى محجوباً عن الله، رغم فقره إلى الله، وهذا هو الفقر الذى يحبس صاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بفقره وحاجته إلى مسبّب الأسباب.

وليس معنى وعى الحاجة والفقر إلى الله- تعالى- إلغاء الأسباب، والإعراض والانصراف عنها، فهذا ما لا يصح، ولا يجوز، ولا يقول به أحد، حتّى الأشاعرة لايذهبون هذا المذهب المتطرف من الأسباب.

ومع تثبيت هذه الحقيقة نقول: إنّ الفقر الواعى هو الفقر الذى يشعر صاحبه بفقره إلى الله، ويثبّت ويركّز الإحساس بالفقر إلى الله فى نفس صاحبه، ولا تعيقه الأسباب عن مسبّب الأسباب.

أمّا الفقر المحجوب، فهو الفقر الذى يحبس صاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بالحاجة والفقر إلى الله تعالى، مبدأ الأسباب، ومسبّب الأسباب.

والفقر الأوّل هو المقصود من الرواية النبويّة الشريفة: «الفقر فخرى»؛ والفقر الثانى هو الذى «كاد أن يكون كفراً».

والفقر الأوّل هو الذى يستنزل رحمة الله، والثانى يحجب صاحبه عن رحمة الله.

وهذا الفقر هو الذى نجده فى كلمات أبى الأنبياءِ إبراهيم (ع)، كما يتلو علينا القرآن نبأه: (وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ* ... الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ* وَ الَّذِى هُوَ

ص: ۱۱۱

یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ* وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ* وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ* وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ) (۱).

فلا یرید إبراهیم (ع) فی هذا الخطاب أن یلغی الأسباب الطبیعیة فی الإطعام، والسقی، والشفاء، والموت، والحیاة من الحساب، وقد کان (ع) یتعامل مع کل ذلک إلّا أن هذه الأسباب لن تحجبه عن الله- تعالی- مسبّب الأسباب ومبدأ الأسباب، وهذا هو الفرق بین الرؤیة التوحیدیة إلی الأسباب، وبین الرؤیة الأخری المشوبة بالشرک.

المنزل الثانی: الدعاء والسؤال:

اشارة

یستنزل الدعاء والسؤال من رحمة الله ما لایستنزله الفقر، وذلک أنّ الدعاء فقر وطلب، وکل منهما عامل مستقل فی استنزال رحمة الله- تعالی- ولذلک فهو یستنزل من رحمة الله ما لایستنزله الفقر وحده.

وکلما یکون صاحب الدعاء أکثر اضطراراً وفقراً، یکون دعاؤه أقرب إلی الاستجابة، فإنّ الفقر یرکّز الطلب، والطلب یعمّق حالة الفقر ویدخله إلی دائرة الوعی.

ولکل (دعوة) (إجابة)

یقول تعالی: (... ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِینَ) (۲).

وهذا قانون عام لا یتخلف، والقرآن الکریم یقرّر هذه الحقیقة بکل وضوح (ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ).

۱- الشعراء: ۶۹- ...- ۸۱

۲- المؤمن: ۶۰

ص: ۱۱۲

فإنّ (المانع) عن استجابة الدعاء، إمّا أن يكون من ناحية المسؤول، أو من ناحية السائل، أو من ناحية السؤال، وليس من رابع، ولا يمكن أن يكون هناك مانع من ناحية المسؤول فإنّ الله- تعالى- مقتدر كريم، لا تنقص خزائنه، ولاينفد ملكه.

(... وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (۱).

(... وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)(۲) .

(إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (۳).

(وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ) (۴).

ولا بخل ولا شحّ فی ساحته، ولا حدّ لجوده وكرمه.

(... رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً ...)(۵) .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ ...)(۶) .

(... وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) (۷).

(ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ...) (۸).

فلا نفاد لملك الله ورحمته وسلطانه حتى يعيق رحمته، ولا بخل ولا شحّ فی ساحته حتى يمنعه من الجود والعطاء.

فليس فی المسؤول- سبحانه وتعالى- ما يمنع من الاستجابة لدعاء عباده كلما

۱- البقرة: ۱۱۷

۲- الزمر: ۶۷

۳- آل عمران: ۱۶۵

۴- المنافقون: ۷

۵- غافر: ۷

۶- الأنعام: ۱۴۷

۷- الإسراء: ۲۰

۸- فاطر: ۲

ص: ۱۱۳

دعوه وطلبوا منه شيئاً، وهو معنى قوله تعالى (ادْعُونِی أستجبْ لكُمْ) من دون قيد ولا شرط، هذا من ناحيهٔ المسؤول.

وأمّا من ناحيهٔ السائل فقد تضرّه الاستجابهٔ، وهو لا يعلم، و الله‌تعالى يعلم، فلا يستجيب لدعائه، ولكن يعوّضه عن ذلك بغيره بقضاء سائر حاجاته وغفران ذنوبه.

و قد يضرّه التعجيل بقضاء حاجته والاستجابهٔ لدعائه، و يعلم الله- تعالى- أن تأجيل الاستجابهٔ أصلح لحاله.

وقد يكون المانع عن الإجابهٔ نوع السؤال والحاجهٔ الطلب، وذلك عندما يطلب العبد مايلغى نظام التكوين فى الكون، أو يطلب مالايحل ولايصح فى نظام التشريع فى الدين ... وهذه هى الحالهٔ الثالثهٔ.

التبديل، والتأجيل، والتعجيل:

فإذا كان المانع عن الإجابهٔ من ناحيهٔ السائل، إذا دعى الله تعالى بما لايصلح له ويضره، وهولايعلم بذلك، والله يعلم، فإنّ الله تعالى لايلغى الإجابهٔ بشكل مطلق، ولكن يبدله بمايصلح له، من إجابهٔ حاجاته الصالحهٔ، أو بمايشاء له من نعمه وفضله، أو بغفران ذنوبه، وهذا هو (التبديل).

وقد يقدّر الله لعبده الإجابهٔ، ولكن بتأجيل وتأخير، لمصلحهٔ يراها الله تعالى لعبده، ولايراها العبد، وهذا هو (التأجيل).

ففى دعاء الافتتاح:

«فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً، لاخائفاً و لاوجلًا، مدلًا عليك فيما قصدتُ فيه اليك، فإن أبطأ عنى عتبت بجهلى عليك، ولعلّ الذى أبطأ عنى هو

ص: ۱۱۴

خير لى لعلمك بعاقبة الأمور».

وقد يؤخر الله- تعالى- إجابة دعاء عبده، كى يطول قيامه وتضرعه بين يديه- تعالى- والله يحبّ أن يطول وقوف عبده وتضرعه بين يديه، ففى الحديث القدسى: «يا موسى! إنى لست بغافل عن خلقى، ولكنى أحبّ أن تسمع ملائكتى ضجيج الدعاء من عبادى»(۱) .

وعن الصادق (ع): «إنّ العبد ليدعو فيقول الله- عزّ وجلّ- للملكين قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته، فإنى أحبّ أن أسمع صوته، وإنّ العبد ليدعو، فيقول الله- تبارك وتعالى- عجّلوا له حاجته فإنى أبغض صوته»(۲) .

وقد يسأل العبد ما لايصلح ولا يصح أن يكون من تغيير فى نظام التكوين والخلق، كما لو طلب من الله أن يجعل له الشتاء حارّاً، أو الصيف بارداً، أو يدفع عنه الموت إلى قيام الساعة، أو طلب ما لايحل له فى نظام التشريع، فإنّ الله لايستجيب لدعائه، لأنه طلب ما لايكون أو ما لايحل.

وفى هذا وغير هذه الحالات يستجيب الله لدعاء عبده البتة، ولما ذا لايستجيب (وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ)، (وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)، و حتمية الاستجابة هنا نابعة من حكم العقل القطعى، إذا كان السائل محتاجاً وفقيراً ومضطراً إلى المسؤول، والمسؤول قادر على إجابة طلبه، ولا بخل ولاشحّ فى خلقه.

والقرآن الكريم يؤكد هذه العلاقة الحتمية(۳) يقول تعالى:

۱- (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ ...) (۴).

۱- عدة الداعى

۲- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲۱، ح ۳

۳- ليس معنى القول بحتمية هذه العلاقة فرض أمر على الله- تعالى- فهو- سبحانه- قد كتب على نفسه الرحمة فقل سلامٌ عليكم كَتَبَ ربُّكم على نفسهِ الرحمةَ .... الأنعام: ۵۴

۴- النمل: ۶۲

ص: ۱۱۵

فلا يحتاج المضطر فى الإجابة لاضطراره، وكشف السوء عنه إلّا إلى الدعاء (إذا دعاه)، فإذا دعاه سبحانه، استجاب لدعائه، وكشف عنه السوء.

۲- (وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) (۱).

والآية الكريمة واضحة وصريحة فى العلاقة بين الدعاء والاستجابة (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ).

۳- (... أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ ...) (۲).

والعلاقة القطعية بين الدعاء والإجابة واضحة وصريحة فى هذه الطائفة من آيات كتاب الله، وهى تدفع كلّ شك وريب من النفس فى قطعية الإجابة من الله لكل دعاء، ما لم تكن الإجابة مضرة بالداعى أو بالنظام العام للتكوين والتشريع، والاستجابة فى هذه الآيات غير مشروطة ولا معلّقة بشىء.

وأمّا الشروط التى سوف نتحدث عنها؛ ففى الحقيقة ترجع إلى تحقيق الدعاء وتثبيته لمصلحة الداعى نفسه، ومن دونها يضعف الدعاء أو ينتفى.

إذن فإنّ العلاقة بين الدعاء والاستجابة علاقةٌ حتمية لا يمكن أن تتخلف، وعلاقة مطلقة لا يمكن أن تتعلق بشرط، إلّا أن يكون الشرط مما يؤكد ويثبت حالة الدعاء نحو قوله تعالى: (... إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ ...).

وفى أحاديث رسول الله (ص) و أهل بيته (عليهم السلام) ما يؤكّد ويعمّق هذه العلاقة بين الدعاء والإجابة.

ففى الحديث القدسى: «يا عيسى ... إنى أسمع السامعين، أستجيب للداعين

۱- المؤمن: ۶۰

۲- البقرة: ۱۸۶

ص: ۱۱۶

إذا دعونى»(۱) .

وعن رسول الله (ص): «ما من عبد يسلك وادياً فيبسط كفّيه، فيذكر الله ويدعو إلّا ملأ الله ذلك الوادى حسنات فليعظم ذلك الوادى أو ليصغر»(۲) .

وعن أبى عبد الله الصادق (ع) فى حديث: «لو أنّ عبداً سدّ فاه، ولم يسأل لم‌يعط شيئاً، فسل تعط» (۳).

وعن ميسر بن عبد العزيز عن أبى عبد الله الصادق (ع): «يا ميسر! إنّه ليس من باب يقرع إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه»(۴) .

وعن أمير المؤمنين (ع): «متى تكثر قرع الباب يفتح لك»(۵) .

وفى وصايا رسول الله (ص) لعلىّ (ع):

«يا علىّ! .. أوصيك بالدعاء فإنّ معه الإجابة»(۶) .

وعن الصادق (ع):

«إذا ألهم أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أنّ البلاء قصير» (۷).

وعن الصادق (ع):

«لا والله، لا يلحّ عبد على الله- عزّ وجلّ- إلّا استجاب له» (۸).

والنصوصُ الإسلاميّة تؤكد هذه الحتمية فى الإطلاق، فى العلاقة بين الدعاء والإجابة، وتبين بشكل واضح وصريح، أنّ الله- تعالى- يستحيى أن يرد دعاء عبده إذا دعاه.

۱- أصول الكافى

۲- ثواب الأعمال: ۱۳۷

۳- وسائل الشيعة، ۱۰۸۴: ۴، ح ۸۶۰۶

۴- المصدر السابق، ح ۸۶۱۱

۵- المصدر السابق، ۱۰۸۵: ۴، ح ۸۶۱۳

۶- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۸

۷- اصول الكافى، كتاب الدعاء، باب الإلحاح بالدعاء، ح ۵

۸- ارشاد القلوب للديلمى.

ص: ۱۱۷

ففی الحدیث القدسی:

«ما أنصفنی عبدی یدعونی فأستحیی أن أردّه، ویعصینی ولایستحیی منی»(۱) .

وعن الصادق (ع):

«ما أبرز عبد یده إلی الله العزیز الجبار إلّا استحیی الله- عزّ وجلّ- أن یردها»(۲) .

وفی الحدیث القدسی:

«مَن توضأ وصلّی ودعانی فلم أجبه فیما یسأل عن أمر دینه ودنیاه فقد جفوته، ولستُ برب جاف»(۳) .

وعن أمیر المؤمنین (ع): «ما کان الله لیفتح باب الدعاء، ویغلق علیه باب الإجابة»(۴) .

وعن أمیر المؤمنین (ع) أیضاً: «مَن أعطی الدعاء لم یحرم الإجابة» (۵).

وفی النصّین الأخیرین التفاتة ذات مغزی ونکهة علویة؛ فإنّ الله- تعالی- کریم و وفیّ، فإذا فتح باب الدعاء، فلا یمکن أن یغلق علی العبد باب الإجابة، وإذا رزق العبد توفیق الدعاء، فلا یمکن أن یحرمه الإجابة ..

عن رسول الله (ص): «ما فتح لأحد باب دعاء إلّا فتح الله له فیه باب اجابة، فإذا فتح لأحدکم باب دعاء فلیجهد فإنّ الله لایمل» (۶).

وهذا هو المنزل الثانی من منازل رحمة الله. أللهمّ سمعنا، وشهدنا، وآمنا.

۱- عدة الداعی، وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۱۴، ح ۱

۲- ارشاد القلوب للدیلمی.

۳- وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۲- وسائل الشیعة، ۱۰۸۶: ۴، ح ۸۶۲۱

۴- المصدر السابق، ۱۰۸۶: ۴، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۸۶۲۲

۵- المصدر السابق.

۶- وسائل الشیعة، ۱۰۸۷: ۴

ص: ۱۱۸

المنزل الثالث: السعی والعمل

اشارة

قد جعل الله تعالی (السعی) و (العمل) من منازل رحمته للدنیا والآخرة.

یقول تعالی: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاةً طَیِّبَةً ...) (۱).

ویقول تعالی: (فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسی أَنْ یَکُونَ مِنَ الْمُفْلِحِینَ)(۲) .

فمن عمل صالحاً آتاه الله حیاةً طیبةً، وأفلحه.

فإذا کان الإنسان یبتغی دنیا أو آخرة فعلیه أن یسعی إلیها ویعمل لها.

وقد کان علی (ع) یقول: «لا تکن ممن یرجو الآخرة بغیر العمل»(۳) .

ولا یبلغ الإنسان منازل المؤمنین فی الجنة إلّا بالعمل.

(وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) (۴).

ومهما کان العمل قلیلًا فإنّ الله- تعالی- یحصیه ویثیبه علیه (فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ) (۵).

(یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً ...)(۶) .

فالعمل إذن، أحد أعظم منازل الرحمة، ولا ینال الإنسان مراتب من الخیر والرحمة والتوفیق والرزق من عند الله إلّا بالعمل.

ولا یبلغ الإنسان ما یطلبه من الخیر بالتمنی والترجی؛ وقد روی عن الإمام

۱- النحل: ۹۷

۲- القصص: ۶۷

۳- نهج البلاغة: حکمة ۱۵

۴- النساء: ۱۲۴

۵- الزلزلة: ۷

۶- آل عمران: ۳۰

ص: ۱۱۹

الصادق (ع) إنه كان يقول: «أبلغ شيعتنا، أنه لا ينال ما عند الله إلّا بالعمل».

وهذه ثالثة منازل رحمة الله- تعالى-.

وفی قصة أبی الأنبياء إبراهيم (ع) نلتقی مشهداً فريداً أو نادراً من نوعه، فی اجتماع المنازل الثلاثة للرحمة فی موضع واحد، فی قصة واحدة، وذلک عندما أودع أبو الأنبياء ابراهيم (ع) زوجتَه هاجر فی واد غير ذی زرع، وترک معها ابنهما إسماعيل (ع) وهو يومئذ طفل رضيع.

(رَبَّنا إِنِّی أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِی بِوادٍ غَيْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (۱).

وذهب إبراهيم خليل الله بعد ذلک إلی شأنه كما أمره الله تعالی، وترک هذه المرأة والطفل الرضيع لوحدهما فی هذا الوادی القفر بأمر الله تعالی فنفد ما كان لديهما من الماء، وعطش الطفل، وغلب عليه الظمأ وأخذت المرأة تبحث عن الماء فلم تجد له أثراً، وأخذ الطفل يصرخ ويضرب بيديه ورجليه، والأم تهرول من هنا وهناک فتصعد علی الصفا تارةً تنظر إلی الأفق البعيد بحثاً عن الماء ثم تهبط، وتهرول باحثة عن الماء إلی جانب جبل المروة، وتدعو الله تعالی أن يرزقهما الماء فی هذا الوادی القفر، والطفل يصرخ ويبكی ويضرب بيديه ورجليه عند البيت الحرام.

ففجّر الله تعالی الأرض ماءاً تحت قدمی الطفل، فأسرعت الأم إلی الماءِ، لتروی طفلها الرضيع، ولتلملم الماء لئلا يذهب هدراً، فتقول للماء وهی تصنع له حوضاً يجمعه وتقول للماء: زم .. زم ... وإليک الرواية التاريخية لهذه القصة:

۱- ابراهيم: ۳۷

ص: ۱۲۰

الروایة التاریخیة لقصة السعی الأول:

تقول الروایة التاریخیة: «إنّ الله تعالی أمر عبده وخلیله إبراهیم أن یخرج بزوجته هاجر (أمّ إسماعیل) من الشام إلی صحراء الجزیرة، حیث یقع الحرم، فلما وافی إبراهیم منطقة الحرم، حیث تقع مکة الیوم نزل فیها فوجد شجراً، فألقت‌ها جر کساءاً کان معها تستظل تحته فلما سرّحهم إبراهیم و وضعهم، و أراد الانصراف عنهم إلی سارة، قالت له هاجر: یا إبراهیم لِمَ تدعنا فی موضع لیس فیه أنیس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهیم (ع): الّذی أمرنی أن أضعکم فی هذا المکان هو یکفیکم، ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ (کدًی) وهو جبل بذی طوی، التفت إلیهم إبراهیم (ع) فقال:

(رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ).

ثمّ مضی وبقیت هاجر، فلمّا ارتفع النهار عطش اسماعیل وطلب الماء، فقامت هاجر فی الوادی فی موضع المسعی فنادت: هل فی الوادی من أنیس؟ فغاب إسماعیل عنها فصعدت علی الصفا، ولمع لها السراب فی الوادی وظنّت أنّه ماء، فنزلت فی بطن الوادی وسعت فلمّا بلغت المسعی غاب عنها إسماعیل، ثمّ لمع لها السراب فی ناحیة الصفا فهبطت إلی الوادی تطلب الماء، فلمّا غاب عنها إسماعیل عادت، حتّی بلغت الصفا، فنظرت حتّی فعلت ذلک سبع مرّات، فلمّا کان فی الشوط السابع وهی علی المروة نظرت إلی اسماعیل، وقد ظهر الماء من تحت رجلیه، فَعَدَتْ حتّی جمعت حوله رملًا فإنّه کان سائلًا فزّمته بما جعلته حوله فلذلک سمّیت زمزم».

ص: ۱۲۱

أسرار الموقف:

إنّ هذا المشـهد العجيب اسـتنزل يومذاك رحمة الله تعالى، ففجر الله لهما زمزم فى واد غير ذى زرع، وجعلها مصدراً ومبدءاً لكثير من البركات على هـذه الأرض المباركـة، وجعل هذا المشـهد جزءاً من أعمال الحجّ، وثبّته الله تعالى فى واحد من أشـرف فرائضه، فما هو السـرّ الكامن فى هـذا المشـهد؟ ولماذا هـذا الاهتمام به فى أصل الدين، وتثبيته فى الحج؟ وما هو السـبب المؤثر والقوى الذى اسـتنزل رحمة الله تعالى بقوة فى هذا المشهد، وجعلها مبدءاً لبركات كثيرة فى حياة الأجيال المتعاقبة من الموحّدين؟

فى ضيافة الرحمن ؛ ؛ ص۱۲۱

بد من أن يكون هذا المشـهد ينطوى على سـرّ خاص اسـتدعى نزول رحمته تعالى فى ذاك الوادى القفر، واستدعى دوام هذه الرحمة وثباتها، وجعل منها مصدراً ومبدءاً لكثير من البركات، واستدعى أن يُثَبِّتَهَا الله تعالى فى حج أجيال الموحدين عند بيته الحرام.

إننى أعتقد،- والله تعالى أعلم بأسـرار هذا المشهد- أنّ هذا المشهد النادر كان يجمع يومئذ بين ثلاثة منازل من منازل رحمة الله تعالى كلّ منها يستنزل رحمته تعالى.

وأول هـذه المنازل الحاجـة، وهى الظمأ الـذى أصاب الطفل وأضـرَّ به، وهذا واحد من منازل رحمة الله تعالى، ومن أقرب المنازل إلى رحمته.

ولـذلك نرى أنّ الأطفال الرضّع إذا أضـرّ بهم ألم، أو جوع، أو ظمأ، أو برد، أو حرّ، كانوا أقرب إلى رحمـة الله تعالىمن الكبار الـذين يطيقون ذلك، لأن الألم، والجوع، والظمأ يضرّ بهم أكثر من الكبار.

وقد ورد فى الدعاء: (أللهمّ أعطنى لفقرى)، والفقر إلى الله لوحده يسـتنزل رحمته- تعالى-، وكلما كان الفقر إلى الله أعظم كان أدعى لنزول رحمة الله،

ص: ۱۲۲

ویقرب الإنسان منها، سواء کان الإنسان یعی فقره إلی الله أم لا- یعی، وإن کان وعی الفقر إلی الله یضاعف من قیمته وقدرته فی استنزال رحمته- تعالی-.

ولکن بشرط ألّا یحرّف الإنسان الفقر عن موضعه، فیتصوّر أنه من الفقر إلی المال أو إلی حطام الدنیا، أو إلی بعض عباد الله بدل أن یعیه علی واقعه وهو الفقر إلی الله. وشتّان بین هذا الفقر وذاک الفقر. والذی یستنزل رحمة الله- تعالی- هو الفقر إلی الله، فإذا حرّف الانسان هذا الفقر من الفقر إلی الله، إلی الفقر إلی عباد الله، فقد الفقرُ قیمتَه فی استنزال رحمته- تعالی-، وأکثر فقر الناس من هذا النوع.

وفی هذا المشهد کان صراخ الطفل وضجیجه وبکاؤه من شدّة العطش مشهداً نافذاً مؤثراً فی استنزال رحمة الله تعالی.

کما أنه لیس فی مشاهد الحاجة والفاقة إلی الله مشهد مؤثر ورقیق یستنزل رحمته- تعالی- أکثر من مشهد طفل یتلظی من العطش، ولا تجد له امّه إلی الماء سبیلًا.

والمنزل الثانی لرحمة الله فی هذا المشهد هو (السعی)، وهو شرط للرزق، و لارزق من دون سعی، وقد جعل الله تعالی السعی والحرکة فی حیاة الإنسان مفتاحاً للرزق.

وإذا کان عامل الفقر یُکْسِب الإنسان حالة الاضطرار والفاقة والحاجة. فإنّ عامل السعی یُکْسِب الإنسان العزم والقوّة والإرادة، والحرکة والنشاط، وعلی قدر حرکة الإنسان وسعیه وعزمه یرزقه الله- تعالی- من رحمته.

و قد تحرکت أمّ إسماعیل هاجر (س)- عندما نفد عندها الماء، وغلب الظمأ علی إسماعیل (ع)- للبحث عن الماء، وسعت تطلبه، تصعد إلی الصفا مرّة، تنظر فی الأفق البعید باحثةً عن الماء، وتنزل من الصفا وتتّجه إلی المروة، تارةً أخری، لتصعد علیه وتنظر إلی الأفق البعید تبحث عن الماء، ورغم أنها إستعرضت فی

ص: ۱۲۳

هذه الحركة كلّ الأفق من على الصفا والمروة فلم تجد ماءاً لم تيأس، وأعادت هذه الحركة، والصعود والنزول، والهرولة من الصفا إلى المروة وبالعكس سبع مرات، ولولا أملها و رجاؤها فى رحمة الله، لانقطع سعيها فى الشوط الأوّل، ولكن الأمل والرجاء الذين كانا يعمران قلبها كانا يدعوانها كلّ مرة إلى إعادة السعى مرة أخرى، حتى فرّج الله عنهما وفجّر زمزم تحت قدمى إسماعيل، فإنّ الأمل هنا فى الله، وليس فى جهدها فى البحث عن الماء، ولو كان أملها فى جهدها فى البحث عن الماء لانقطع أملها فى المرة الأولى أو الثانية.

وقد جعل الله- تعالى- هذا السعى وهذه الحركة شرطاً للرزق، ونزول رحمته على الإنسان، والله تعالى يرزق عباده، وينزل عليهم رحمته، ولكنه تعالى شاء أن يكون السعى والحركة مفتاحاً لرزقه ورحمته.

والمنزل الثالث لرحمة الله تعالى فى هذا المشهد: هو دعاء أمّ اسماعيل، ورجاؤها وثقتها بالله، وانقطاعها إلى الله، واضطرارها إليه- عزّ شأنه- فى طلب الماء فى هذا الوادى القفر غير ذى زرع، وكلّما انقطع الإنسان فى دعائه إلى الله أكثر كان أقرب إلى رحمة الله.

ولست أدرى فى أية حالة من حالات الانقطاع إلى الله، كانت هذه المرأة الصالحة فى تلك اللحظات فى الوادى غير ذى زرع، وليس من انسان أو حيوان حولها، ووحيدها الرضيع يتلظى عطشاً، ويكاد أن يلفظ آخر أنفاسه.

لقد انقطعت المرأة إلى الله فى تلك اللحظة انقطاعاً ضجّت له ملائكةُ الله بالدعاء، وضموا أصواتهم إلى صوتها، ودعاءهم إلى دعائها.

ولو أنّ الناس كلهم انقطعوا إلى الله بمثل هذا الانقطاع، لأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وعمّتهم رحمة الله تعالى.

عليكِ سلام الله يا امنا، أمّ اسماعيل! من أبنائك الذين آتاهم الله النور والهدى

ص: ۱۲۴

والإيمـان والنبوة، ومن المهتـدين بهـداهم ونورهم ... لولاـ ذلـك الاـنفراد فى ذلك الواد القفر غير ذى الزرع فى هجير الحجاز، ولولا تلك المعاناة والمحنـة لم تنقطعى إلى الله- عزّ وجلّ- بمثل هـذا الانقطاع، فى ذلك الموقف العسير على جبلى الصـفا والمروة، ولولا ذلك الانقطاع إلى الله، لم تنزل رحمة الله تعالى عليكما، ولولا تلك الرحمة لم‌يكن انقطاعك إلى الله وسـعيك بين الصفا والمروة من شعائر الله فى الحجّ.

(إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ) (۱).

لقـد ثبّت الله- تعـالى- يـا أمّنـا؛ انقطاعك إليه فى ذلك الهجير، وسـعيك إلى الماء، وصـراخ صـغيرك إسـماعيل فى ذاكرة التاريـخ، ليعرف الأجيال من بعدك كيف يستنزلون رحمة الله، وكيف يتعرضون لرحمة الله.

إنّ رحمـة الله- تعـالى- واسـعة لاـ شـحّ فيهـا ولاـ نقص، ولاـ عجز، ولكن الناس لايعرفون مواضع هـذه الرحمـة ومنازلها، ولا يحسـنون التعرّض لها والاستفادة منها.

ومنك تعلمنا يا أمّنا! كيف نطلب منازل رحمة الله، وكيف نتعرض لرحمة الله، ومنك يا أمنا أخذنا مفاتيح الرحمة.

وعـذراً يـا أمنا! إذا كنّا- نحن أبناؤك- لم نحفظ هـذه المفاتيـح التى سلّمتيها إلى إسـماعيل من بعـدك، وتوارثها أبناء إسـماعيل من إسماعيل، وتوارثناها- نحن- من ابنك محمد المصطفى رسول الله (ص) فضيعناها فيما ضيعنا من تراث الأنبياء و مواريثهم.

لقد تعلّمنا من أبينا إبراهيم (ع) كيف نوحّد الله، وتعلمنا من أمّنا هاجر (س) كيف نسأل الله، وفى متاهات الهوى والطاغوت ضـيعنا هذا وذاك.

فأعنّا اللهمّ! على تحصـيل ما ضيعناه من تراث أبينا وأمنا (إبراهيم وهاجر) (عليهما السلام) واجعلنا من أسرتهم، ولا تطردنا ربنا! من هذا البيت من آل إبراهيم وآل عمران.

۱- البقرة: ۱۵۸

ص: ۱۲۵

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(۱) .

(رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَ أَرِنا مَناسِکَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (۲).

لقد أخذت أمُّنا (أمّ إسماعيل)- يومذاک فی ذلک الوادی القفر، وفی رمضاء هجيز ذلک الوادی- بأسباب الخير کلّها ... وذلک هو السعی والدعاء والفقر إلی الله.

لقد کانت أمّنا تسعی إلی الماء، وتشرف علی الوادی تارة من علی الصفا وأخری من علی المروة باحثة عن الماء، والله- تعالی- يحبّ من عباده الحرکة والسعی والعمل، وجعل ذلک من أهم شروط الرزق؛ ولکنها فی سعيها کانت منقطعة إلی الله، وتدعوه- تعالی-، وتسأله فی حالة من الانقطاع، يقلّ نظيرها فی تاريخ الإنسان، فلا السعی والتحرک، کانا يحجبانها، ويقطعانها عنه- تعالی-، ولا الانقطاع إلی الله کان يعطل فيها حالة الحرکة، والسعی إلی الماء بأقصی ماتستطيعه امرأة فی ذلک الوادی القفر، وفی ذلک الهجير ... فی أشواط سبعة من الصفا إلی المروة ومن المروة إلی الصفا.

وإننا اليوم فی شعائر حجّنا، نسعی هذه الأشواط بين هذين الجبلين، من غير معاناة، ولا عذاب ولا همّ، ولا قلق، فنکدح ونتعب ويرهقنا هذا السعی.

وقد قامت أمُّنا هاجر بهذا السعی کلّه فی ذلک الوادی القفر، وفی رمضاء ذلک الهجير، وهی ظمأی قد استنفذ الظمأ حولها وقوتها، ورضيعها الصغير يکاد يلفظ آخر أنفاسه ... ولکنها مع ذلک قامت بهذا السعی إلی الماء بقوّة وهمّة

۱- آل عمران: ۳۳- ۳۴

۲- البقرة: ۱۲۸

ص: ۱۲۶

وعزم وإرادة.

ولم يمنعها هذا السعى- ولو للحظة واحدة- عن الانقطاع إلى الله، ولم يحجبها ولو للحظة واحدة عنه تعالى، فقد كان سعيها فى إمتداد إنقطاعها إلى الله ودعائها، ودعاؤها مبدء سعيها وحركتها إلى الماء، ومَن منّا يقدر على ذلك؟

والملائكة يومئذ ينظرون إليها، ويعجبون منها، كيف استطاعت أن تنقطع إلى الله هذا الانقطاع؟ وكيف تمكنت أن تسعى إلى الماء، وهى مثقلة بالمتاعب والمحن هذا السعى؟ وكيف استطاعت أن تجمع بين السعى والانقطاع إلى الله بمثل هذا الجمع؟

فيضجون إلى الله- تعالى- أن يستجيب لدعائها وسعيها، وأن يستنزل سعيها ودعاؤها رحمةَ الله- تعالى-، وتقرب رحمة الله منها، حتى تكاد أن تنطبق السماء على الأرض.

لقد صعد يومئذ عمود من الدعاء، والسعى من الأرض إلى السماء، و نزل عمود من الرحمة من السماء إلى الأرض، واتّصلت الأرض بالسماء، والسماء بالأرض، وحشود الملائكة يشهدون هذا المشهد الفريدالذى لم يشهده يومئذ غيره تعالى وغيرها وغيرهم، ويضجون إلى الله تعالى، ويتضرعون أن يستجيب لدعائها وسعيها، فيحدث ما ليس بالبال ولا الخيال، وتنفجر الأرض تحت أقدام الرضيع ماءً بارداً زلالًا شفافاً هنيئاً مباركاً.

وسبحان الله، والحمد لله، لقد استجاب الله لسعيها ودعائها، ولكن لاحيث سعت، وإنّما تحت أقدام الرضيع، الذى كان يضرب بيديه ورجليه ظمأً يومذاك، ليعلمها الله أنه تعالى هو وحده الذى رزقها هذا البارد العذب، فى هذه الرمضاء، وفى هذا الهجير، وليست هى التى حققت ذلك بسعيها وحركتها ... وإن كان لابد لها

ص: ۱۲۷

من أن تسعى، وتتحرك ليرزقها الله تعالى زمزم.

ففجّر الله (زمزم) تحت أقدام الرضيع، وأقام الله- تعالى- فى ذلك الوادى بيته المحرم، وبارك فى زمزم، وجعل منه سقاية الحاج مدى الأجيال، وثبّت الله هذا السعى والدعاء فى ذاكرة التاريخ، وجعل منه شعيرة من شعائر الحج، يحذو فيها حشود الحجاج كلّ عام حذوها، ويحيّون فيها من بُعد أمّهم هاجر وأبويهم إبراهيم وإسماعيل.

لقد اجتمعت فى هذا الوادى- يومذاك- ثلاثة أسباب من أسباب نزول رحمة الله تعالى: الفقر والسعى والدعاء ...

فقر، فى أقصى درجات الضعف والفاقة، وسعى، فى قوة وحزم وعزم، ودعاء فى تضرع وانقطاع واضطرار.

وفى الحجّ نحيى نحن كلّ عام هذا المشهد، لنتعلم من أمّنا أمّ اسماعيل (س) كيف نطلب رحمة الله- تعالى-؟ وكيف نستنزل فضله ورحمته؟ وكيف نغرف من رحمته ونتعرض لها، ونتعلّم من أبينا إبراهيم كيف نتوكل على الله ونفوض أمورنا إليه.

فسلام الله على أبنيا إبراهيم وأمنا هاجر، ورضوان الله ورحمته عليهما.

***

ص:۱۲۸

ص: ۱۲۹

الرحمة الهابطة على عرفة

اشارة

ص:۱۳۰

ص: ۱۳۱

عرفة روح الحج

يتميز عرفة من بين سائر أعمال الحج امتيازاً واضحاً.

وقد روى عن رسول الله (ص): (الحج عرفة) (۱) ومعنى الحديث بلسان الفقه: إنّ عرفة من أركان الحج، يبطل الحج بترك مسمى الوقوف فيها عمداً، وعلى من تركه عمداً، من غير عذر، أن يعيد الحج ...

و معنى الحديث بلسان العرفان: أنّ عرفة روح الحج، وكل ما يسبقه من أعمال ومناسك، إنما شُرِّع لإعداد الحاج لحضور عرفة، على مائدة الرحمة الإلهية، وما يلحق عرفة من مناسك وأعمال يأتى فى امتداد عرفة.

عرفة يوم الاعتراف والمعرفة

فى عرفة يتجرّد الناس عن كل غرورهم وخيلائهم، ويعترفون لله تعالى بذنوبهم وآثامهم، ويسألون الله تعالى أن يهبهم معرفة مناسكهم (وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(۲) يوم عرفة، إذن، يوم اعتراف ومعرفة.

۱- مستدرک وسائل الشيعة، الباب ۱۸ من أبواب إحرام الحج، والحدائق الناضرة، ۱۵: ۳۶۷، وسنن البيهقى، ۲۱۶: ۱۵، والجامع الصغير ۱: ۱۵۰، ومسند أحمد بن حنبل ۳۸: ۲۲۲، وسنن النسائى ۲: ۴۲۴ و ۴۳۲ و ۴۶۳، والمستدرک على الصحيحين ۴: ۲۴۸ و ۶: ۱۴

۲- البقرة: ۱۲۸

ص: ۱۳۲

و لا فرق بين الأنبياء: وعامة النّاس، فى الاعتراف والمعرفة فى هذا اليوم المبارك، إلّا أنّ الأنبياء: ليست لهم ذنوب يؤاخذهم الله تعالى عليها، وهم معصومون، منزهون عنها، ولكنهم يعترفون لله تعالى بما ارتكبوا من الغفلات والتقصير، وما كان ينبغى لهم ومثلهم، أن يتنزهوا ويترفعوا عنها، ثم يسألون الله تعالى أن يلهمهم ويعلّمهم مناسكهم، ليس بوجهها الفقهى فقط، وإنما بما تحمل من أسرار المعرفة والتوحيد والعبودية.

عن فضالة بن أيّوب، عن معاوية بن عمار، عن أبى‌عبدالله (ع): «إنّ إبراهيم (ع) أتاه جبرئيل (ع) عند زوال الشمس من يوم التروية، فقال: يا إبراهيم، إرتو من الماء لك ولأهلك، فسمّيت التروية لذلك ... حتّى إذا بزغت الشمس خرج إلى عرفات، فلمّا زالت الشمس، مضى إلى الموقف، فقال (جبرئيل): يا إبراهيم، إعترف بذنبك، وأعرف مناسككَ، ولذلك سميت عرفة»(۱) .

عن ابن أبى عمير، عن معاوية عن عمار، قال: سألت أباعبدالله (ع) عن عرفات، لم سميت عرفات؟ فقال (ع): إنّ جبرئيل (ع) خرج بإبراهيم (ع) يوم عرفة، فلما زالت الشمس قال له جبرئيل: يا إبراهيم إعترف بذنبك (۲).

فإذا كان الأنبياء: يعترفون لله، وهم معصومون منزهون عن المعاصى والآثام، فأحرى بعامة الناس أن يعترفوا لله تعالى فى هذا اليوم، وفى هذا الوادى بذنوبهم، ويبثوا بين يدى الله تعالى ذنوبهم وآثامهم، معترفين بجهلهم وظلمهم لأنفسهم، راجين من الله أن يغفر لهم بكرمه وعفوه ما ارتكبوه بجهلهم وطيشهم، طالبين من الله تعالى أن يرزقهم الوعى والمعرفة بمناسكهم وعباداتهم، ويرزقهم المعرفة، والتوحيد، والتقوى، والطاعة.

۱- بحارالأنوار ۱۲: ۱۲۵

۲- المصدر السابق، ۱۰۸

ص: ۱۳۳

عرفة من منازل الدعاء والمغفرة

أبرز خصال عرفة أنها من منازل (الدعاء والاستجابة) و (الاستغفار والمغفرة)، فيها يستجاب الدعاء، وتغفر الذنوب وقد استفاضت الروايات بذلك.

عن أبی‌الحسن الرضا (ع): «ما وقف أحد بتلك الجبال (وادی عرفة) إلّا استجيب له»(۱) .

و عن الرضا (ع) قال: «كان أبوجعفر (الباقر (ع)) يقول: ما من برّ ولا فاجر يقف بجبال عرفات، فيدعو الله إلّا استجاب الله له»(۲).

عرفة من منازل الرحمة

رحمة الله تعالى تفيض فی كل مكان وزمان، ولايخلو منها مكان ولا زمان، ولكن لرحمة الله تعالى منازل خاصة، تصب فيها رحمة الله تعالى من غيرحساب. ومن هذه المنازل منازل مكانيّة، ومنها منازل زمانية، ومنها منازل نفسية، ومنها منازل اجتماعية، ومنازل أخرى.

فمن المنازل المكانية وادی عرفة بعد الزوال من يوم عرفة، وأما فی غير هذا الوقت، فهو واد كسائر الوديان، فإذا حلّ الزوال من يوم عرفة، نزل على هذا الوادی من رحمة الله ما لايعرف حجمها ووزنها إلّا الله، ومن المنازل المكانيّة المسجد الحرام، والمسجد النبوی، وحرم أهل البيت: فی البقيع فی الحجاز، والمسجد الأقصى فی فلسطين، والحائر الحسينی ومسجد الكوفة فی العراق.

و من منازل الرحمة الزمانية ليلة الجمعة، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر التی يقول عنها الله تعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) ويوم عرفة

۱- المصدر نفسه، ۹۹: ۲۶۱ وعدة الداعی لابن فهد الحلی: ۷۰

۲- بحارالأنوار، ۲۵۱: ۹۹؛ وقرب الاسناد، ۱۶۶

ص: ۱۳۴

بعد الزوال.

و من منازل الرحمة النفسية، حالة انكسار القلب، فإنّ القلب فی حالة الانكسار أقرب شیء إلی الله، وقد ورد فی الحدیث: «إنّ الله فی القلوب المنكسرة»، ومن هذه المنازل حالة الاضطرار، فإن الإنسان فی حالة الاضطرار قریب من الله تعالی ... یقول تعالی: (أَمَّنْ یجُیبُ المُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ ویَكْشِفُ السُّوءَ).

ومن منازل الرحمة تجمّع المؤمنین للدعاء والصلاة، وكلما كان اجتماع المؤمنین أعظم، كان أقرب إلی رحمة الله ... ومن ذلك تجمّع المسلمین یوم عرفة للدعاء والاستغفار، ومن ذلك اجتماع المسلمین لصلاة الجمعة والجماعة، فإنهما من منازل رحمة الله.

و وادی عرفة بعد زوال یوم عرفة من أعظم منازل رحمة الله علی وجه الأرض.

و قد روی عن رسول الله (ص): «إن لله باباً فی السماء یقال له: باب الرحمة، وباب التوبة، وباب الحاجات، وباب التفضّل، وباب الإحسان، وباب الجود، وباب الكرم، وباب العفو، ولا یجتمع بعرفات أحد إلّا استأهل من الله فی ذلك الوقف هذه الخصال ... ولله رحمة ینزلها علی أهل عرفات، فإذا انصرفوا، أشهد الله ملائكته بعتق أهل عرفات من النار، وأوجب الله تعالی لهم الجنة، ونادی منادٍ انصرفوا مغفورین، فقد أرضیتمونی، رضیت عنكم»(۱)

و اجتماع المسلمین فی وادی عرفة من أعظم اجتماعات المسلمین، وأكثرها بركة، وكلّ شیء فی هذا الوادی یستنزل یومئذ رحمة الله تعالی؛ (یوم عرفة، ووادی عرفة، واجتماع المسلمین العظیم للدعاء والصلاة، وتجردهم عن ملابسهم وإقبالهم علی الله بالتذلل، والانكسار، والاستغفار) ... كل ذلك یستنزل رحمة الله،

۱- أمالی الصدوق: ۱۸؛ وبحارالأنوار ۹۹: ۲۴۹؛ ووسائل الشیعة ۱۳: ۵۵۰، ط آل البیت

ص: ۱۳۵

وتهبط الرحمة الإلهية يومئذ بدون حساب على وادى عرفة، إلّا أن الناس ينالون من هذه الرحمة النازلة، بقدر أوعية نفوسهم.

إنما ينال كل إنسان من الرحمة فى عرفة على قدر وعاء نفسه

تفيض رحمة الله على عرفة من غير حساب، ولسنا نستطيع أن نتصور بحواسنا المحدودة، الرحمة الهابطة على عرفة، ولكن كلّ واحد منا ينال من هذه الرحمة حسب وعاء نفسه ... فمن اتسع وعاء نفسه يأخذ منها الكثير، ومن يضيق وعاء نفسه يأخذ القليل على قدر ما يسعه وعاؤه، وأوعية النفوس مختلفة، فمن الناس من يسع وعاء نفسه ما تتسع له أرض عرفة وسماؤها، ومن الناس من يتسع لما دون ذلك، ومراتبها لاتحصى.

واختلاف أوعية الناس فى النيل من رحمة الله، ليس فى أصل التكوين، وإنما الإنسان هو الذى يحدد وعاء نفسه بعمله.

فكلما يكون عمل الإنسان وجهده لله أعظم، يتسع وعاء نفسه أكثر، وكلما يتسع وعاء نفسه، يعظم حظّه من رحمة الله.

عرفة منزل الدعاء والاستجابة

عرفة منزل الدعاء والاستجابة، فيها يصعد الدعاء إلى الله، وإليها تنزل الاستجابة من عند الله ... والدعاء فى كل مكان يصعد إلى الله، والاستجابة فى كلّ مكان تنزل من عند الله إلى العباد.

ولابد لهذا الأمر من توضيح وشرح، فأقول:

إنّ الذنوب تحبس الدعاء، وتقطع الرجاء من عند الله ... وقد ورد فى الدعاء الذى علّمه أميرالمؤمنين (ع) لكميل بن زياد:

«أللهم اغفر لى الذنوب التى تحبس الدعاء ... أللهم اغفر لى الذنوب التى

ص: ۱۳۶

تقطع الرجاء».

و عن أميرالمؤمنين (ع): «المعصية تمنع الاستجابة».

عن على بن الحسين (عليهما السلام): «الذنوب التى تردّ الدعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين»(۱) فيدعو الانسان، فيحبس الدعاء عن الصعود إلى الله، أو تقطع رجاء العبد بالله تعالى، فلايتوفق العبد للدعاء، وهو أشدّ وأعظم من الأول، وفى الرواية: «إن الذنوب التى تردّ الدعاء سوء النيّة، وخبث السريرة، والنفاق، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات، وترك التقرب إلى الله بالبر والصدقة، واستعمال البذاء والفحش» (۲).

ولكن العبد إذا تاب إلى الله، واستغفر من ذنوبه، تتساقط الحجب بينه وبين الله، فيصعد دعاؤه إلى الله، ويتفتّح قلبه على الله تعالى، وتنفتح عليه أبواب الرجاء، وتنزل عليه الاستجابة من عند الله فى كل مكان، فى عرفة وغير عرفة ... وهذا كله لا ريب فيه.

إلّا أنّ لوادى عرفة يوم عرفة بعد الزوال إلى الغروب، خصوصيةً وامتيازاً، لاتوجد فى غيرها إلّا نادراً.

ففى وادى عرفة بعد الزوال من يوم عرفة، تتساقط كل الحجب بين العبد وبين الله، ويصعد الدعاء إلى الله، وتتفتح القلوب على الله، وتنزل الاستجابة من عند الله على عباده بدون حجاب.

عن الإمام الرضا (ع) قال: «كان أبوجعفر (الباقر) (ع) يقول: ما من برّ ولا فاجر يقف بجبال عرفات، فيدعو الله إلّا استجاب الله له، أما البرّ ففى حوائج الدنيا

۱- معانى الأخبار: ۲۷۰

۲- المصدر نفسه: ۲۷۱

ص: ۱۳۷

والآخرة، وأمّا الفاجر ففی أمر الدنيا»(۱) و قد سمع علی بن الحسين (عليهما السلام) يوم عرفة سائلًا يسأل الناس، فقال له: «ويحك! أغير الله تسأل فی هذا اليوم؟ إنه ليرجی لما فی بطون الحبالی فی هذا اليوم أن يكون سعيداً». (۲)

كيف ندعو الله؟ وماذا نطلب من الله؟

و لاشك أنّ لكيفية الدعاء تأثيراً فيما ينال الإنسان من رحمة الله.

فإذا حضر الإنسان منازل الدعاء والاستجابة، كان عليه أن يعرف كيف يدعو الله، كما يجب عليه أن يعرف: ماذا يطلب من الله فی الدعاء.

فإنَّ الرحمة الهابطة علی عرفة، إذا كانت عظيمة لاحدّ لها، فإنّ فرصة الدعاء من الزمان محدودة ... فينبغی أن يعرف الإنسان كيف يدعو وماذا يدعو؟ لئلا يخسر هذه الفرصة الزمانية المحدودة ولايهدرها.

كيف ندعو الله؟

و أول ما يجب علی الإنسان أن يعرفه: كيف يدعو الله؟ ... فإن لكيفية الدعاء أثراً مباشراً، كما قلنا فيما ينال الإنسان من رحمة الله.

الاجتهاد فی الدعاء:

جاء فی فقه الرضا (ع): «فإذا زالت الشمس (من يوم عرفة) فاغتسل، أو قبل الزوال، ثم ائت الموقف، فادع بدعاء الموقف، واجتهد فی الدعاء والتضرع، وألحّ قائماً وقاعداً إلی أن تغرب الشمس». (۳)

۱- بحارالأنوار ۲۵۱: ۹۹ وقرب الاسناد: ۱۶۶؛ ووسائل الشيعة، ۱۳: ۵۴۵، ط آل البيت.

۲- وسائل الشيعة ۱۳: ۵۵۵، ح ۱۸۴۳۱؛ بحارالأنوار ۹۹: ۲۵۲، ح ۹

۳- فقه الرضا: ۲۶؛ وبحارالأنوار ۹۹: ۲۵۵

ص: ۱۳۸

اللواذ بالله:

عن حماد بن عيسى قال: «رأيت أباعبدالله (الصادق) (ع) بالموقف على بغلة، رافعاً يده إلى السماء حتى انصرف، وكان فى موقف النبى (ص)، وظاهر كفيه إلى السماء، وهو يلوذ ساعة بعد ساعة، بسبابتيه». (۱)

التحضير للدعاء والاستعاذة:

ساعات عرفة بعد الزوال محدودة، والرحمة الهابطة على عرفة غير محدودة، فلكى يتمكن الحاج أن ينال من رحمة الله أكثر ما يسعه وعاؤه النفسى، عليه أن يحضّر نفسه لاستقبال هذه الرحمة الإلهية الواسعة الهابطة ... وأفضل ما يحضّر الإنسان لاستقبال هذه الرحمة العظيمه الهابطة القرآن والذكر، فإنّ القرآن والذكر يفتحان القلوب المغلقة، ويعدّان الإنسان لاستقبال رحمة الله بأوسع ما يتحمله وعاء نفس المؤمن.

كما أن الاستعاذة بالله من الشيطان، يحُصّن الحاج من وساوس الشيطان وخطراته، ومكره، وكيده ... فإن الشيطان لايهرع إلى صدّ المؤمن وحجبه عن الله، وإشغاله عن الدعاء والاستغفار، كما يهرع فى عرفة ... ففيها يحسّ الشيطان بأن الخطر يهدد كلّ ما عمله وكل ماجاء به، خلال مدة طويلة، فى تحريف المؤمن وصدّه عن الله ... ولذلك يبذل كلّ ما فى وسعه لإشغال المؤمن عن الذكر والدعاء والاستغفار.

و من أجل ذلك يجب الاستعاذة بالله فى عرفة كثيراً من الشيطان، لئلايصحب الشيطانُ المؤمنَ فى حرم أمن الله فى عرفة، وفى الساعات العزيزة الغالية، فيسلبه توفيق الدعاء والاستغفار والذكر.

۱- قرب الإسناد: ۲۲؛ وبحارالأنوار ۹۹: ۲۵۰، ح ۳

ص: ۱۳۹

عن معاویـة بن عمـار، عن أبی عبـدالله الصادق (ع) قال: «إنما تعجل الصـلاة وتجمع بینهما لتفرغ نفسک للـدعاء، فإنه (یوم عرفـة) یوم دعاء؛ ثم تأتی الموقف، وعلیک السـکینة والوقار؛ فاحمـد الله وهلّله، ومجّدْه، وأثن علیه، وکبّره مأة مرة، واحمـده مأة مرة، وسـبّحه مأة مرّة، واقرأ قل هو الله أحد مأة مرّة، وتخیّر لنفسک من الدعاء ما أحببت، واجتهد فإنّه یوم دعاء ومسألة، وتعوذ بالله من الشیطان الرجیم، فـإنّ الشـیطان لن یـذهلک فی موطن قطّ أحب إلیک من أن یـذهلک من ذلک الموطن، وایّاک أن تشـتغل بالنظر إلی الناس، و أقبل قُبَلَ نفسک، ولیکن فیما تقوله: أللهمّ إنّی عبدک فلا تجعلنی من أخیب وفدک، وارحم مسیری إلیک من الفج العمیق»(۱) .

و عن أبی‌بصیر عن أبی عبدالله (الصادق) (ع) قال: «إذا أتیت الموقف فاستقبل البیت وسبح الله مأة مرّة، وکبر الله مأة مرّة، وتقول ماشاء الله لاقوة إلّا بالله مأة مرّة ... ثم تقرأ عشـر آیات من أول سورة البقرة، ثم تقرأ (قل هو الله أحـد) ثلاث مرّات، وتقرأ آیـة الکرسـی حتی تفزع منها ...» (۲).

التحضیر لعرفة بالصلاة

الصلاة من مفاتیح الرحمة، ومما یحضّر الإنسان لاستقبال رحمة الله فی عرفة ... وقد کان الإمام الصادق (ع) یصلی بعرفة مأة رکعة ب- (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ویختمها بآیة الکرسی ... وکان (ع) یقول: «ما شهد هذا الموضع نبی ولا وصی إلّا صلّی هذه الصلاة». (۳)

۱- وسائل الشیعة ۱۳: ۵۳۸، ح ۱۸۳۹۴

۲- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۰، ح ۱۸۳۹۷

۳- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۲، ح ۱۸۳۹۸

ص: ۱۴۰

حسن الظنّ بالله فی الدعاء والمغفرة

عن أبی‌عبدالله الصادق (ع) قال: «سأل رجل أبی بعد منصرفه من الموقف، فقال: أتری یخیّب الله هذا الخلق کله .. فقال أبی: ما وقف بهذا الموقف أحد إلّا غفر الله له. إلّا أنهم فی مغفرتهم علی ثلاث منازل ...» (۱).

أعظم الناس ذنباً

روی محمد بن علی بن الحسین (ع)، قال: روی: «إن أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفات ثمّ ظنّ أنّ الله لم یغفر له» (۲).

و روی الصدوق فی الفقیه: «أعظم الناس جرماً من أهل عرفات الذی ینصرف من عرفات، وهو یظنّ أنه لم یغفر له، یعنی الذی یقنط من رحمة الله» (۳).

لیس فی عرفة دعاء موقت

و قد ورد فی عرفة عن طریق أهل‌البیت: أدعیة، موقّتة، منظمة، هی من غرر الدعاء والذکر، وسوف نتحدث عنها إن شاء الله.

ولکن للحاج عندما یقف فی عرفة أن یدعو الله تعالی لحاجاته الخاصة بلسانه ولغته، مسترسلًا، من غیر أن یتقید بدعاء موقّت.

فإنّ الله یحبّ أن یسترسل العبد فی حاجاته مع ربّه، بلغته ولسانه، وبالطریقة التی یحبها فی الدعاء مع الله تعالی.

و قد ورد فی الحدیث عن الإمام الباقر (ع) أنّه قال: «سبعة مواطن لیس فیها دعاء موقّت، منها الوقوف بعرفات» (۴).

۱- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۹، ح ۱۸۴۰۶

۲- المصدر السابق ۱۳: ۵۴۷، ح ۱۸۴۰۷

۳- من لایحضره الفقیه ۲: ۱۳۷، ۵۸۷

۴- بحارالأنوار ۹۹: ۲۵۱- ۲۵۲

ص: ۱۴۱

و ليس معنى ذلك النهى عن الـدعاء الموقّت، وإنما المعنى أن للعبـد أن يسترسل فى الـدعاء مع الله فى عرفـة، من غير أن يلتزم بـدعاء موقّت.

ماذا نطلب من الله تعالى فى الدعاء؟

ينبغى فى الـدعاء أن نطلب من الله تعـالى كـلّ شـىء مما نحتاج إليه، وكلّما يهمنا فى دنيانا وآخرتنا، ونطلب منه أن يكفينا كلما نحترز منه من سوء وشرّ فى ديننا ودنيانا، فإنّ مفاتيح الخير وأسـبابه كلها بيد الله، ولا يمتنع عن إرادته شـىء، و لايعجزه شىء، ولا يبخل على عباده بشىء من الخير والرحمة.

و إذا كان الله تعالى لايبخل بالعطاء والإجابة، فمن المعيب، ومن القبيح أن يبخل العبد بالسؤال والدعاء.

فى الحـديث القدسـى: «لو أنّ أولكم وآخركم وحيّكم وميّتكم اجتمعوا فتمنى كـل واحـد ما بلغت أمنيته فأعطيته، لم ينقص ذلك من ملكى». (۱)و أيضاً عن رسول الله (ص) من الحديث القدسـى: «لو أن أهل سـبع سماوات وأرضين سألونى جميعاً، وأعطيت كل واحد منهم مسألته، ما نقص ذلك من ملكى، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه؟!»(۲) و فى الحديث عن رسول الله (ص): «سلوا الله وأجزلوا، فإنّه لايتعاظمه شىء»(۳) .

و روى: «لاتستكثروا شيئاً مما تطلبون، فما عند الله أكثر».

۱- المصدر السابق ۲۹۳: ۹۳

۲- المصدر السابق ۳۰۳: ۹۳

۳- المصدر السابق ۳۰۲: ۹۳

ص: ۱۴۲

و أمثلة التعميم والتوسعة فى الدعاء فى طلب كل خير، والاحتراز من كل شرّ، كثيرة فى النصوص المروية من الدعاء عن أهل البيت:، نذكر منها بعض النماذج.

منها الدعاء المعروف:

«يا من يعطى الكثير بالقليل، يا من يعطى من سأله، يا من يعطى من لم‌يسأله، ومن لم‌يعرفه، تحنّناً منه ورحمة، أعطنى بمسألتى إيّاك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة، واصرف عنّى بمسألتى إيّاك جميع شرّ الدنيا وشرّ الآخرة، فإنّه غير منقوص ما أعطيت، وزدنى من فضلك يا كريم».

و فى الدعاء: «أللهم إنّى أسألك مفاتح الخير وخواتمه، وسوابغه وفوائده وبركاته، وما بلغ علمه علمى، وما قصر عن إحصائه حفظى».

و فى الدعاء: «يا من هو فى علوّه قريب، يا من هو فى قربه لطيف، صلّ على محمّد وآل محمّد، أللهم إنّى أسألك لدينى ودنياى وآخرتى من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله».

و فى الدعاء: «وأدخلنى فى كلّ خير أدخلت فيه محمّداً وآل محمّد، وأخرجنى من كلّ شرّ أخرجت منه محمّداً وآل محمّد».

و فى الدعاء: «و اكفنى ما أهمّنى من أمر دنياى وآخرتى».

و فى الدعاء: «أللهم لا تدع لى ذنباً إلّا غفرته، ولا همّاً إلّا فرجته، ولا سقماً إلّا شفيته، ولا عيباً إلّا سترته، ولا رزقاً إلّا بسطته، ولا خوفاً إلّا آمنته، و لاسوءاً إلّا صرفته، ولا حاجةً هى لك رضاً، و لى فيها صلاح إلّا قضيتها يا أرحم الراحمين».

و فى الدعاء: «يا من بيده مقادير الدنيا والآخرة، وبيده مقادير النصر والخذلان، وبيده مقادير الغنى والفقر، وبيده مقادير الخير والشرّ، صلّ على محمّد وآل محمّد،

ص: ۱۴۳

وبـارك لی فی دینی الـذی هو ملاـك أمری، ودنیـای التی فیهـا معیشتی، وآخرتی التی إلیهـا منقلبی، وبارك لی فی جمیع أموری ... أعوذ بك من شرّ المحیا والممات، وأعوذ بك من مکاره الدنیا والآخرة».

و فی الدعاء: «أسألك بنور وجهك الذی أشـرقت به السـماوات، وانکشـفت به الظلمات، وصلح علیه أمر الأولین والآخرین، أن تصلی علی محمّد وآل محمّد، وأن تصلح لی شأنی کله، ولاتکلنی إلی نفسی طرفة عین أبداً».

و فی دعـاء الأسـحار للإمـام زین العابـدین (ع): «اکفنی المهم کلّه، واقض لی بالحسـنی، وبـارك فی جمیـع أموری، واقض لی جمیع حوائجی، أللهم یسّـر لی ما أخاف تعسیره، فإن تیسیر ما أخاف تعسیره علیك یسیر، وسهّل لی ما أخاف حزونته، ونفّس عنی ما أخاف ضیقه، وکفّ عنی ما أخاف غمّه، واصرف عنی ما أخاف بلیته».

و فی دعاء الأسحار أیضاً: «وهب لی رحمة واسعة جامعة أطلب بها خیر الدنیا والآخرة».

قـد یکون من المعیب أن یطلب بعضـنا من بعض حاجـاته الطفیفـة والصـغیرة، ولکن عنـدما یکون وجه العبـد إلی الله تعالی فی الطلب والسؤال یختلف الأمر، فلایکون الطلب معیباً، مهما صغرت الحاجة، وخفّت.

فإنّ العبد مکشوف لربّه سـبحانه وتعالی بکل حاجاته، ونقصه، وضـعفه، وبکل سوآته وعوراته، ولا یخفی علیه سـبحانه شیء من فقرنا ونقصنا حتی نخجل أن نعرض علیه سبحانه ضعفنا، وعجزنا، وحاجاتنا التی نخجل أن نعرضها علی غیره سبحانه.

فلاینبغی أن تحجب جلائل الحاجات والطلبات عنه سبحانه صغار الحاجات

ص: ۱۴۴

وخفافها.

والله تعالى يحبّ أن يرتبط به عبده فى كلّ حاجاته وشؤونه، صغارها وكبارها، حتى يكون ارتباطه به ارتباطاً دائماً، ولن يدوم هذا الارتباط، ويستمر ويتصل بين العبد وربّه، إلاـ إذا كان العبد يشعر بالحاجة إلى ربّه، فى كلّ شؤونه وحاجاته فى جلائل الحاجات وصغارها، حتى فى مثل شسع نعله إذا انقطع.

عن رسول الله (ص): قال: «سلوا الله عزّوجلّ ما بدا لكم من حوائجكم، حتى شسع النعل، فإنّه إن لم‌ييسره لم‌يتيسر».

والتعبير دقيق: «فإنّه إن لم‌ييسره لم‌يتيسر»، فإنّ التيسير كله بيد الله، ما جلّ وكبر منه، وماصغر ... وما من شىء يخرج عن سلطان الله، وما من عمل، مهما كان صغيراً، لايستغنى فيه العبد عن تيسير الله، فإنّه إن لم‌ييسره الله لم‌يتيسر، حتى لو كان مثل شسع النعل، أو ما هو أصغر من ذلك، و دونه.

و عنه (ص) قال: «ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلّها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»(۱) .

و عنه (ص): «لاتعجزوا عن الدعاء، فإنّه لم يهلك أحد مع الدعاء، وليسأل أحدكم ربّه حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع، واسألوا الله من فضله، فإنّه يجب أن يسأل»(۲) .

و عن سيف التّمار قال: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: «عليكم بالدعاء؛ فإنّكم لاتتقربون بمثله، ولاتتركوا صغيرة لصغرها أن تسألوها، فإنّ صاحب الصغائر هو صاحب الكبائر» (۳).

۱- مكارم الأخلاق: ۳۱۲، بحارالأنوار ۲۹۵: ۹۳

۲- بحارالأنوار ۳۰۰: ۹۳

۳- المصدر السابق ۲۹۳: ۹۳؛ المجالس: ۱۹، وسائل الشيعة ۱۰۹۰: ۴، ح ۸۶۳۵، أصول الكافى: ۵۱۶

ص: ۱۴۵

و فى الحديث القدسى: «يا موسى، سلنى كلّ ما تحتاج إليه، حتّى علف شاتك وملح عجينك»(۱) .

و لسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ هذا المبدأ فى الدعاء لايعنى التخلى عن العمل والحركة والسعى، ولكن على الإنسان فى حركته وسعيه أن لايضع أولًا ثقته ورجاءه فى عمله وحركته، بل يجعل رجائه وثقته فى الله تعالى، ولايقطع علاقته وارتباطه و دعائه لله تعالى فى زحمة تحركه وعمله وسعيه.

و هذا وذاك يتطلبان من الإنسان، أن يسأل الله تعالى كل حاجاته وشؤونه، حتى شسع نعله، وعلف دابته، وملح عجينه، كما ورد فى الحديث القدسى.

كما نسأل الله تعالى كل شىء، نسأله النعم الجليلة والكبرى، ولانستكثر نعمةً مهما جلّت وعظمت أن نسألها من الله، إن كان ذلك فى الإمكان، فلا يعظم شىء على الله، ولا يُعْجِزُ الله تعالى شىء، ولا ينقص من خزانته، مهما كان عطاؤه جليلًا وعظيماً.

و كما ينبغى أن لانخجل من الله تعالى أن نطلب منه صغائر الأمور، من نحو علف الدابة، وشسع النعل، وملح العجين، كذلك ينبغى أن لانستكثر على الله تعالى أن نسأله النعم العظيمة الجليلة، مهما عظمت وجلّت.

روى عن ربيعة بن كعب قال: قال لى ذات يوم رسول الله (ص): «ياربيعة، خدمتنى سبع سنين، أفلاتسألنى حاجة؟ فقلت: يا رسول الله، أمهلنى حتى أفكّر، فلمّا أصبحت ودخلت عليه قال لى: يا ربيعة، هات حاجتك، فقلت: تسأل الله أن يدخلنى معك الجنة، فقال لى: من علّمك هذا؟ فقلت: يا رسول‌الله، ما علّمنى أحد،

۱- عدة الداعى: ۹۸

ص: ۱۴۶

لكنى فكّرت فى نفسى وقلت: إن سألته مالًا كان إلى نفاد، وإن سألته عمراً طويلًا وأولاداً، كان عاقبتهم الموت، قال ربيعة: فنكس رأسه ساعة، ثمّ قال (ص): أفْعَلُ ذلك، فأعنّى بكثرة السجود؛ قال: وسمعته يقول (ص): ستكون بعدى فتنة، فإذا كان ذلك، فالتزموا علىّ بن أبى‌طالب (ع)» (۱). الخبر بتمامه (۲).

و ممّا ينبغى من الدعاء يوم عرفة الدعاء للمؤمنين؛ وقد ورد فى ذلك تأكيد كثير فى النصوص الإسلامية، وأنّ الله تعالى يرزق العبد بالدعاء للمؤمنين ضعف الدعاء لنفسه، أو أضعافه، حسب اختلاف الروايات.

و إنّ الدعاء للمؤمنين دعاء مضمون الإجابة لهم وضعفه أو أضعافه له (للداعى) بخلاف دعاء الإنسان لنفسه، فقد لايعلم الإنسان أحياناً أن دعاءه لنفسه هل يبلغ مبلغ الإجابة أم لا؟

و الدعاء للمؤمنين على نحوين:

۱. التعميم فى الدعاء للمؤمنين

۲. التخصيص فى الدعاء للمؤمنين

التعميم فى الدعاء للمؤمنين

و هو مما علّمنا الله تعالى فى كتابه فى آيات كثيرة، كما ورد هذا النوع من الدعاء، فيما بلغنا من أدعية أهل البيت:، وفى هذا النحو من الدعاء يخرج الإنسان فى دعائه بين يدى الله من نطاق الذات الضيقة، إلى رحاب الأمّة الواسع ... وهذه نقلة كبيرة من الأنا والذات، إلى رحاب الأمّة التى اختارها الله

۱- بحارالأنوار ۳۲۷: ۹۳

۲- الدعاء: ۱۵۱- ۱۵۵ محمدمهدى الآصفى، الطبعة الأولى.

ص: ۱۴۷

لحمل رسالته، وجعلها أمة وسطى شاهدة على الناس.

و من نماذج ذلك فى كتاب الله:

(إِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولَا الضَّالِّينَ) (۱).

(ربَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (۲).

(ربَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنا عَذابَ النَّارِ) (۳).

(ربَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وثَبِّتْ أَقْدامَنا وانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ) (۴).

(ربَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا ربَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنا وارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ)(۵) .

(ربَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (۶).

(رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرارِ ربَّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ ولا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ) (۷).

(رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ)(۸) .

۱- الفاتحة: ۶- ۷

۲- البقرة: ۱۲۷

۳- البقرة: ۲۰۱

۴- البقرة: ۲۵۰

۵- البقرة: ۲۸۶

۶- آل عمران: ۸

۷- آل عمران: ۱۹۳- ۱۹۴

۸- الأعراف: ۱۲۵

ص: ۱۴۸

التخصیص فی الدعاء للمؤمنین

و هو نوع آخر من الدعاء للمؤمنین.

فی هذه الأدعیة یعمد الداعی إلی ذکر المؤمنین الذین یعرفهم بأسمائهم ویخصّهم واحداً بعد آخر بالذکر، ویستغفر الله تعالی لهم، ویدعو لهم فی حاجاتهم بین یدی الله، والله تعالی یحب أن یسمع دعاء عباده، بعضهم لبعض بالتخصیص والإسم ... وإنَّ هذا اللون من الدعاء یزیل ما فی نفوس المؤمنین من الکدر أحیاناً، ویطهّر قلوبهم تجاه بعض عن الکره، والحسد، وما یکدر صفو النفوس مما لاینبغی أن یحمله مؤمن لمؤمن فی نفسه.

عن أبی‌عبدالله (الصادق) (ع): «دعاء المرء لأخیه بظهر الغیب، یدرّ الرزق، ویدفع المکروه»(۱) .

و عن أبی‌جعفر الباقر (ع): «أوشک دعوة، وأسرع إجابة، دعاء المرء لأخیه بظهر الغیب»(۲) .

و عن أبی خالد القماط، قال: قال أبوجعفر (الباقر) (ع): «أسرع الدعاء نجحاً، دعاء الأخ لأخیه بظهر الغیب، یبدأ بالدعاء، فیقول له ملک موکّل به: آمین ولک مثلاه»(۳) .

روی محمد بن یعقوب عن علی بن إبراهیم عن أبیه، قال: رأیت عبدالله بن جندب بالموقف، فلم أر موقفاً أحسن من موقفه، ما زال مادّاً یده إلی السماء، ودموعه تسیل علی خدّیه، حتّی تبلغ الأرض، فلمّا انصرف الناس قلت: یا أبامحمد، ما رأیت موقفاً قطّ أحسن من موقفک. قال: والله ما دعوت إلّا لإخوانی،

۱- أصول الکافی ۴۳۵؛ ووسائل الشعیة ۱۱۴۵: ۴، ح ۸۸۶۷

۲- المصدر السابق: ۴۳۵

۳- المصدر السابق.

ص: ۱۴۹

وذلک لأنّ أبالحسن موسی بن جعفر (ع) أخبرنی أنه: «من دعا لأخیه بظهر الغیب، نودی من العرش: ولک مأة ألف ضعف مثله»؛ فکرهت أن أدع مأة ألف ضعف مضمونة لواحدة، لا أدری تستجاب أم لا؟

(۱) و روی ثقة الإسلام الکلینی أیضاً بسنده عن ابن أبی عمیر، قال: کان عیسی بن أعین، إذا حج فصار إلی الموقف أقبل علی الدعاء لإخوانه، حتی یفیض الناس. قال: فقلت له: تنفق مالک وتتعب بدنک، حتّی إذا صرت إلی الموضع الذی تبثّ فیه الحوائج إلی الله عزّوجلّ، أقبلت علی الدعاء لإخوانک، وترکت نفسک، فقال: إنی علی ثقة من دعاء الملک لی، وفی شک من الدعاء لنفسی(۲) .

عن إبراهیم بن أبی البلاد (أو عبدالله بن جندب) قال: کنت فی الموقف فلمّا أفضت، لقیت إبراهیم بن شعیب، فسلمت علیه، وکان مصاباً بإحدی عینیه، وإذا عینه الصحیحة حمراء، کأنه علقة (علقة دم)، فقلت له: قد أصبت بإحدی عینیک، وأنا والله مشفق علی الأخری، فلو قصرت عن البکاء قلیلًا، قال: لا- والله یا أبامحمد، ما دعوت لنفسی الیوم بدعوة، فقلت: فلمن دعوت؟ قال: دعوت لإخوانی، فإنی سمعت أباعبدالله (ع) یقول: «من دعا لأخیه بظهر الغیب، وکّل الله به ملکاً یقول: ولک مثلاه؛ فأردت أن أکون أنا أدعو لإخوانی، ویکون الملک یدعو لی، لأنی فی شک من دعائی لنفسی، ولست فی شک من دعاء الملک لی (۳).

عرفة منزل المغفرة

عرفة منزل مغفرة، ومن أعظم منازل المغفرة علی وجه الأرض، وما من مسلم یقف الموقف یوم عرفة من زوال الشمس إلی الغروب، إلّا ویغفر الله تعالی له ما

۱- وسائل الشیعة ۱۳: ۵۴۴، ح ۱۸۴۰۲؛ ورواه الصدوق مرسلًا فی الفقیه ۲: ۱۳۷/ ۵۸۹

۲- الکافی ۴۶۵: ۴/ ۸؛ التهذیب ۱۸۵: ۵- ۶۱۶؛ وسائل الشیعة ۱۳: ۵۴۴، ح ۱۸۴۰۳

۳- وسائل الشیعة ۱۳: ۵۴۵، ح ۱۸۴۰۴

ص: ۱۵۰

تقدّم من ذنبه.

روى ابن أبى عمير عن عمر بن يزيد، قال: سمعت أباعبدالله (الصادق) (ع)، يقول: «الحاج إذا دخل مكة، وكّل الله به ملكين، يحفظان عليه طوافه، وصلاته، وسعيه، فإذا وقف بعرفة، ضربا على منكبه الأيمن، ثمّ قالا له: أمّا ما مضى فقد كفيته، فانظر كيف تكون فيما تستقبل» (۱).

و عن معاوية بن عمّار عن أبى عبدالله الصادق (ع)، قال: «قال على بن الحسين ۸: أما علمت إذا كان عشية عرفة يقول (الله): أنظروا إلى عبادى أتونى شعثاً غبراً ... قد شفعت محسنهم فى مسيئهم، وقد تقبّلت من محسنهم، فأفيضوا مغفوراً لكم، ثمّ يأمر ملكين، فيقومان بالمأزمين فيقولان: أللهم سلّم سلّم»(۲) .

و روى ابن فهد الحلّى فى عدة الداعى: إنّ من الذنوب ما لايغفر إلّا بعرفة والمشعر الحرام (۳).

عن جابر بن عبدالله: ما من مسلم يقف عشيّة عرفة بالموقف، فيستقبل القبلة بوجهه، ثمّ يقول: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ... ثمّ يقرأ: (قل هو الله أحد) مأة مرّة، ثم يقول: أللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ... ألا قال الله تبارك وتعالى: «يا ملائكتى ما جزاء عبدى هذا؟! سبّحنى، وهلّلنى، وكبرنى، وعظمنى، وعرفنى وأثنى علىّ، وصلّى على نبيّ ... أشهدوا ملائكتى، إنى قد غفرت له، وشفعته فى نفسى، ولو سألنى عبدى هذا، لشفعته فى أهل الموقف كلهم» (۴).

عن على (ع) أنه قال بعرفات: «لا أدع هذا الموقف ما وجدت إليه سبيلًا، لأنه ليس فى الأرض يوم فيه عتقاء من النّار، وليس يوم أكثر عتقاً للرقاب فيه من يوم

۱- بحارالأنوار ۹۹: ۲۵۴؛ ثواب الأعمال للصدوق: ۱۲۸

۲- بحارالأنوار ۲۵۴: ۹۹؛ المحاسن: ۶۵

۳- عدة الداعى: ۳۵؛ بحارالأنوار ۲۶۱: ۹۹

۴- فضائل الأوقات، للبيهقى ۱: ۲۲۱

ص: ۱۵۱

عرفة، فأكثروا فی ذلك اليوم أن تقولوا: أللهم أعتق رقبتی من النار، وأوسع لی فی الرزق الحلال ...» (۱).

عن ابن أبی‌عمير عن معاوية بن عمّار عن أبی عبدالله (ع) فی حديث: «إنّ النّبی (ص) قال للأنصاری قبل أن يسأله: جئت تسألنی عن الحج وعن الطواف بالبيت ... ويوم عرفة؟ فقال الرجل: إی والذی بعثك بالحق (فقال (ص))، فيما قال له: ... ويوم عرفة يباهی الله عزّوجلّ به الملائكة، فلو حضرت ذلك برمل عالج ذنوباً، فإنه تبتّ ذلك اليوم ...».(۲) عن عبدالله عن سنان عن أبی عبدالله (ع) قال: «يوكّل الله عزّوجلّ ملكين بمأزمی عرفة، فيقولان: سلّم سلّم».(۳) و عن علی بن مزيد قال: سمعت أباعبدالله (ع) يقول: «ما أحد ينقلب من الموقف ... إلّا برحمة ومغفرة، ويقال له: قد غفر لك، وطهرت من الدنس، فاستقبل العمل»(۴) .

و عن عبدالله عن سنان، قال: سمعت أباعبدالله (الصادق) (ع) يقول: «إنّ الله ينظر إلی أهل عرفة من أول الزوال، حتّی إذا كان عند المغرب، ونفر الناس، وكّل الله ملكين بحيال المأزمين، يناديان عند المضيق الذی رأيت: يا ربّ سلّم سلّم»(۵) .

و عن إدريس بن يوسف عن أبی عبدالله (الصادق) (ع) قال: «قلت: أیّ أهل عرفة أعظم جرماً؟ قال (ع): المنصرف من عرفة، وهو يظنّ أن الله لم‌يغفر له» (۶).

و عن أبی عبدالله (ع)، قال: سأله رجل فی المسجد الحرام من أعظم وزراً؟

۱- جامع الأحاديث، للسيوطی، مسند علی بن أبی‌طالب ۳۰: ۷۴، ح ۳۲۸۳۹

۲- وسائل الشيعة ۲۲۵: ۱۱، ح ۱۴۶۵۹ آل البيت، فإنّه تبتّ يعنی تنقطع.

۳- المصدر السابق، ح ۱۸۴۵۲

۴- بحارالأنوار ۲۶۱: ۹۹

۵- المصدر السابق ۲۶۱: ۹۹، كتاب زيد النرسی: ۵۴ بتصرف.

۶- المصدر السابق ۲۶۳: ۹۹- ۲۶۵

ص: ۱۵۲

فقال (ع): «من وقف بهذين الموقفين، عرفة والمزدلفة، وسعى بين هذين الجبلين، ثم طاف بهذا البيت، وصلّى خلف مقام إبراهيم (ع)، ثمّ قال فى نفسه وظنّ أنّ الله لم يغفر له، فهو من أعظم وزراً»(۱) .

عرفة قريبة من الله

فى عرفة يشعر الإنسان أنه قريب من الله، يدعو الله تعالى فيستجيب له ... فإنّ استجابة الدعاء من أقوى أمارات قرب العبد إلى الله ...

(وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی ولْیُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ)(۲) .

هكذا: (قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ).

إنّ الإجابة عند الدعاء أمارة قرب العبد إلى الله ... وهذه الأمارة الأولى، والأمارة الثانية لقرب العبد إلى الله فى عرفة: إنّ الله تعالى يغفر لأهل عرفة ذنوبهم إذا تابوا، ويتقبل منهم التوبة إذا استغفروا ... والاستغفار والتوبة أمارة ثانية لقرب العبد من الله.

(فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ)(۳) .

وهاتان إمارتان لقرب العبد من الله تعالى فى عرفة.

و فى عرفة تصبّ رحمة الله على أهل عرفة من غير حساب، ونزول الرحمة إمارة القرب:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِیبٌ مِنَ الْمُحْسِنِینَ) (۴).

۱- وسائل الشيعة ۹۶: ۱۱، ح ۱۴۳۳۳

۲- البقرة: ۱۸۶

۳- هود: ۶۱

۴- الأعراف: ۵۶

ص: ۱۵۳

إذن، عرفة قريبة من الله، وأهل عرفة قريبون من الله، يدعون الله فيستجيب لهم، ويستغفرون فيغفر لهم، ويتوبون إليه فيتقبل توبتهم.

وكأنَّ الحجب التى تحجب العبد عن الله، تتساقط فى عرفة حجاباً بعد حجاب، فلا يكون بين العبد وبين ربّه حجاب فى عرفة، فيدعوه العبد فيستجيب له الله تعالى، ويتوب إليه و يتقبّل توبته.

و ما أروع السجود، وإطالة السجود على رمال عرفة، وما أروع البكاء، وإطالة البكاء بين يدى الله تعالى فى السجود فى عرفة.

فإنّ العبد لن يكون أقرب إلى الله فى حال من السجود والبكاء والنحيب بين يدى الله، فإنّ هذا يضاعف هذا القرب.

... فإذا كان السجود، والبكاء والنحيب والاستغفار بين يدى الله فى السجود، فى عرفة حيث يكون العبد قريباً من الله تعالى ... فلن يكون للعبد حال أقرب إلى الله منه فى هذا الحال.

فليغتنم لحظات هذه الساعات المحدودة، وآناتها فى الدعاء، والسجود، والبكاء، والتضرع، والخشوع، والتذلل بين يدى الله، ورفع اليدين إلى الله على هيئة السائل الذليل، فإنّ هذه الساعات والآنات واللحظات من أفضل ساعات عمر الإنسان ولحظاته، ولن يكون فى حال أقرب منه إلى الله تعالى، ولا نستثنى من ذلك حالًا إلّا الذين يتعرفون فى الحائر الحسينى فى هذا اليوم.

كيف تستقبل عرفةُ ضيوف الرحمان وكيف تودعهم؟

تستقبل عرفةُ الناس و هم يحملون ركاماً من الذنوب والآثام، فإذا أفاضوا من عرفة إلى المشعر الحرام بعد غياب الشمس، تركوا هذا الركام من الذنوب فى عرفة، وأفاضوا خفافاً إلى المشعر الحرام.

ص: ۱۵۴

و سبحان الله! ... إنّ الإنسان ليشعر بالثقل حين يقدم إلى عرفة، والخفة حين يغادر عرفة إلى المشعر الحرام، وكأنه ترك فى وادى عرفة عبئاً كان يثقل ظهره من قبل، تركه فى عرفة، وتخفف عنه، وها هو الآن، وهو يفيض إلى المشعر الحرام، يشعر بهذه الخفّة، وهو مُجْهَدٌ أشد الجُهْد، ومُتْعَبٌ أكثر التعب، لا شك فى ذلك، ومع ذلك يشعر أنه قد تخفّف. عند الإفاضة كثيراً ... وليس هذا العبئ من نوع الثقل المادى الذى نقيسه بمعاييرنا فى الأوزان، ولكنّه على كلّ حال أمر محسوس لكلّ من يفيض من عرفة إلى المشعر الحرام، وإنّ بين إحساس الأجسام ومعاناة النفوس والأرواح علاقة حميمة، كما أنّ بين النفوس والأجسام علاقة ينعكس كلّ منهما على الآخر.

و عندما يفيض الناس من عرفة يتركون وراءهم ركامين، كأنهما التلال الكبيرة: ركام من القمامة، والفضلات، والأوساخ، وركام من الذنوب، والمعاصى، والآثام.

يشتغل عمّال الموقف بتنظيف الركام الأول، ويشتغل الملائكة بتنظيف عرفة من الركام الثانى، حتّى تستقبل عرفة ضيوف الرحمان من الحجيج للعام القابل، فيمرون من خلال مصفاة عرفة.

و هكذا تتجدد هذه العملية فى كل عام، تستقبل عرفة ضيوف الرحمان، شعثاً غبراً، قد أضرهم الجهد والتعب، وأرهقتهم المناسك، ولكنّهم يخرجون من مصفاة عرفة، كيوم ولدتهم أمّهاتهم، مطهّرين منزهين، ليبدأوا حياتهم من جديد.

و الحمد لله على عفوه بعد قدرته، والحمد لله على طول أناته فى غضبه، والحمد لله الذى لا يهتك حجابه، ولا يغلق بابه، ولا يردّ سائله، ولا يخيب آمله.

و الحمد لله الذى تحبّب إلىّ، وهو غنى عنّى، والحمد لله الذى يحلم عنّى حتّى كأنى لا ذنب لى، فربى أحمد شىء عندى، وأحق بحمدى.

***

ص: ۱۵۵

كيف نحافظ على مكاسب الحج؟

اشارة

ص:۱۵۶

ص: ۱۵۷

هذا سؤال هام يتساءله الحجاج بعد أداء مناسك الحج.

وفيما يلى الإجابة على هذا السؤال، إن شاءالله.

ضيافتان من الله تعالى لعباده

لله تعالى ضيافتان لعباده فى دورة السنة

الضيافة الأولى فى شهر رمضان

والضيافة الثانية فى شهر ذى الحجة

الضيافة الأولى بالصيام

و الضيافة الثانية بالحج

و ناهيك بهما ضيافتان كريمتان من رب العالمين لعباده

و قد ورد التصريح بهاتين الضيافتين فى المصادر الإسلامية بصيغ مختلفة.

أمّا عن ضيافة شهر رمضان، فقد روى الصدوق بسند معتبر عن الرضا (ع) عن آبائه عن أميرالمؤمنين (ع) أنّ رسول الله (ص) خطبنا ذات يوم (و فى بعض الروايات فى آخر جمعة من شهر شعبان)، فقال: «أيها الناس قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالى، وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله».

ص: ۱۵۸

و أمّا عن ضيافة الحج، فقد وردت طائفتان من الأحاديث تصرّح أولاهما بأنّ الحجاج (وفد) الله تعالى، وقد وفدوا إلى الله؛ وتصرح ثانيتهما أنّ الحجاج ضيوف الرحمان.

أمّا عن الطائفة الأولى، فقد روى عن رسول الله (ص): «وفد الله ثلاثةٌ: الغازى، والمعتمر، والحاج».(۱) و عن أميرالمؤمنين (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، وحق على الله أن يكرم وفده، ويحبوه بالمغفره ...». (۲) و عن الإمام الحسن (ع): «ثلاثة فى جوار الله تعالى ... رجل خرج حاجاً أو معتمراً، لايخرج الّا لله تعالى، فهو من وفد الله تعالى حتى يرجع إلى أهله». (۳) و عن الإمام زين العابدين على بن الحسين (ع) فى رسالة الحقوق: «و حقّ الحج أن تعلم أنّه وفادة إلى ربّك، وفرار إليه من ذنوبك، وفيه قبول توبتك، وقضاء الفرض الذى أوجبه الله عليك». (۴) و عن الصادق (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم وإن شفعوا شفعهم، وإن سكتوا ابتدأهم ...». (۵) و أمّا عن الطائفة الثانية (ضيافة الله)، فقد روى: «ممّا أوحى الله عزّوجلّ أنا الله ذو بكة، أهله جيرتى، وزوارها وفدى وأضيافى، أعمره بأهل السماء وأهل الأرض، يأتونه أفواجاً شعثاً غبراً، يعجون بالتكبير والتلبية، فمن اعتمره لايريد غيره فقد زارنى، وهو وفد لى، ونزل بى، وحق لى أن أتحفه بكراماتى. (۶)

۱- ۱ مستدرک الوسائل ۴۱: ۸، ح ۲۵؛ سنن النسائى ۱۱۳: ۵

۲- تحف العقول: ۱۲۳؛ الحج والعمرة فى الكتاب والسنة: ۱۵۹- ۱۶۰

۳- المصدر السابق.

۴- ۴ المصدر السابق؛ الفقيه ۶۲۰: ۲

۵- المصدر السابق؛ الكافى ۲۵۵: ۴ ح ۱۴

۶- المصدر السابق؛ الخرائج والجرائح ۸۰: ۱

ص: ۱۵۹

و عن خالد بن ربعى: أنّ أميرالمؤمنين (ع) دخل مكة فى بعض حوائجه فوجد أعرابياً متعلّقاً بأستار الكعبة، وهو يقول: يا صاحب البيت، البيت بيتك، والضيف ضيفك، ولكل ضيف من ضيفه قرى، فاجعل قراى منك الليلة المغفرة؛ فقال أميرالمؤمنين (ع) لأصحابه: «أما تسمعون كلام الأعرابى؟ قالوا: نعم. قال: الله أكرم من أن يرد ضيفه». (۱) و عن الإمام الصادق (ع): «إنّ ضيف الله عزّ وجلّ رجل حج واعتمر، فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله».(۲) و فى الدعاء بعرفة: (أنا ضيفك فاجعل قراى الجنة).

تخصيص شهر رمضان وذى‌الحجة بالضيافة الإلهية

و عباد الله على مائدة رحمة الله فى كلّ وقت من فصول السنة وشهورها وأيامها، ولايَشُذّ أحد من الحضور على مائدة رحمة الله من صالحين وفاسقين ومسلمين وملحدين.

(كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً). (۳) ولكنّ للضيافة الإلهية فى هذين الشهرين، شهر رمضان، وشهر ذى الحجة، لحجاج بيت الله خصوصية و ميزة لاتوجد فى غيرهما من حيث العطاء والتكريم الإلهى.

إنّ الضيافة فى هذين الشهرين ليست من قبيل ضيافة الأجسام، وإنما هو من ضيافة القلوب، والمائدة الإلهية المعدّة لضيوف الرحمان فى هذين الشهرين مائدة رحمة وشفاء، وغذاء للقلوب ... وأعظم الموائد الإلهية فى حياة الإنسان بعد نعمة الوجود موائد العقول، وموائد القلوب.

۱- المصدر السابق؛ أمالى الصدوق: ۵۳۳ ح ۱۱

۲- المصدر السابق؛ الخصال: ۱۲۷

۳- الإسراء: ۳۰

ص: ۱۶۰

و مصائب الإنسان فی نضوب القلوب والأرواح والنفوس أعظم من معاناته فی فقر غذاء الأجسام، ونتیجة سوء التوزیع لموارد الأرض علی عباد الله.

و کلّ منها معاناة وعذاب للإنسان، مهما کان الفقر والعجز، سواء کان فی غذاء الأجسام، أم العقول، أم القلوب.

و لکن مصیبة الإنسان العظمی هو فی نضوب الروافد التی تروی القلوب وتحییها وتنعشها أعظم من مصیبته فی العجز الاقتصادی والعلمی، وإن کان کلّ من ذلک مصیبة فی حیاة الإنسان.

و هذه المائدة التی أعدّها الرحمان تعالی لعباده فی شهر رمضان وذی‌الحجة من نوع موائد القلوب، تحفل بما یحُی القلوب، ویفعّلها، وینشّطها ویهبها البصیرة، والنور، والهدایة، والیقین بالله، والاقبال علی الله بالذکر والدعاء، والشوق إلی الله، والأنس بذکر الله، وحبّ الله، وحبّ أولیائه، ومقت أعدائه، وأعداء أولیائه، وترقیق القلوب للإنابة، والاخبات والخشوع لله، ومخافة الله، ورجاء الله، والتوبة، والزهد عن الدنیا وحطامها، وقصر الأمل فیها، والاقبال علی الصلاة، والانفاق، وطول السجود، والبکاء بین یدی الله، وما لا أستطیع إحصاءه من مواهب الله لعباده فی هذه الضیافة الربانیة التی یستضیف الله فیها عباده مرتین فی السّنة.

و من عجب أنّ الجوع والعطش والکفّ عن الأهواء والشهوات، والکدح والبذل والجهد والتعبّد فی هاتین الضیافتین هو السبیل إلی استنزال هذه المواهب العظیمة المبارکة من خزائن رحمة الله.

(وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ). (۱) (وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ). (۲)

۱- التغابن: ۷

۲- الحجر: ۲۱

ص: ۱۶۱

ولكلّ امرىء من المسلمين أن يأخذ من هذه الرحمة الهابطة ما يسعه وعاء نفسه و قلبه، فإنّ الرحمة الهابطة فى شهر رمضان و شهر ذى الحجة فى الحج ليس لها حدود ... و كلّ منا يأخذ من هذه الرحمة ما يسعه وعاؤه.

المقارنة بين الضيافتين

و بين هاتين الضيافتين شبه كبير وفروق تظهر بالمقارنة.

فهما معاً دورتان تمكنان الإنسان من ضبط النفس والأهواء والشهوات، وربيعان للذكر والقرآن والدعاء، ومنزلان من منازل رحمة الله فى وعاء الزمان، ولكلّ منهما قمة.

قمّة شهر رمضان، ليلة القدر فى وعاء الزمان، وهو وإن كان مجهولًا، غير أنّ إحرازها ضمن محتملات ليالى القدر ليس بالأمر الصعب.

و قمّة الحج يوم عرفة بعد الزوال، وفى وادى عرفة فى وعاء الزمان والمكان.

و من لم‌يدرك عرفة فى الحج المندوب، وتعرّف فى الحائر الحسينى يدرك ثواب عرفة إن شاء الله، كما ورد ذلك فى نصوص كثيرة.

و من الفروق البارزة بين هاتين الضيافتين، أنّ ضيافة الحج الواجبة مرة واحدة فى العمر، وضيافة الصيام فى شهر رمضان فى كل سنة شهر كامل، ولعلّ السرّ فى ذلك- والله أعلم-: أنّ التعبئة النفسية التى يكتسبها الصائم فى صيام شهر رمضان تكفيه لسنة واحدة، وأما التعبئة النفسية التى يكتسبها الإنسان فى الحج، فإنّها تكفيه لرحلة العمر كلّه، إذا حافظ عليها صاحبها، وحرص عليها.

و فيما يلى أذكر نصين نجدهما فى المصادر الروائية المعتبرة، فى قيمة كلّ من هاتين الضيافتين، من دون تعليق.

ص: ۱۶۲

قيمة الضيافة الرمضانية

قد ذكرنا قبل قليل شطراً من رواية الصدوق (رحمة الله) عن الإمام الرضا (ع) عن آبائه عن أميرالمؤمنين (ع) عن رسول‌الله (ص) فى فضل شهر رمضان وها نحن نذكر شطراً آخر من الرواية؛ والرواية طويلة نذكر منها قدر الحاجة.

«شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب، فاسئلوا الله ربّكم بنيّات صادقة، وقلوب طاهرة، أن يوفقكم لصيامه، وتلاوة كتابه، فإنّ الشقى من حرم من غفران الله فى هذه الشهر العظيم».

قيمة الضيافة الرحمانية فى الحج

قد ورد فى فضل الحج أحاديث كثيرة من رسول‌الله (ص) لايسعنا أن نذكرها جميعاً أو نذكر شطراً مناسباً منها، وإنّما نقتصر على رواية واحدة عن رسول‌الله (ص) أوردها ثقة الإسلام الكلينى فى الكافى، والشيخ الصدوق فى ثواب الأعمال:

عن الصادق (ع): «لما أفاض رسول‌الله (ص) تلقاه أعرابى فى الأبطح، فقال: يا رسول الله! إنّى خرجت أريد الحج- فعاقنى عائق- وأنا رجل كثير المال، فمرنى أصنع فى مالى ما أبلغ ما بلغ الحاج.

فالتفت رسول‌الله (ص) إلى أبى‌قبيس، فقال: لو أنّ أباقبيس لك زنته ذهبة حمراء، أنفقته فى سبيل الله ما بلغت ما بلغ الحاج». (۱)و الحج الذى فات هذا الرجل حج مندوب بالتأكيد، لأنّ الفريضة الواجبة لايمكن تعويضها بالانفاق ... ولا شك أنّ الحج الواجب أعظم منزلة وقيمة، ومع

۱- ۱ الكافى ۲۵۸: ۴؛ ثواب الأعمال: ۴۸

ص: ۱۶۳

ذلك يقول له رسول الله (ص): «لو أنفقت أباقبيس ذهباً ...» وناهيك بذلك فى قيمة الحج وفضله.

المكاسب الخمسة فى الحج

إنّ أعظم ما يكسبه الحاج فى الحج (التقوى) و (الكدح) و (البذل) و (الذكر) و (الحضور فى منازل رحمة الله الزمانية والمكانية) وهى الأجنحة الخمسة التى يعرج بها العبد من الأنا والهوى إلى الله، وهو المعراج الأعظم فى حياة الإنسان فى الدنيا.

ففى إحرام العمرة والحج يكفّ المعتمر والحاج نفسه من طائفة من محرمات الإحرام طيلة فترة الإحرام، فى إحرام العمرة والحج ... ومن أهمّها محرمات الغريزة الجنسية (التى تعود إلى عامل الهوى) ومحرمات الزى والجدال (التى تعود إلى عامل الأنا)، والمحرمات الأخرى التى تمكّن الإنسان من التقشف، ومكافحة عامل حبّ الراحة والعافية.

و هذه هى القيمة الأولى للحج، وهى (التقوى) و (كفّ النفس).

و القيمة الثانية للحج (الكدح)، ولا شك أنّ (الكدح) إذا كان لله وفى سبيل الله، يحمل قيمة كبيرة.

و فى العمرة والحج كدح شديد وكثير، من الطواف والسعى والوقوفين والإفاضة والرمى وغيرها.

و لا ـ شك أنّ التشريع الإسلامى أخذ حالة (الكدح) بنظر الاعتبار فى العمرة وبصورة خاصة فى الحج، ولا ـ نعرف فى الشريعات الإسلامية عبادة تتطلب كدحاً أكثر من الحج، إلّا (الجهاد).

و هذه هى القيمة الثانية للحج.

و القيمة الثالثة للحج (البذل)، ففى الحج بذل عظيم للأموال، كما فيه كدح كثير للأجسام.

ص: ۱۶۴

فإنّ نفقات الحج نفقات عالية تتطلب الاستطاعة المالية ... ولا نشك أنّ البذل والانفاق قد أخذ أيضاً بنظر الاعتبار فى تشريع الحج، كما لوحظ عنصر (الكدح والارهاق).

و القيمة الرابعة للحج: (الذكر)، فإنّ الحج يتضمّن ذكراً كثيراً لله، يرافق أعمال الحج، من التلبية إلى الإفاضة إلى البيت الحرام، ومنه إلى عرفة والمزدلفة.

(وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِی أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ) (۱).

(فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)(۲) .

كما أنّ عامة أعمال الحج، والالتزام بمحرمات الإحرام من الذكر العام، والذكر العام هو المقسم العام للذكر، ومنه يتفرع الذكر الخاص وهو الذكر باللسان.

روى الصدوق فى معانى الأخبار عن حسين البزاز، قال: قال أبوعبدالله (ع): «ألا أحدثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى. قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله فى كلّ موطن؛ أما إنّى لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله فى كل موطن إذا هجمت على طاعة أو معصية».(۳) و هذا هو قوله تعالى: (الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ).(۴) و هذا هو الذكر العام، وهو أن يتذكر العبد ربه عندما يقدم على طاعة، أو يقدم على معصية، فيتذكر الله تعالى فيكفّ عن ذلك.

۱- البقرة: ۲۰۳

۲- البقرة: ۲۰۰

۳- معانى الأخبار: ۱۹۲، وسائل الشيعة ۲۵۵: ۱۵

۴- الأعراف: ۲۰۱

ص: ۱۶۵

و فى المحاسن عن الصادق (ع) فى الحديث القدسى: «قال الله تعالى: يابن آدم أذكرنى فى نفسك، أذكرك فى نفسى، ابن آدم أذكرنى فى خلاء، أذكرك فى خلاء، أذكرنى فى ملاء أذكرك فى ملاء خير من ملاءك». و أعمال الحج ومحرماته يتضمّن الذكر العام بهذا المعنى ... وما من عمل يؤديه الحاج، أو محرّم يكفّ عنه الحاج، إلّا وهو يتضمّن ذكر الله.

و هذا الذكر فى مقابل الغفلة عن ذكر الله، وغياب النفس عنه، وكلّما تتطلب الطاعة كدحاً أكثر، وكلّما يتطلب الكفّ عن المحرمات جهداً نفسياً أكثر، يتضمن الطاعة والكفّ ذكراً أكثر وأعظم لله تعالى، وهذا هو القيمة الرابعة للحج.

منازل الرحمة الزمانية والمكانية فى الحج

و فى المحاسن عن الصادق (ع) فى الحديث القدسى: «قال الله تعالى: يابن آدم أذكرنى فى نفسك، أذكرك فى نفسى، ابن آدم أذكرنى فى خلاء، أذكرك فى خلاء، أذكرنى فى ملاء أذكرك فى ملاء خير من ملاءك». (۱) و أعمال الحج ومحرماته يتضمّن الذكر العام بهذا المعنى ... وما من عمل يؤديه الحاج، أو محرّم يكفّ عنه الحاج، إلّا وهو يتضمّن ذكر الله.

و هذا الذكر فى مقابل الغفلة عن ذكر الله، وغياب النفس عنه، وكلّما تتطلب الطاعة كدحاً أكثر، وكلّما يتطلب الكفّ عن المحرمات جهداً نفسياً أكثر، يتضمن الطاعة والكفّ ذكراً أكثر وأعظم لله تعالى، وهذا هو القيمة الرابعة للحج.

منازل الرحمة الزمانية والمكانية فى الحج

و القيمة الخامسة للحج، حضور العبد فى منازل رحمة الله الزمانية والمكانية فى الحج، وهو أعظم هذه القيم جميعاً ... وهى كثيرة.

منها: مواقيت الإحرام والتلبية، ومنها: البيت الحرام، والطواف، والسعى، والوقوفين، ومنى، والرمى، والنحر ... وأعظمها الوقوف بوادى عرفة، بعد الزوال من يوم التاسع من ذى الحجة، فى أعظم جمهور لضيوف الرحمان على وجه الأرض كلها، فى دورة السنة.

و هذا إجمال لابدّ له من تفصيل وتوضيح، فأقول: إنّ المنازل الزمانية والمكانية لشعائر الحج، من منازل الرحمة ... وهذان منزلان للرحمة.

المنازل الزمانية مثل يوم عرفة، وليالى التشريق، وعيد الأضحى.

و المنازل المكانية مثل المواقيت، والبيت الحرام، والحطيم، والمسعى، وصفا ومروة، وعرفة، والمزدلفة، ومنى.

۱- المحاسن ۳۹: ۱

ص: ۱۶۶

و يضاف إلى هـذين المنزلين، المناسك التى يؤدّيها الحاج، فهى فى حـدّ ذاتها من منازل رحمـة الله، مثل التلبيـة، والإحرام، والطواف، والسعى، والوقوفين، والبيوتة بمنى، والرمى، والنحر.

و هذا هو المنزل الثالث من منازل الرحمة فى الحج.

و المنزل الرابع، الاجتماع العظيم للمؤمنين فى الزمان الواحد، والمكان الواحد.

و الذين يعرفون رقائق أحكام هذا الدين، يعلمون جيّداً أنّ الله تعالى يحبّ إجتماع المؤمنين فى عبادته وطاعته.

وتجمّع المؤمنين فى الذكر والدعاء والعبادة وتلاوة القرآن، أقرب إلى الله وإلى رضوانه ورحمته، من الأداء الفردى للعبادات.

و قـد يكون المجمع الذى يجمع المسـلمين فى العبادة الزمان، كما فى صـيام شـهر رمضان، فإنّ شـهر رمضان يجمع مآت الملايين من المسلمين فى العبادة والطاعة من أقاليم شتّى من العالم.

و قـد يكون المجمع الـذى يجمع المسـلمين فى العبـادة والطاعـة المكـان، كمـا فى العمرة، فإنّ الحرم الشـريف، والبيت الحرام، يجمع عشرات الملايين من المسلمين للعمرة، ولكن فى أوقات مختلفة، وأشهر عديدة من السنّة.

و قـد يجمع المسـلمين، مكان واحـد، وزمان واحد، لأداء الشـعيرة العباديـة ... ولانعرف لذلك شاهداً من العبادات فى الإسـلام فى غير (الحج).

فإنّ الحـج يجمع فى كلّ عام عامّـة المسـلمين المسـتطيعين للحـج فى مكان واحد، وزمان واحد، لأداء فريضة الحج ... وهذا من أعظم منازل الرحمة فى حياة الإنسان، ولا يشبهه منزل آخر من منازل الرحمة فى حياة الناس، إلّا القتال فى سبيل إليه.

و بذلك تجتمع منازل عديدة للرحمة فى الحج من حيث المواقع المكانية،

ص: ۱۶۷

والزمانية، والمناسك، والشعائر، و الاجتماع المليونى فى مكان واحد وزمان واحد، ... وقمّة ذلك فى وادى عرفة، يوم عرفة.

فإنّ الرحمة الإلهية تصبّ على وادى عرفة، يوم عرفة من غيرحساب، وتنزل على ضيوف الرحمان فى سائر شعائر الحج.

و ليس فى مقدور الإنسان أن يحصى البركات الربانية التى تنزل على ضيوف الرحمان من جانب الرحمان، فى هذه المنازل التى أعدّها الله تعالى لضيوفه.

فى هذه المنازل تنزل على الحجاج مواهب عظيمه من رحمة الله، تمنحهم البصيرة، والهدى، والنور، والاقبال على الله، والجدّ، والاهتمام، والعزم، واليقين، وحبّ الله، وحبّ أوليائه، وبغض أعداء الله، وأعداء أوليائه، والزهد فى الدنيا وحطامها، والاقبال على الآخرة ونعيمها، وما لا أحصيه من مواهب الله تعالى فى منازل رحمته فى الحج.

باقة من الحديث

و إليكم باقة من الحديث الشريف فى منازل الرحمة فى الحج، أرجو أن ينفعنا الله بها.

منزلة الحاج عند الله فى الجنة

قد ورد فى منزلة الحاج عند الله فى الجنة، إذا أحسن الحج، وأداه لوجه الله، خالصاً فى النّية، وحج من نفقة طيبة محلّلة: إنّ الله تعالى ينزله فى الجنة بجوار النبيين، والشهداء، والصديقين، وحسن أولئك رفيقاً، وناهيك بهذه المنزلة الرفيعة منزلة فى الجنة.

عن أبى عبدالله الصادق (ع) قال: «لما حج موسى (ع)، نزل عليه جبرئيل (ع) فقال له موسى (ع): يا جبرئيل! مالمن حج هذا البيت بنيّة صادقة ونفقة طيّبة؟

ص: ۱۶۸

فأوحی الله تعالی إلیه قل له: أجعله فی الرفیق الأعلی مع النبیین، والصدیقین، والشهداء، والصالحین، وحسن أولئک رفیقاً». (۱)

فی ضمان الله

و الحاج فی ضمان الله تعالی، منذ أن یخرج من بیته، إلی أن یعود إلی بیته، یضمن له سعیه ونیّته، أتمّ الحج أو عرض له عارض منعه من إتمام الحج، أو مات فهو مضمون السعی والجهد والعزم.

عن رسول الله (ص): «الحاج فی ضمان الله عزّوجلّ مقبلًا ومدبراً، فإن أصابه فی سفره تعب، أو نصب، غفر له بذلک سیئاته ..».(۲) و عن الإمام الصادق (ع): «الحاج والمعتمر فی ضمان الله».(۳) و عن الإمام الصادق (ع): «ضمان الحاج المؤمن علی الله، إن مات فی سفره أدخله الجنة، وإن ردّه إلی أهله لم یکتب علیه ذنب». (۴) و عن رسول‌الله (ص): «من مات محرماً حشر ملبّیاً». (۵) و عن ابن عباس: إنّ رجلًا أوقصته راحلته، وهو محرم فمات، فقال رسول‌الله (ص): «إغسلوه بماء وسدر، وکفنوه فی ثوبیه، ولاتخمروا رأسه، ولا وجهه، فإنه یبعث یوم القیامة ملبیاً».(۶) و عن رسول الله (ص): «من مات فی هذا الوجه (طریق الحج) من حاجّ أو معتمر، لم یعرض، ولم یحاسب، وقیل له ادخل الجنة». (۷)

۱- من لایحضره الفقیه ۲: ۲۳۶

۲- کنز العمال ۱۴: ۵، ح ۱۱۸۴۰؛ الحج والعمرة فی الکتاب والسنة: ۱۶۱

۳- المصدر السابق؛ الکافی ۲۵۶: ۲

۴- المصدر السابق؛ بحار الأنوار ۴۹: ۹۶

۵- المصدر السابق؛ کنز العمال ۸: ۵

۶- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۱۷۷: ۲

۷- المصدر السابق؛ الغدیر ۳۳۲: ۵؛ کنز العمال ۱۵: ۵، ح ۱۱۸۴۸

ص: ۱۶۹

ثواب الحج الجنة

قد استفاضت الروايات وفيها الصحاح والحسان، أنّ ثواب الحج الجنة، و لن يكون ثوابه دون الجنّة.

عن رسول‌الله (ص): «ليس للحجة المبرورة ثواب إلّا الجنة». (۱) و عن رسول‌الله (ص): «العمرة إلى العمرة كفارة ما بينهما، والحجة المتقبلة ثوابها الجنة». (۲) و عن رسول‌الله (ص): «ما سبّح الحاج من تسبيحة ولاهلّل من تهليلة ولا كبّر من تكبيرة إلّا بشر بها (الجنة) تبشيرة». (۳)

أفضل الأعمال بعد الجهاد

و ليس بعد توحيد الله والجهاد، عمل أفضل من الحج.

سئل رسول الله (ص): أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد فى سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور».(۴) و عن الإمام الصادق (ع): «ما سبيل من سبل الله أفضل من الحج، إلا رجل يخرج بسيفه فيجاهد فى سبيل الله حتى يستشهد». (۵)

الدعاء المستجاب للحجاج

و قد أكرم الله تعالى الحجاج بالدعاء المستجاب، فليسأل ما يشاء، ولايُقَتِّر فى السؤال، فإنّ المسؤول كريم، ومن أقبح اللؤم إذا كان المسؤول كريماً أن يكون السائل بخيلًا شحيحاً، مُقَتِّراً، فى السؤال.

۱- المصدر السابق؛ كنزالعمال ۱۱۳: ۵، ح ۱۲۲۸۶

۲- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۳۷: ۸

۳- المصدر السابق؛ الدر المنثور ۲۱۰: ۱

۴- المصدر السابق؛ الدر المنثور ۲۴۴: ۱

۵- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۱۰: ۸

ص: ۱۷۰

عن رسول‌الله (ص): «الحجاج والعُمّار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم».(۱)

نور الحج

و یترک الحج بصیرة فی القلوب، ونوراً ظاهراً علی الوجوه، هو نور الإیمان، والطاعة، والتقوی، والذکر، ولا یزال هذا النور علی وجوه الحجاج، ما لم یذنبوا ... فإذا أذنبوا ذهب الله بنورهم.

عن الإمام الصادق (ع): «الحاج لایزال علیه نور الحج ما لم یلم بذنب». (۲)

خیر الدنیا والآخرة

و للحج برکات عظیمة للحاج فی دنیاه وآخرته.

عن رسول‌الله (ص): «من أراد الدنیا والآخرة، فلیؤمّ هذا البیت، فما أتاه عبد یسأل الله دنیا إلّا أعطاه منها، ولا یسأله آخرة إلّا ادّخر له منها». (۳)

غفران الذنوب

و لعلّ من أعظم برکات الحج ما تواترت به الروایات، وفیها الروایات الصحیحة: أنّ الله یغفر للحجاج ذنوبهم جمیعاً، فإذا عادوا إلی بیوتهم وبلادهم، عادوا کهیئتهم یوم ولدتهم أمهاتهم، قد تحرّروا وتخلّصوا من ذنوبهم جمیعاً.

روی المحدث الحرّ العاملی فی موسوعته القیّمة- وسائل الشیعة- عن محمد بن

۱- الحج والعمرة فی الکتاب والسنة: ۱۶۲؛ الدر المنثور ۱۰: ۱

۲- الکافی ۲۵۵: ۴

۳- بحارالأنوار ۵۰: ۹۶

ص: ۱۷۱

علی بن الحسین، قال: روی أنّ «من أعظم الناس ذنباً، من وقف بعرفات، ثمّ ظنّ إنّ الله لم یغفر له».

و روی سفیان بن عیینة عن الإمام الصادق (ع) قال: «سأل رجل أبی بعد منصرفه من الموقف، فقال: أتری یجیب الله هذا الخلق کلّه؟ فقال أبی: ما وقف بهذا الموقف أحد إلّا غفر الله له، مؤمناً کان أو کافراً، إلّا أنّهم فی مغفرتهم علی ثلاث منازل: مؤمن قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر وأعتقه من النّار ... ومنهم من غفر الله ما تقدّم من ذنبه، وقیل له: أحسن فیما بقی من عمرک ... وکافر وقف بهذا الموقف لزینة الحیاة الدنیا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه إن تاب من الشرک فیما بقی من عمره ...».(۱) و سأل الإمام الصادق (ع) رجل فی مسجد الحرام: مَنْ أعظم الناس وزراً؟ فقال: «من یقف بهذین الموقفین: عرفة والمزدلفة، وسعی بین هذین الجبلین، ثمّ طاف بهذا البیت، وصلّی خلف مقام إبراهیم، ثمّ قال فی نفسه، وظنّ أنّ الله لم یغفر له، فهو من أعظم النّاس وزراً». (۲) عن أبی حمزة الثمالی: قال رجل لعلی بن الحسین (ع): ترکت الجهاد وخشونته، ولزمت الحج ولینته؟ قال: وکان متکئاً فجلس، وقال: «ویحک أمّا بلغک ما قال رسول الله (ص) فی حجة الوداع؟ إنّه لما وقف بعرفة، وهمّت الشمس أن تغیب، فقال رسول‌الله (ص): یا بلال! قل للنّاس فلینصتوا، فلمّا انصتوا، قال: إنّ ربّکم تَطَوَّلَ علیکم فی هذا الیوم، وغفر لمحسنکم، وتشفع محسنکم فی مسیئکم، فأفیضوا مغفوراً لکم». (۳)

۱- وسائل الشیعة ۲۱: ۱۰- ۲۲، الباب ۳۸ ح ۸

۲- المصدر السابق، ح ۵

۳- الکافی ۲۵۸: ۴

ص: ۱۷۲

يرجع الحاج كهيئة يوم ولدته أمّه

و قـد يكون من أعظم بركـات الحـج أيضـاً، مـا تواترت به الروايـات، وفيها الروايات الصـحيحة: أنّ الله يغفر للحجاج ذنوبهم، حتى إذا عادوا إلى بلادهم، وبيوتهم، رجعوا كهيئتهم يوم ولدتهم أمهاتهم.

عن رسول الله (ص): «حُجّوا، فإنّ الحـج يغسل الذنوب، كما يغسل الماء، الدَرَن». (۱)عن رسول الله (ص): «من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه». (۲) و عنه (ص): «من خرج حاجاً يريـد وجه الله، فقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وشُـفّع فيمن دعا له». (۳) و عنه (ص): «معاشـرالناس، مـا وقف بـالموقف مؤمن إلّا غفر الله له ما سـلف من ذنبه إلى وقته ذلك، فإذا انقضت حجته استؤنف عمله». (۴)و عن الإمام الباقر (ع): «من أمّ هذا البيت حاجاً أو معتمراً مبرأ من الكبر، رجع من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمّه». (۵) و عن الإمـام الصادق (ع): «من حـج يريـد به الله، لايريـد به رياء ولاسـمعة، غفر الله له البتـة».(۶) و عن الإمـام الصـادق (ع): «إنّ العبد ليخرج من بيته، فيعطى قسماً، حتّى إذا أتى المسجد الحرام طاف طواف الفريضة، ثمّ عدل إلى مقام إبراهيم فصلّى

۱- الحج والعمرة فى الكتاب والسنة: ۱۶۲؛ كنزالعمال ۱۰: ۵ ح ۱۱۸۲۱

۲- المصدر السابق: ۱۶۳؛ كنز العمال ۷: ۵ ح ۱۱۸۰۸

۳- المصدر السابق؛ حلية الأولياء ۲۳۵: ۷

۴- المصدر السابق؛ عن روضة الواعظين

۵- المصدر السابق: ۱۶۴؛ الكافى ۲۵۲: ۴

۶- المصدر السابق: ۱۶۴؛ وسائل الشيعة ۷۶: ۸

ص: ۱۷۳

رکعتین، فیأتیه ملک فیقوم عن یساره، فإذا إنصرف ضرب بیده علی کتفیه فیقول: یا هذا، أما ما مضی فقد غفر لک، وأما ما یستقبل فجد».(۱)

الرواتب الثلاثة فی العبادات

و یکفی أن نقول فی حجم هذه المواهب والبرکات، إنّ المخزون الذی یختزنه العبد فی رحلة الحج یکفیه لرحلة العمر کلّها، إذا حرص وحافظ علیها.

ولابدّ من توضیح لهذه الکلمة، فنقول: إنّ العبادات علی نوعین:

النوع الأول: عبادات مرتبات علی عمود الزمان بفواصل زمانیة متفاوتة، کالصلاة وصیام شهر رمضان.

النوع الثانی: عبادات مجعولة حسب الحاجة والضرورة، کالأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، والجهاد، وإغاثة المؤمنین ونجدتهم.

والنوع الثانی من العبادات، تفرضها الحاجة الموضوعیة فی واقع حیاة النّاس.

أمّا النوع الأول من العبادات، فهی التی یحتاجها الإنسان فی حرکته التکاملیة إلی الله ... ولذلک فإنّ الله تعالی یفرضها علی النّاس فی کلّ الظروف، مثل الصلاة، والصوم، والحج، وهی التی نقصدها من (الرواتب)، وهی العبادات التی یحتاجها الإنسان لتکامله النفسی، والروحی، والعقلی، بغضّ النظر عن أیة ظروف موضوعیة وفی کلّ الظروف، وهی علی أقسام حسب حاجة الإنسان إلیها.

فمن الرواتب ما یحتاجه الإنسان فی کلّ یوم عدّة مرات، وهی الصلاة، فهی حاجة مستمرّة متصلة یحتاجها الإنسان فی نموّه وتکامله وحرکته إلی الله ... وإذا انقطع الإنسان عنها توقف نموّه وتکامله.

وتوقّف الإنسان عن حرکة التکامل، بمعنی التراجع، ولا یسعنا الآن شرح

۱- المصدر السابق؛ الکافی ۲۵۷: ۴

ص: ۱۷۴

هذه النقطة.

و من الرواتب ما يحتاجه الإنسان كلّ سنة مرّة، وهو صيام شهر رمضان فى كلّ عام، فإنّ هذه الفريضة الرتيبة تتكرر على الإنسان فى كلّ عام مرّة واحدة، شهراً كاملًا.

و من الرواتب ما يحتاجه الإنسان فى العمر مرة واحدة- بالضرورة- وماعدا ذلك يخرج عن دائرة الضرورة، ويدخل فى دائرة الندب، وهو الحج؛ فإنّ الحج يجب على المرء مرة واحدة فى العمر.

و معنى ذلك أنّ الخزين النفسى الذى يكتسبه الحاج فى رحلة الحج يكفى لرحلة العمر كله، إذا حافظ عليه الحاج، ولم يهدره، وأنّ التعبئة الروحية والنفسية والسلوكيّة الّتى يكتسبها الحاج فى هذه الرحلة، تعبئة عالية يكفى لرحلة العمر كلّها، إذا حافظ عليها الحاج، وحرص على تنميته.

كيف يتناقص خزين الحج فى ساحة الحياة؟

إذن البحث عن الوسائل التى تمكّن الحاج من المحافظة على المكاسب التى كسبها فى الحج، من المسائل الضرورية التى لابدّ أن يعرفها الحاج بعد العودة من الحج.

ومن الضرورى أن نتساءل، ونعرف كيف يحافظ الحاج على هذه الذخيرة الغالية التى اكتسبها فى الحج، عند ما يعود إلى بلده، وداره، وأسرته، ويعود إلى السوق، وينزل إلى الشارع، ويختلط بالنّاس، ويعاشرهم، ويدخل فيما يدخل فيه النّاس من شؤون دنياهم.

فما أكثر الذين أهدروا هذه الثروة العظيمة التى اكتسبوها فى الحج، فى أقل من شهر، بعد أن عادوا إلى بلدهم، وأهلهم، وعشائرهم، وتجارتهم، وأعمالهم التى يمارسونها، لإدارة معيشتهم فى الدنيا، وعلاقاتهم الاجتماعية.

ص: ۱۷۵

و الشيطان إذا فشل فى إفشال دور الحج وتأثيره العظيم فى تكامل الحاج، وتعبئته النفسية العالية التى تبلغ ذروتها فى (عرفة)، فإنه يتحوّل إلى الدور الثانى لإحباط مكاسب الحج عند ما يعود الحاج إلى حياته المألوفة فى (البيت) و (الشارع) و (السوق)، وهى المراكز الثلاثة لحضور النّاس فى الحياة الدنيا.

و نقصد بالبيت، الحياة العائلية التى هى أحد أركان حياة الإنسان، ونقصد بالشارع، العلاقات الاجتماعية (العلاقات العامة)، ونقصد بالسوق، العمل الذى يدر معيشة الإنسان فى السوق، أو فى الحقل، أو فى المصنع، أو فى دوائر الدولة، فى البر أو البحر.

ولهذه المراكز الثلاثة دور كبير فى إستهلاك الخزين النفسى الذى يختزنه الحاج فى الحج، وإحباط الحالة التعبوية النفسية العالية، التى يكتسبها فى هذه الرحلة.

إنّ الشيطان يبذل جهداً كبيراً لتسريب خزين الحج، فى تعامل الحاج فى البيت، والسوق، والشارع، مع أهله، ومن خلال تجارته، وعلاقاته الاجتماعية؛ تماماً كما تتسرّب الحرارة عند ما تكون فى وسط بارد فاقد للحرارة، فى الأجسام الصلبة، وفى السوائل والغازات، ما لم يحفظ الحرارة جدار عازل، يحفظ الحرارة من التسرّب.

و لايتصور أحدٌ أننا ندعوا إلى أن يعتزل الحاج بيته، وتجارته، وعلاقاته الاجتماعية، عند ما يعود من الحج، فليس هذا من دين الله فى شىء ... بل العكس هو الصحيح ... فإنّ الحياة العائلية، والعمل، والتجارة، والعلاقات الاجتماعية، مما يدعو إليه الإسلام دعوة حثيثة.

و إنّما الذى ندعوا إليه بشكل دقيق، هو أن نعرف كيف يحافظ المرء على خزين الحج، وتعبئته النفسية العالية فى وسط المراكز الثلاثة التى عددناها آنفاً،

ص: ۱۷۶

دون أن يعتزلها، أو يقاطعها؟

فإنّ هذه المقاطعة والاعتزال، ليس من دين الله إطلاقاً.

كيف نحافظ على مكاسب الحج؟

اشارة

و الآن نطرح الاجابة على هذا السؤال، فى دراسة موجزة إن شاء الله، فأقول:

إنّ أهمّ العوامل الواقية التى تحفظ الإنسان، وتحفظ له ما اكتسبه فى الحج من التسرّب والاستهلاك فى ساحات الحياة الثلاثة، هى التقوى والذكر، وإليك تفصيل ذلك.

۱- التقوى

اشارة

التقوى هو اللباس العازل الذى يحفظ الإنسان من عوامل البيئة، والوسط الموضوعية من الفتن والمغريات، ومن العوامل النفسية، داخل النفس، من الشهوات والأهواء، ومن دور الشيطان فى إثاره الأهواء والشهوات تجاه الفتن والمغريات، وتجميل الفتن والمغريات تجاه الأهواء والشهوات، وهذا هو الدور الرئيسى للشيطان فى إغواء الإنسان وتسقيطه، وهو دور الوساطة بين الأهواء والفتن، (دور السمسار).

و التقوى هو اللباس العازل الذى يحفظ الإنسان من ثلاثية الابتلاء (الأهواء- الفتن- الشيطان) دون أن يعتزل الإنسان حياته العائلية، وعلاقاته الاجتماعية، وعمله، وتجارته، وحركته الاقتصادية.

و ما من عامل يقوى على حماية الإنسان من ثلاثية الابتلاء مثل (التقوى).

و التقوى هو ضبط النفس عند الحدود الّتى حدّدها الله تعالى لعباده.

و قد أفاد الحج الحجاج ضبط النفس بدرجة عالية، وبمقاييس واسعة وكبيرة فى محرمات الإحرام، منذ لحظة التلبية إلى أن يخرج من حالة الإحرام.

و إذا كان الحاج قد تحلّل من محرمات الإحرام بعد السعى، وطواف النساء (الوداع)، فإنّ خزين التقوى وضبط النفس الذى اكتسبه الحاج فى هذه الدورة

ص: ۱۷۷

المکثفة یبقی معه.

و التقوی خیر ما یحفظ الحاج بعد عودته من الحج، و یحفظ له ما اکتسبه فی الحج من معرفة الله، وحاله القرب إلی الله، والبصیرة، وشفافیة القلب، وقوة النفس، والعزم فی طاعة الله، والاخلاص لله، والإخبات إلیه، وذکر الله، وحالات الأنس بذکر الله، والشوق إلی لقاء الله، وحبّ الله، وما لا أحصیه من مکاسب الحج العظیمة.

فإنّ الإنسان ما لم یتلوّث بالذنوب والمعاصی، والانشغال بالدنیا عن ذکرالله تبقی له هذه المواهب، ولا یفسدها شیء مثل (الذنوب) و (الانشغال بالدنیا عن ذکر الله).

و التقوی یحفظ الإنسان من الذنوب، وهو الشطر الأول من الطریق الصعب.

والشطر الثانی من هذا الطریق هو ذکر الله الذی یحفظ الإنسان من أن تلهیه الدنیا عن ذکر الله وهو قوله تعالی (وَاذْکُرْ رَبَّکَ إذا نَسیتَ) (۱)، فإنّ الذکر یحفظ الإنسان من نسیان ذکر الله والذکر یحفظ الذکر وسوف نتحدث عنه إن شاء الله، فیما یأتی من هذا الحدیث.

فإذا التزم التقوی، یحفظ له التقوی شطراً کبیراً من المواهب التی کسبها فی الحج.

مراقبة التقوی

و التقوی، کما یقول الله تعالی: لباس، (وَ لِباسُ التَّقْوی ذلِکَ خَیْرٌ)، وکما یحفظ اللباس صاحبه من الحرّ، والبرد، ومن الأذی، وعیون الناس، ویستر له عوراته و سوءآته، کذلک التقوی یحفظ الإنسان من ثلاثیة الابتلاء (الفتن والمغریات- الأهواء والشهوات- الشیاطین).

۱- الکهف: ۲۴

ص: ۱۷۸

و يحفظ له عورات نفسه و سوءآته، فإنّ للنفس الإنسانيـة عورات، كما للجسم، ويستر التقوى عورات النفس، كما يستر اللباس عورات الجسم.

و لكن، كما يحفظ اللباس صاحبه، كذلك يحفظه صاحبه من الوساخة والتمزق.

و هذا هو الدور المتبادل بين الإنسان واللباس، فى الحفظ والصيانة.

كذلك العلاقة بين (الإنسان) و (التقوى)، فإنّ (التقوى) يحفظ صاحبه من الانحراف، والسقوط، والذنوب، والمعاصى، وهو دور وقائى عظيم لا مندوحة عنه للإنسان فى سلامة الروح والنفس والعقل.

... وفى المقابـل يجب على الإنسـان أن يراقب عامل (التقوى) فى نفسه وسـلوكه، لئلا يضـعف أو يختل ... ولكى تؤدى التقوى دورها فى المحافظة على الإنسان، لابدّ للإنسان أن يراقب التقوى، ويحافظ عليها، ومن دون ذلك لايسلم له التقوى.

يقول أميرالمؤمنين على بن أبىطـالب (ع)، فى هـذا الـدور المتبـادل بين الإنسـان والتقوى: «ألا فصونوها وتصوّنوا بها».(۱) وهى كلمة دقيقة وعميقة ... فلكى يصون الإنسان نفسه بالتقوى، لابدّ أن يصون التقوى نفسها ويراقبها.

أهمّ آليات مراقبة التقوى:

۱- المحاسبة، والمراقبة المتصلة.

۲- الوعظ والتذكير.

۳- ذكر الله، وذكر الموت.

۴- مرافقة الصالحين ومجالستهم، وحضور مجالسهم.

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۹۱

ص: ۱۷۹

۲- الذکر

اشارة

العامل الآخر للمحافظة على مکاسب الحج، ذکر الله تعالى ضمن برنامج منظم ... وهذا الذکر یشمل نوافل الصلاة، وبشکل خاصّ النوافل اللیلیة (صلاة اللیل) وقراءة القرآن، والدعاء، والأوراد، والأذکار الواردة فی اللیل والنهار، ولو خلال فترة العمل، والالتزام بتعقیبات الصلاة، والاهتمام بحضور الجماعة، والتعهد بالأدعیة الواردة لیلة الجمعة، ویوم الجمعة، وسائر أیّام الله فی السنة.

إنّ الالتزام بهذه الأبواب من الذکر، یفتح منافذ القلب على الله تعالى، ویبعث فیه النور، والبصیرة، والشفافیة، ویقرب الإنسان إلى الله، ویمنح الإنسان الیقین، والعزم، والقوة فی طاعة الله، والأنس إلى ذکر الله، والشوق إلى لقاء الله، وحبّ الله، والإنابة إلى الله، والخشیة والرجاء من الله، وما لا أحصیه من المواهب التی جعلها الله فی الذکر.

و من أعظم هذه المواهب، إنّ ذکر الله یحفظ الإنسان من أن تشغله الدنیا وتلهیه عن الله ... وهذا هو الشطر الثانی من الطریق الصعب الذی ذکرناه آنفاً فی السعی إلى الله.

فإنّ أعظم حجابین یحجبان العبد عن الله تعالى، هو الذنوب والمعاصی أولًا،

و التعلّق بالدنیا ثانیاً.

و لمکافحة هذین العاملین قلنا:

إنّ (التقوى) هو الشطر الأول من الطریق الصعب، یحفظ الإنسان من الذنوب والمعاصی الحاجبة عن الله؛ و (الذکر) هو الشطر الثانی من هذا الطریق، یحفظ صاحبه عن الدنیا ودورها المغری فی إلهاء الإنسان، وانشغاله عن الله.

ص: ۱۸۰

المداومة

و لا يؤتى الذكر ثماره فى حياة الإنسان، ما لم يواصله الإنسان زمناً طويلًا فى حساب العمر.

و قد روى عن أميرالمؤمنين (ع): «قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه». (۱) إنّ بركات الذكر لاتظهر مرة واحدة، كما هو الحال فى أغلب سنن الله تعالى فى الكون، وإنما تظهر بصورة تدريجية.

و لكى يكتسب الإنسان بركات الذكر، لابدّ له من مواصلة الذكر ومداومته.

المراقبة والمداومة

و الغاية هنا من التأكيد على (مراقبة) التقوى و (مداومة) الذكر، هى أن يتحوّل التقوى والذكر فى حياة الإنسان إلى ملكة راسخة ثابتة.

فما لم يتحول التقوى والذكر فى حياة الإنسان إلى ملكتين راسختين، فى النفس ثابتتين، فهما معرضان لأخطار وتهديدات كثيرة من جانب ثلاثية الابتلاء التى شرحناها من قبل.

فى ضيافة الرحمن ؛ ؛ ص ۱۸۰

ذا تحولتا بالمراقبة والمداومة، إلى حالة ثابتة وراسخة فى النفس، واستحكمتا فى النفس، فلا يخاف عليهما عندئذ من تحديات (الأهواء) و (الفتن) و (الشياطين) ويتحوّل التقوى والذكر عندئذ من حالة رجراجة غير ثابتة، إلى ملكة ثابتة وراسخة فى النفس ... وعندئذ تثبت مكاسب الحج فى نفس الإنسان.

***

۱- وسائل الشيعة ۱۱۸: ۱

ص: ۱۸۱

تجليات الأمة الواحدة فى مشاهد الحج

اشارة

ص:۱۸۲

ص: ۱۸۳

تجلّى الأمّة الواحدة وظهورها فى الحج واحدة من أعظم منافع الحج (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ) ((۱))، ولا نعرف مشهداً للأمّة الواحدة أعظم وأروع مما نشاهده الحج.

هنالك يشهد المسلم الأمة الواحدة بكل تجلياتها، من اسقاط الفوارق وملأ الفواصل والفجوات والوقوف جميعاً فى موقف واحد وفى وقت واحد.

وهذه المشاهد التى تتكرر كلّ سنة، ويحضرها نخبة من المسلمين من كلّ فجّ عميق ... تعتبر أفضل تجسيد للأمة الواحدة، التى تضيع أحياناً وتختفى بسبب تراكم الخلافات الذهبية والوطنية.

وأوّل ما يتجلّى هذا المشهد التوحيدى والوحدى العظيم فى (الميقات) حيث ينتزعهم الميقات من أزيائهم الوطنية ويلبسهم لباساً موحداً فى غاية البساطة، وبعيداً عن مظاهر الترف، ثمّ يوحّد الميقات خطابهم الربانى «لبّيك اللهم لبّيك، لبيك لا شريك لك لبّيك»، وهذا هو الخطاب التوحيدى والوحدوى الذى يرفعه الحجاج جميعاً فى الميقات ... يوحّد الميقات خطابهم الذى هو جوهر هذه العبادة وهى (التوحيد) ويوحّد مظهرهم، وينتزعهم من حالة التشتت فى الخطاب، وتمايز المظاهر والأزياء، فيكون مثل الميقات مثل جداول متمايزة من أقاليم شتى، تدخل فى الميقات وكأنه نهر عظيم من الحجاج، يقبلون على الله بمظهر واحد، وخطاب

۱- الحج: ۲۸

ص: ۱۸۴

واحـد، وغايـة واحـدة، حتّى يَصُبّ هـذا النهر فى بحر عظيم من النـاس بجـوار بيت الله الحرام، لاـ تكـاد تميز فيه العراقى عن اليمـانى، واليمانى عن الجزائرى، و الجزائرى عن الإيرانى، والتركى.

ثم يأتى دور الكعبة الشريفة فى توحيد هذه الأمة وإخراجها إخراجاً واحداً.

وللكعبـة المعظمـة دوران فى توحيـد هـذه الأمـة (القبلـة والطواف)، وكلّ واحـد من هـذين الـدورين يوحّـد جبهـة هذه الأمة العظيمة، المتفرقة فى بلاد شتّى من القارّات الخمسة.

إنّ (القبلـة) ترمز فى حيـاة المسـلمين إلى أمرين على أعلى درجـات الأهميـة، ترمز (القبلـة) إلى تـوجيه الإنسـان وجهه إلى الله فى كل حالاته، (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (۱).

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ)(۲) .

وعندما يوجّه الإنسان وجهه إلى نقطة معيّنة، فإنها سوف تحدّد مساره وخط حركته بشـكل قطعى، كما كان يجعل أهل البادية فى البر، والبحّارة فى البحار النجوم بين أعينهم، ليحدّدوا بذلك خط حركتهم فى البوادى والبحار، قبل أن يعرفوا نظام البوصلة.

فـإذا جعل الإنسان (الله) تعالى وجهته، وتوجّه إليه بوجهه، وجعله غايـة لحركته، فإنّ هـذه النقطـة الغائيـة فى تحركه التى جعلها وجهته وفى قبالته سوف تحدّد له خط حركته ومساره فى الحياة الدنيا، وهو الصـراط المسـتقيم الذى يهديه إلى الله تعالى، وهو صـراط الذين أنعم الله عليهم من عباده: (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ).

۱- الأنعام: ۷۹

۲- آل عمران: ۲۰

ص: ۱۸۵

وترمز (القبلة) ثانياً إلى توحيد جهة حركة المسلمين جميعاً إلى الله، بهذا الاتجاه، فإنّ (القبلة) توجّه عامة المسلمين إلى نقطة الكعبة فى اليوم خمس مرات على أقل التقادير.

إذن القبلة ترمز أولًا إلى توجيه الإنسان المسلم إلى الله فى حركته، على الصراط المستقيم.

وترمز ثانياً إلى توحيد المسلمين عامة فى هذا الاتجاه الربانى فى الحركة.

وخلاصة القول: إنّ القبلة ترمز إلى الاستقامة على الصراط المستقيم إلى الله تعالى، وتوحيد حركة المسلمين جميعاً على هذا الصراط.

و يرمز (الطواف) إلى حركة التوحيد على وجه الأرض وفى التاريخ، كما يرمز إلى اجتماع الموحّدين لله، بهذا الاتجاه التوحيدى فى التاريخ والمجتمع.

فإنّ هذه الحركة الاستداريّة حول مركز الكعبة ترمز- والله العالم- إلى الحركة التوحيدية للإنسان.

فلاينحرف الطائف عن مركز الكعبة، فى كل دائرة الطواف، بكتفه الأيسر على امتداد هذه الدائرة، بينما يتحرك كتفه الأيمن فى كل الاتجاهات، من دون إستثناء، والدائرة التى يطويها الكتف الأيمن للطائف ۰۳۶۰، وهى دائرة كاملة لاتخرج عنها جهة من الجهات على الاطلاق، وهى إشارة رمزية- والله العالم- إلى أنّ بإمكان الإنسان أن يحافظ على توحيد الله بالعبادة، والاستعانة، والطاعة، والعبودية فى كل حركته الواسعة فى الدنيا، فى كل حقول الحياة، فى حركته، وخطابه، ومواقفه، وعمله، من دون استثناء، (إِنَّ صَلاتِی وَ نُسُکِی وَ مَحْیایَ وَ مَماتِی لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ)، ليس فقط فى صلاته و نسكه، وإنما فى محياه ومماته أيضاً.

وفى نفس الوقت ترمز الكعبة إلى تجميع المسلمين على توحيد الله تعالى فى العبادة، والعبودية، والاستعانة، والاخلاص، والدين، والطاعة، والولاء.

ص: ۱۸۶

وهكـذا تتّصل تجلّيات الأمـة الواحـدة فى مشاهد الحج الكبرى من الميقات إلى الطواف، ومن الطواف إلى السـعى، ومن البيت الحرام إلى عرفة، حيث يجتمع ملايين المسـلمين فى وادى عرفة، توحّدهم عرفة، وتوجههم إلى الله تعالى بالدعاء والصـلاة، وتصفيهم من كلّ ذنوبهم، بلا استثناء إلّا الشرك، والقتل، وحقوق الناس، والبدعة فى دين الله، فإنّها لا تغتفر.

ويفيض الحجاج من عرفة إلى المشعر الحرام، وقد تركوا وراءهم ركام ذنوبهم ومعاصيهم فى هذا الوادى الشريف.

ثم مشـهد المشـعرالحرام ومشاهـد رمى الجمرات فى وادى منى، وهو يرمز إلى جهد جمعى من جانب الحجاج كلهم لإقصاء الشـيطان عن حياتهم، ورجمه، وإبعاده منهم.

ثمّ يأتى فى نهاية هذه الجولة الصعبة من الميقات إلى منى «العيد الأكبر» الذى يحتفل به الحجاج جميعاً فى منى، وفى رحاب بيت الله، وهو عيد الأضحى المبارك.

يوحّدهم فى فرحتهم بنجاحهم فى إقامة هذه الفريضة الصعبة فى هذا البلد الذى اختاره الله لبيته الحرام.

إنّ أبرز شىء فى الحركة العظيمة من الميقات إلى منى أمران: (توحيد) الله تعالى بالعبادة؛ و (توحيد) حركة الأمة على خط توحيد الله؛ ولا يحسّ الإنسان بهذه الأمة المباركة العظيمة، كما يحسّ بها فى مشاهد الحج العظيمة.

و كما يوحّـد الحـج خطاب هـذه الأمـة، وحركتها، ومظهرها، ومضـمونها، كـذلك يوحّد جهد هذه الأمة فى مكافحة العوامل المعيقة، لوحـدة الأمـة، والفتن الطائفيـة التى تجعل من هذه الأمة الواحدة، أمماً شتى متقاطعة ومتنافرة، على خلاف ما يريده الله تعالى من عباده المؤمنين.

ص: ۱۸۷

الإضاءات الثلاثة فی طریق وحدة الأمة

اشارة

إنّ مکافحة الفتن الطائفیة، والسعی إلی التقریب، والتفاهم، والتضامن، والتعاون بین المسلمین، من ثوابتنا السیاسیة والحضاریة والاقتصادیة.

وتدخل فی تکوین الأمة الإسلامیة الواحدة، ومن دونه لا تتحقّق الأمة الواحدة التی جعلها الله أمة وسطاً، وشاهدة علی سائر الأمم.

ویتوقف علیها، إنتصارنا فی المعترک السیاسی، والحضاری، والثقافی، والعسکری، ومن دونها لا یتحقق النصر الذی نسعی إلیه فی مسیرتنا السیاسیة والثقافیة.

وتتوقف علیها حرکتنا الثقافیة والعلمیة .. فإنّ التقاطع الطائفی، والعزلة والانکفاء علی الذات، یؤدی بالضرورة إلی الضمور الثقافی والعلمی، وبعکس ذلک التواصل، واللقاء، والحوار الإیجابی، یؤدی إلی التکامل العلمی والثقافی فی حوزاتنا وجامعاتنا العلمیة.

إنّ هناک ثلاث قضایا رئیسیة، لابد فیها من الوعی والوضوح:

ولابد من السعی لنشر وعی سیاسی- ثقافی، تجاه هذه النقاط فی أوساط الجمهور.

وهذه النقاط هی:

۱- الأمة الواحدة.

۲- الصراع الحضاری الذی تخوضه هذه الأمة.

۳- ضرورة الترافد الثقافی والعلمی فی أوساط هذه الأمة.

و إلیک الإیضاح السریع التالی لهذه النقاط الثلاثة:

۱- الأمة الواحدة

هذه الأمة أمة واحدة، ولیست أمماً شتی.

وقد ورد هذا المعنی بصراحة فی آیتین من القرآن یقول تعالی:

ص: ١٨٨

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) ((١)).

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأنا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) ((٢)).

وليس معنى وحدة الأمة التطابق الكامل فى الرأى والاجتهاد، فإنّ ذلك مما لايكون .. وإنما معنى ذلك الاتفاق والتفاهم على الأصول والانسجام والتفاهم والتعاون على المواقف السياسية، وتوحيد الولاء والبراءة والطاعة والنصرة.

٢- الصراع الحضارى

سواءاً أردنا أم لم نرد، نحن ندخل اليوم فى صراع حضارى عسير ... والمواجهة العسكرية شكل من أشكال التعبير عن هذا الصراع.

وهذا الصراع صراع شرس .. وخصومنا فى هذا الصرع جبهة واحدة، مهما تعددت توجهاتهم.

وليس من الصدفة أن تتفق أمريكا والاتحاد الأوربى على دعم إسرائيل فى كل أعمالها العدوانية تجاه المسلمين، وأن تقف إلى جانبها من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار حاجتها إلى المسلمين، وعلاقاتها الاقتصادية الواسعة بالعالم الإسلامى.

نحن نواجه اليوم صراعاً حضارياً، سياسياً، اقتصادياً، عسكرياً، من أشرس ما يكون الصراع، وإذا خسرنا الحرب فى هذه المعركة المصيرية، فسوف نعود مرة أخرى إلى دورة جديدة من التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للغرب التى طالتنا من بعد سقوط الدولة العثمانية إلى اليوم.

والانتصار والهزيمة فى هذا الصراع- فى كل أبعاده- قضية مصيرية فى حضارتنا وتاريخنا؛ ولا نشك إننا نكسب هذا الصراع إذا واجهنا خصمنا أمة واحد، وصفاً

١- الأنبياء: ٩٢

٢- المؤمنون: ٥٢

ص: ۱۸۹

واحداً، وموقفاً واحداً، وذلک أنّ ید الله تعالی مع الجماعة وعلی الجماعة، وإذا کانت ید الله معنا فلا یتخطانا النصر بإذن الله.

ولاـ نشک أنّا إذا واجهنا خصومنا مقتسمین علی أنفسنا، متقاطعین فی مواقفنا وإرادتنا، متخالفین فی توجهاتنا، فلا نکسب هذا المعترک الحضاری الصعب.

۳- الترافد الثقافی

الترافد الثقافی من نتائج التقریب بین المذاهب الإسلامیة ومن عوامله فی نفس الوقت ...

وقد کان علماء المسلمین وطلبة العلم یتوافدون علی مدارس فقهیة من مذاهب واتجاهات مختلفة، وکانوا یتبادلون الإجازات فی روایة الحدیث، فکان طلبة العلم من العراق، ومعظمهم من الشیعة یفدون إلی الحجاز ومصر والشام ومعظمهم من أهل السُنة، وکان یفد إلی العراق، علی مدرسة الحلة، وهی حوزة شیعیة عریقة، طلبة من الحجاز، ومصر، والشام، والمغرب العربی للدراسة، کما کان لعلماء المسلمین زیارات للأقالیم الإسلامیة، وکان طلبة العلوم الدینیة یلتمسون منهم أن یلقوا علیهم دروساً فی الفقه والأصولَین (أصول الفقه وأصول العقائد).

والیوم تحتضن الحوزة العلمیة فی قم، وهی حوزة علمیة عریقة تابعة لمدرسة أهل البیت (علیهم السلام) طلبة العلوم الدینیة من أکثر من مائة قُطْر فی العالم من القارات الخمسة، وجملة من هؤلاء الطلبة الوافدین إلی هذه الجامعة من أهل السنة، و لایجدون حرجاً فی الدراسة فی حوزة شیعیة، کما لا تجد هذه الحوزة حرجاً أن تحتضن طلبة من المدارس، والاتجاهات الفقهیة الأخری، وتجری دراسة فقه المذاهب الإسلامیة الأربعة فی هذه الحوزة کما تجری دراسة الفقه الإمامی.

ولهذا الترافد الثقافی والعلمی أثر بالغ فی التکامل العلمی والثقافی فی المراکز

ص: ۱۹۰

العلمية الإسلامية.

فإنّ الجهود العلمية، والثقافية المختلفة، عندما تلتقى مع بعض على صعيد موضوعى، علمى، غير متشنّج، يكون هذا اللقاء سبباً للإثراء والتكامل العلمى والثقافى لكل من هذه الروافد العلمية والثقافية، ويؤدى هذا الترافد إلى التقارب والتعارف بين المذاهب المختلفة، كما أنّ التقارب والتعارف بين هذه المذاهب يؤدى بالضرورة إلى الترافد العلمى والثقافى.

إنّ ظاهرة الترافد تؤدى إلى مكافحة وإبطال الفتن الطائفية .. والعكس أيضاً صحيح، فإنّ الفتن الطائفية تقلّل من فرص الترافد الثقافى، وتحوّل الثقافة والعلم إلى دوائر مغلقة غير مترابطة، وهذه الحالة من أسباب ضمور العلم والمعرفة دائماً.

وعلى كلّ حال، ظاهرة الترافد الثقافى ظاهرة مباركة فى حياة هذه الأمة، يجب أن نستعيدها، ونجدّدها، ونشجعها، وندعمها، وهى من أفضل وسائل علاج الفتنة.

وفيما يلى سوف نتحدث إن شاء الله عن ثلاثة من أبرز النقاط التى تساهم فى علاج الفتنة الطائفية وإخمادها، وهذه النقاط الثلاثة هى:

۱- الوعى والخطاب

۲- اللقاء والحوار

۳- العمل المشترك

وإليك تفصيل هذه النقاط:

أولًا: الوعى والخطاب

اشارة

الفتنة الطائفية، كأية فتنة أخرى، تنشأ وتنمو فى غياهب الجهل والجهالة .. والفتن فى حياة الناس كثيرة، وكلها تتكون وتظهر وتنمو فى ظلمات الجهل.

وأفضل العلاج لها ولأمثالها من الفتن هو المعرفة والوعى، فإنّ النور يكسح

ص: ۱۹۱

الظلمة، والمعرفة والوعی نور یزیل ما یعترضه من الظلمات، والفتن تراکم من الظلمات بعضها فوق بعض.

الوعی والتقوی

إنّ تحصین المجتمع من الفتن یتم بعاملین اثنین مع بعض، وهما عامل التقوی والمعرفة، فإذا اجتمعتا فأنهما یحصّنان المجتمع من أمثال هذه الفتن.

ومهما واجهنا فتنة من هذه الفتن التی تمحق دین الناس، وتثیر الشغب والفوضی، وتحرق الأخضر والیابس، فلابدّ أن یکون من وراء هذه الفتنة عجز فی (التقوی) أو (الوعی) أو فیهما معاً.

فهما یحصّنان المجتمع من کل فتنة، ویمنحان صاحبهما بصیرة وفرقاناً، إذا ادلهمت الخطوب والظلمات علی الناس.

الوعی السیاسی

ومن أهمّ وجوه الوعی الیوم الوعی السیاسی، فإنّ عامل الاستکبار العالمی، والمخابرات، والمنظمات الجاسوسیة العالمیة، تکمن خلف هذه الفتن.

والمؤسسات الإعلامیة (الصحف والفضائیات ودور النشر) تبثّ هذه الفتن بین الناس، وتقوم بتأجیج حرائق الفتنة الطائفیة بین المسلمین.

وتجد أنظمة الاستکبار العالمی فی هذه الفتن الطائفیة، فرصة ذهبیة لبسط نفوذها فی العالم الإسلامی، وتمکّنها من أسواق المسلمین، ومصادر الثروة النفطیة، والمعدنیة، والمائیة، والزراعیة فی العالم الإسلامی ... وسوف نبسط الحدیث فی هذا الجانب إن شاء الله.

و الأداة المفضّلة لمواجهة هذه الفتن هی الوعی السیاسی الذی یمکن الناس من معرفة خلفیات هذه الفتن وجذورها، والمنظمات الجاسوسیة التی تخطط لها هناک

ص: ۱۹۲

فی الغرب، عبر المحیطات.

و من واجب العلماء والخطباء والمثقفین الإسلامیین نشر الوعی السیاسی بین الناس، وتمکین الناس من إختراق الغطاء الإعلامی، وتمکینهم من الدرک الصحیح لما یحصل فی الساحة العالمیة من فنون اللعبة السیاسیة، وتحذیر الناس من أن یکونوا ضحایا هذه اللعب، والخطط التی تنتجها باستمرار العقلیة الغربیة، تجاه العالم الإسلامی.

وعی الجمهور

ولست أعنی ب- (الوعی السیاسی) هنا وعی النخبة، ولست أنفی ضرورة الوعی السیاسی عند النخبة، وأهمیتها، ولکن وعی النخبة لا یغنی عن وعی الجمهور، وإذا حلّ الوعی فی الشارع الذی یتحرک فیه الجمهور، وتسلّح الجمهور بالوعی، لم تعد هذه اللعب السیاسیة، والفضائیات المضلّلة قادرة علی تضلیل الناس، وتفجیر الفتن فی وسط الناس، کالذی یحصل الیوم فی العراق وفی باکستان وفی بعض الأقطار الإسلامیة.

فإنّ الوعی عندما ینزل إلی مستوی الشارع ویثقف الجمهور یحصّنه من أمثال هذه الفتن ... والجمهور الذی یمتلک درجة عالیة من الوعی السیاسی یمتلک درجة عالیة من الحصانة تجاه العوامل الإعلامیة والسیاسیة المضللة، وبالضرورة لاتحتوشه الفتن.

والجمهور غیر الموجّه، وغیر الراشد، هو الوسط الخصب، والتربة الصالحة لأمثال هذه الفتن؛ وعن طریق التوعیة، والتثقیف السیاسی، یمکننا أن نحافظ علی سلامة الجمهور ورشده.

والجمهور کما هو تربة صالحة للفتن والضوضاء، کذلک هو وعاء صالح للوعی،

ص: ۱۹۳

والعقل، والسداد، والتقوی .. ویمتلک أعماقاً سلیمة من الفطرة، لم ینفذ إلیها الفساد، والقادة الحقیقیون هم الذین یدرکون هذا العمق الفطری السلیم للجمهور، ویقودون الجمهور إلی صراط الله المستقیم والتقوی، ویحذرونه من مغبّة الوقوع فی أمثال هذه الفتن، ویفلحون فی ذلک.

إنّ الثقة بالجمهور، وکفاءاته الکثیرة، وسلامة فطرته، هو رأس مال أولئک القادة الذین یعرفون کیف یخاطبون الجمهور، وکیف یکسبونه .. بعد الثقة بالله تعالی، و الاعتماد علیه، والاطمئنان إلی وعده بالنصر، وتأییده للقلّة المؤمنة، فی مواجهة أمثال هذه الفتن والتحدیات.

الوعی والخطاب

ولابد للوعی من خطاب، کما أنّ للتضلیل السیاسی خطاب، ولإثارة الفتنة بین الناس خطاب، ولتغریر الناس، وتجهیلهم، وتسطیح عقولهم خطاب، کذلک للوعی خطاب.

ولغة هذا الخطاب لغة العقل، وهی اللغة المفضّلة فی خطاب الوعی ... إنّ العاطفة جزء ضروری من خطاب الجمهور لاشک فی ذلک، ولکن من الخطأ الاقتصار علی العاطفة فی خطاب الجمهور .. ولابد من استخدام لغة العقل فی خطاب الناس، إلی جانب لغة العاطفة، ولابد أن تکون لغة العقل هی الحاکمة وهی الأصل، ولغة العاطفة تأتی فی امتداد لغة العقل، ولإسناد العقل عندئذ یکون الخطاب العاطفی خطاباً صالحاً للجمهور ... وأمّا عندما یتمحّض خطاب الجمهور فی الخطاب العاطفی، فلا یکون مثل هذا الخطاب خطاباً راشداً أمیناً غالباً، و لایکون قادراً علی توجیه الجمهور إلی الوجهة الصحیحة ...

إنّ مشکلة الخطاب الإسلامی المعاصر لدی أصحاب التوجهات الطائفیة المعاصرة، هی الحالة العاطفیة الطاغیة علی هذا الخطاب والحالة الشعاریة، ورفض

ص: ۱۹۴

لغة العقل، وحالة الإنكفاء على الذات، والانغلاق على الرأى الآخر، ورفض الطرف الآخر، رفضاً مطلقاً إلى حدود التكفير، واستباحة الدماء التىحرّمها الله تعالى إلّا بحقها.

و قد يكون استجابة الجمهور أحياناً إلى الخطاب الشعارى والعاطفى أسرع من استجابتهم للخطاب العقلانى الرافض للعاطفة .. ولكن يبقى استخدام لغة العاطفة والشعار محضاً وحصراً فى خطاب الجمهور، خيانة للجمهور مهما كانت استجابتهم لهذا الخطاب، واستخدام لغة العقل ومحكمات الدين فى خطاب الجمهور هو الموقف الناصح الأمين من الجمهور، و إن واجهه الجمهور أحياناً بالرفض.

وعلى علماء المسلمين أن يتقوا الله فى الخطاب، ولا يبتغوا مرضاة الناس فى ذلك، فقد يكون فى الناس من يستجيب للشعار والعاطفة، وقد يكون الخطاب العاطفى والشعارى أسرع قبولًا فى وسط الجمهور .. ولكنّه على كل حال خيانة، يجب أن يحذرها العلماء الراشدون.

والجمهور الذى يتثقف من خلال الخطاب العقلائى أكثر ثباتاً وصلابة فى الموقف، والجمهور الذى يتلقى الخطاب العاطفى الشعارى جمهور متقلّب فى الرأى، لا يثبت على موقف ورأى، ومسؤولية هذه الحالة المتقلّبة على عهدة الخطاب العاطفى والشعارى الذى يتلقاه هذا الجمهور من حملة الخطاب الطائفى المتشنّج.

منطلقات الخطاب الدينى

وكما يجب الاهتمام بلغة الخطاب فى حياتنا الثقافية والسياسية المعاصرة، كذلك يجب الاهتمام بمنطلقات الخطاب الإسلامى ... هناك خطابات سياسية وثقافية كثيرة معاصرة صادرة من (الولاءات) المنتحلة الوهمية، كالولاء للقوم، والوطن، والأحزاب، والعشيرة، وهى ولاءات منتحلة كاذبة فى مقابل الولاء لله، ولرسوله،

ص: ۱۹۵

ولأئمة المسلمين وللمؤمنين، وهو الولاء الراشد الصحيح الذى جاء به الوحى من عند الله: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ((۱)) ...

وهـذا هو الولاء الحق الـذى جاء به رسول الله (ص) من عنـد الله، وهو الولاء الذى يوحّد صف المسلمين، ويجعل منهم أمة واحدة فى صف مرصوص، مقابل أعداء هذه الأمة.

وللقضـاء على هـذا الولاء، بادر أعـداء هـذا الـدين إلى طرح ولاءات أخرى، فى مقابل الولاء لله، ولرسوله، ولأولياء الأمور، وللمؤمنين، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وبذلوا أموالًا طائلة لتثبيت هذه الولاءات فى ثقافة المسلمين المعاصرة، من خلال المدرسة، والصحافة، والإذاعة، والتلفاز، وإحياء المآثر الفرعونية والبابلية والكسروية والفينيقية .. إلى غير ذلك.

من خلال هذه الثقافات عملوا على زرع ولاءات وهمية، قومية، و وطنيه .. مقابل الولاء لله ولرسوله.

ونحن عنـدما نتحـدث عن الخطـاب السياسـى الـذى نلقيه إلى جمهورنـا يجب أن نأخـذ بنظر الاعتبـار منطلقـات هـذا الخطاب ... هـذا الخطاب يجب أن ينطلق عن الولاء لله ولرسوله فى قوله تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ) ((۲)).

وقوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) ((۳)).

وقوله تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) ((۴)).

۱- المائدة: ۵۵

۲- المائدة: ۵۵

۳- الأنبياء: ۹۲

۴- المؤمنون: ۵۲

ص: ۱۹۶

وقوله تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ((۱)).

وقوله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) ((۲)).

وقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) ((۳)).

وقوله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) ((۴)).

وقوله تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ) ((۵)).

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) ((۶)).

أمّة واحدة، وطاعة واحدة، وولاء واحد.

إنّ لكل ولاء خطاب، وخطاب كل ولاء يختلف عن الخطاب الآخر، ونحن ولاؤنا لله ولرسوله ولأولياء الأمر وللمؤمنين وليس للوطن والقوم والعشيرة .. ولهذا الولاء خطاب يختلف عن خطاب الولاء للقوم والوطن.

ونحن لا نرفض الارتباط بالقوم والوطن إلّا أن هذا الارتباط من الانتماء وليس من الولاء، والولاء يحكم الانتماء .. فقد حارب المسلمون صدر الإسلام أهلهم وآباءهم وإخوانهم من مكة فى الله.

وخطابنا إلى جمهور أمتنا- فى السراء والضراء- يجب أن ينطلق من هذا المصدر، وهو الخطاب الذى يجمع الشمل، ويزرع المحبة والمودة فى القلوب،

۱- آل عمران: ۱۰۳

۲- التوبة: ۷۱

۳- الحجرات: ۱۰

۴- الأنفال: ۴۶

۵- النساء: ۵۹

۶- الأنفال: ۷۲

ص: ۱۹۷

ويؤسس التفاهم والتعاون فى الأفكار والأعمال.

الصدق والنصح فى الخطاب

ويجب أن يكون الخطاب صادقاً ناصحاً .. وفى خطابنا المذهبى الطائفى المعاصر الكثير من الكذب والافتراء .. ومن يقرأ بعض أدبيات الفتنة الطائفية المعاصرة، يجد نماذج كثيرة من هذا الافتراء والكذب، ومن أمثلة هذا الافتراء: الافتراء على الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وهم ينفون عن أنفسهم هذه التهمة، ويصرّحون ويكتبون عن صيانة القرآن عن التحريف.

ولو أنك سبرت بلاد المسلمين فى كل العالم لا تجد غير هذا القرآن قرآناً يتلوه الناس، ويتعبدون به فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكم يتبادل المسلمون من المذاهب المختلفة، الافتراءات فيما بينهم من غير هدى ولا بيّنة.

ولا يقتصر أمر هذه الافتراءات فيما بين الشيعة والسنة، وإنما يتم بين الشيعة أنفسهم، والسنة أنفسهم بما لا يقلّ عما يجرى بين الشيعة والسنة ...

وهذا الخطاب الطائفى الاستفزازى، ينقصه الصدق والنصح ..

ينقصه الصدق، لأنّ علماء المسلمين من جميع المذاهب يكتبون ويعلنون ويصرّحون أن ليس لله على وجه الأرض كلها قرآن غير هذا القرآن، الذى يتلوه المسلمون صباحاً ومساءاً.

وينقصه النصح، لأنّ المسلم الذى يهمّه أمر وحدة المسلمين وانسجامهم، والذى يأمر الله تعالى به ورسوله لا ينال مذاهب المسلمين بهذا اللون القاسى من الجرح والتشهير والتسقيط، من دون تثبت علمى، بل مع إعلانهم البراءة عما ينسب إليهم من الافتراء.

ص: ۱۹۸

الشجاعة والصراحة فی الخطاب

إنّ مواجهة ظروف الفتنة الطائفیة الیوم تستدعی شجاعة وصراحة فی الخطاب وما لم یمتلک حَمَلَةُ الخطاب الإسلامی هذه الشجاعة والصراحة لا یتمکنون من مواجهة الفتنة الطائفیة المعاصرة واستئصالها.

إنّ الحالة التکفیریة المعاصرة، واستباحة دماء المسلمین بغیر الحق، عودة للحالة الخارجیة التی ظهرت صدر الإسلام فی حرب صفین والنهروان فی أیام خلافة أمیرالمؤمنین (ع)، و ولادة جدیدة لنفس الحالة.

وهذه الحالة آخذة بالتوسع والنفوذ إلی داخل الحرکة الإسلامیة المعاصرة .. ولابد أن یمتلک تجاه هذه الحالة، علماء المسلمین الجرأة، والشجاعة، والصراحة الکافیة فی بیان موقف الإسلام من هذه الجماعة، ومن هذه الحالة التی تُعدّ انزلاقاً خطیراً للحرکة الإسلامیة المعاصرة.

والتردد والتریث فی مثل هذا البیان والخطاب، یؤدّی إلی استشراء هذه الحالة وتوسعها، و إلی حدوث انزلاقات خطیرة فی الحرکة الإسلامیة المعاصرة بهذا الاتجاه.

وقد حرّم الإسلام دم المسلم وماله إذا کان یشهد بالتوحید لله والنبوة لرسول الله قولًا واحداً بین فقهاء المسلمین.

روی مسلم فی الصحیح فی فضائل علی (ع): عندما دعا رسول الله (ص) علیاً فی فتح خیبر فأعطاه الرایة وقال له: «امش ولا تلتفت حتی یفتح الله علیک»، قال: فسار علی ۷ شیئاً ثم وقف ولم یلتفت فصرخ:

یا رسول الله علی ماذا أقاتل الناس؟

قال: «قاتلهم حتی یشهدوا أن لا إله إلا الله، و أنّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلک فقد منعوا منک دماءهم» (۱).

۱- صحیح مسلم ۱۸۷۱: ۴- ۱۸۷۲ کتاب فضائل الصحابة.

ص: ۱۹۹

وفى الصحيحين بالإسناد إلى مقداد بن عمرو: أنه قال: يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفار، فاقتتلنا فضرب إحدى يدى بالسيف، فقطعها، ثم لاذ منى بشجرة، فقال: أسلمت لله، فأقتلْه يا رسول الله بعد أن قالها، فقال رسول الله (ص): «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال»(۱) .

و أخرج البخارى فى بعث على (ع) وخالد إلى اليمن: أنّ رجلًا قام، فقال: يارسول الله: اتق الله، فقال (ص): «ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقى الله»، فقال خالد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه، فقال (ص): «لا، لعله أن يكون يصلى» (۲).

وعن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «قال رسول الله (ص): امرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حرم علىّ دماءهم وأموالهم» (۳).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله (ص):

«امرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلّا بحقها وحسابهم على الله» (۴).

وعن أبى عبدالله الصادق (ع) أنه قال: «الإسلام يُحقن به الدم» (۵).

وعنه (ع) أنه قال: «شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله (ص)، به حُقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث» (۶).

۱- صحيح البخارى ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴ وصحيح مسلم ۹۵: ۱ كتاب الإيمان ح ۱۵۵ عدى الجملة الأخيرة.

۲- صحيح البخارى ۱۵۸۱: ۴ ح ۴۰۹۴ ومسند احمد ۱۰: ۴- ۱۱

۳- بحار الأنوار ۲۴۲: ۶۸

۴- مشكاة المصابيح ج ۱۲- ۱۴

۵- المحاسن: ۲۸۵؛ وبحار الأنوار ۲۴۳: ۶۸

۶- الكافى ج ۲ ص ۲۵؛ وبحار الأنوار ۲۴۸: ۶۸

ص: ۲۰۰

وعن رسول الله (ص) أنه قال: «من وحّد الله وكف بما يعبد من دونه حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله» (۱).

وعن أبی عبدالله الصادق (ع) أيضاً عن رسول الله (ص) أنه قال: «أيها الناس إنّی أمرت أن أقاتلكم حتی تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنی محمد رسول الله، فإذا فعلتم ذلك حقنتم بها أموالكم ودماءكم إلّا بحقّها وكان حسابكم علی الله»(۲) .

وروی الدارمی عن رسول الله (ص) أنه قال: «إنّی أمرت أن اقاتل الناس حتی يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت علیّ دماؤهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم علی الله» (۳).

عن أبی سعيد الخدری قال: وجد قتيل علی عهد رسول الله (ص)، فخرج مغضباً حتی رقی المنبر فحمد الله وأثنی عليه، ثم قال: «يقتل رجل من المسلمين لا يُدری من قتله، والذی نفسی بيده لو أنّ أهل السماوات والأرض اجتمعوا علی قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله فی النار»(۴) .

وروی مسلم فی (الصحيح) روايتين عن رسول الله (ص) نعرف منهما عظيم حرمة «لا إله إلا الله» وحرمة القائل بها، ولو كان القائل بها قد تظاهر بها ليحمی نفسه من القتل، وأنّ هذه الكلمة تعطی قائلها وحاملها من الحرمة ما لا يجوز لأحد انتهاكها إلّا بحقه.

روی مسلم أنّ رسول الله (ص) بعث بعثاً من المسلمين إلی قوم من المشركين،

۱- مسند أحمد بن حنبل ۴۷۲: ۳

۲- المحاسن: ۲۸۴، بحار الأنوار ۲۸۲: ۶۸

۳- سنن الدارمی ۲۱۸: ۲، ورواه بلفظ قريب منه عن رسول الله ۹ البخاری فی ۵۷: ۱ من الصحيح فی فضل استقبال القبلة، وأبو داود فی السنن ۴۱: ۲- ۴۲ باب علی ما يقاتل المشركون، واحمد بن حنبل فی المسند ۱۹۹: ۳، و ۴۴۵: ۲، ۳۳۹: ۳، و ۸: ۴- ۹، وابن ماجة فی السنن ۱۲۸۵: ۲- ۱۲۸۶، والنسائی فی السنن ۱۰۹: ۸

۴- بحار الأنوار ۱۵۰: ۷۵

ص: ۲۰۱

وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإنّ رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلّا الله فقتله، فجاء البشير إلى النبى (ص)، فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله قال: لِمَ قتلته؟ قال: يا رسول الله اوجع فى المسلمين، وقتل فلاناً وفلاناً وسمّى له نفراً، وإنّى حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله (ص):

أقتلته؟ قال: نعم، قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال:

يا رسول الله استغفر لى، قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: فجعل لا يزيد على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة» (۱).

وروى مسلم أيضاً عن أسامة بن زيد أنه قال:

«بعثنا رسول الله (ص) فى سرية فصبحنا الحرقات (۲) من جهينة فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع فى نفسى من ذلك فذكرته للنبى (ص) فقال رسول‌الله (ص): أقال لا إله إلّا الله وقتلته! قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فمازال يكررها علىَّ حتى تمنّيت أنى أسلمت يومئذ» (۳).

ورغم أنّ القتيل كان مقاتلًا يقاتل المسلمين فى صفوف الكافرين حتى اللحظة الأخيرة، ونطق بكلمة التوحيد فى اللحظة الأخيرة عندما وجد السيف على رأسه، وواضح من كل القرائن أنّ الرجل شهد ب- لا إله إلّا الله خوفاً من

۱- صحيح مسلم ۶۸: ۱- ۶۹

۲- الحرقات بضم المهملة والراء وقاف بعدها من جهينة، هم بنو حميس بن عمرو بن ثعلبة بن مودوعة بن جهينة، كما فى جمهرة ابن حزم: ۴۴۶

۳- صحيح مسلم ۶۷: ۱

ص: ۲۰۲

القتل، وليس عن إيمان، كما قال أسامة بن زيد .. إلّا أنّ رسول الله (ص) غضب غضباً واضحاً، وأنكر على أسامة بشدة وقوة، وكرّر إنكاره على أسامة حتى تمنى أسامة أن يكون قد أسلم فى ذلك اليوم، حتى يكون الإسلام قد جبَّ من ذنوبه ما سبق.

خطبة رسول الله (ص) بمنى

وهذه الخطبة ألقاها رسول الله (ص) فى جموع المسلمين الغفيرة بيوم النحر بمنى، وقد روى هذه الخطبة ثقاة المحدثين بألفاظ متقاربة، ونحن ننقل الخطبة برواية الإمام أبى عبدالله الصادق (ع)، ويغنينا اشتهار روايتها بين حفاظ الحديث النبوى عن ذكر مصادرها: عن زيد الشحّام عن أبى عبدالله الصادق (ع) أنه قال:

«إنّ رسول الله ۹ وقف بمنى حين قضى مناسكها فى حجة الوداع فقال: أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم، واعقلوه عنى، فإنى لا أدرى لعلىّ لا ألقاكم فى هذا الموقف بعد عامنا هذا، ثم قال: أىُّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم، قال: فأىّ شهر أعظم حرمة؟ قالوا هذا الشهر، قال: فأىّ بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد، قال: فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد، ألا من كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، فإنه لايحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلّا بطيبة نفسه، ولا تظلموا أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفّاراً»(۱) .

۱- روى هذه الخطبة جمع غفير من الحفاظ والمحدّثين من الفريقين ولشهرتها نعرض عن ذكر مصادر الخطبة.

ص: ۲۰۳

ثانياً: الجماعة، واللقاء، والحوار

اشارة

هذه ثلاثة عناوين يحبها الله تعالى، وهى أساس التقريب والتفاهم وجمع الشمل وهى:

(الجماعة) و (الاجتماع واللقاء) و (الحوار والتفاهم).

وهذه الثلاثة هى الأداة المفضلة فى دين الله لمكافحة الفتن الطائفية، وإزالة التقاطعات، والوصول إلى الانسجام والتفاهم والتعاون.

وسوف نشرح هذه الثلاثة، ونقف وقفات قصيرة عند كل واحد منها:

الجماعة (الأمّة)

نقصد بالجماعة: الأمّة الإسلامية الواحدة، وتتميز هذه الأمّة من سائر الأمم فى العقيدة والشريعة والرسالة، و رسالتها التعاون والتضامن الاجتماعى، على أداء هذه الرسالة، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ...

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِى) ((۱)).

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ((۲)).

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ) ((۳)).

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ

۱- يوسف: ۱۰۸

۲- آل عمران: ۱۰۴

۳- آل عمران: ۱۱۰

ص: ۲۰۴

عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ((۱)).

هؤلاء، جماعة هذه الأمة، يحملون هماً واحداً، ومسؤولية واحدة، هى الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهم أسرة واحدة، متعاونة ومتفاهمة ومتعاطفة (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)، وهم يؤمنون جميعاً بالله ورسوله، ويطيعون الله ورسوله؛ فإنّ الدعوة إلى الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لايكون إلّا مع الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله و رسوله.

إذن هذه الجماعة تحمل ثلاث خصال:

۱- الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله.

۲- الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة ..

۳- التفاهم والتعاون والتعاضد والتواصى بالحق والصبر فيما بينهم.

(إِلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) ((۲)).

وعليه فإنّ مفهوم (الجماعة) بهذا التوضيح يلتقى مفهوم (الأمة)، ويتحد معه.

وهذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى، لا ريب فى ذلك.

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) ((۳)).

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) ((۴)).

وهذه الأمة بعرضها العريض أمّة واحدة، لها عقيدة واحدة، وشريعة واحدة، و منهاجاً واحداً، ودعوة واحدة، وسبيل واحد، ورسالة واحدة، يؤدّونها مجتمعين.

وهذه الوحدة والاجتماع فى الأداء، وتحمّل المسؤولية، والوحدة فى العقيدة والشريعة والدعوة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هى التى تجعل من هذه

۱- التوبة: ۷۱

۲- العصر: ۳

۳- الأنبياء: ۹۲

۴- المؤمنون: ۵۲

ص: ۲۰۵

الأمة جماعة واحدة.

وقد ورد التأكيد على هذا الاجتماع، والوحدة فى الأداء، والوحدة فى الموقف والعمل فى آيات عديدة من القرآن.

منها قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا) فإنّ الآية الكريمة تحمل معنيين:

الاعتصام بحبل الله، وهذا هو المعنى الأول، وأن يكون هذا الاعتصام من قبل الجميع (جميعاً) وهذا هو المعنى الثانى.

ومنها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِى السِّلْمِ كَآفَّةً) ((۱)).

والآية الكريمة كذلك تحمل معنيين:

۱- الدخول فى السلم.

۲- وأن يكون هذا الدخول من قبل الجميع، (كافة).

وقد ورد التأكيد فى أحاديث كثيرة متضافرة على لزوم الجماعة، منها ما رواه الفريقان عن رسول الله (ص) فى الخطبة التى خطبها فى مسجد (الخيف) بمنى عام حجة الوداع، وإليك هذا الخطاب النبوى الشريف:

«نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها، وبلغها من لم تبلغه، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لائمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون أخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواه، يسعى بذمتهم أدناهم»(۲) .

وهذا خطاب شريف يتضمن ثلاث دعوات، وأية دعوات؟

۱- الإخلاص فى العلاقة بالله.

۱- البقرة: ۲۰۸

۲- بحار الأنوار ۶۹: ۲۷ ح ۷

ص: ۲۰۶

۲- والنصيحة فى العلاقة بأئمة المسلمين وأولياء الأمر:.

۳- واللزوم لجماعة المسلمين فى العلاقة بالأُمة.

وسلامة الفرد والمجتمع بسلامة هذه العلاقات الثلاثة:

۱- العلاقة بالله.

۲- والعلاقة بأئمة المسلمين.

۳- والعلاقة بجماعة المسلمين.

فإذا سلمت علاقة الفرد بهذه المحاور الثلاثة، يسلم الفرد، وتسلم الأمة.

اللقاء والاجتماع

ورد فى النصوص الإسلامية التأكيد على اللقاء والاجتماع والنهى عن الاختلاف والتفريق والتقاطع داخل الجماعة المسلمة، والنهى عن الخروج عن جماعة هذه الأمة والشذوذ عنها.

عن رسول الله (ص): «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة»(۱) .

وعنه (ص): «اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة. فعليكم بالجماعة، فإنّ يد الله مع الجماعة، ولم يجمع الله أمتى إلّا على هدى، واعلموا أنّ كل شيطان (البعيد من الحق) هوى فى النار»(۲) .

وعنه أيضا (ص): «لا يجمع الله أمر أمتى على ضلالة أبداً، اتبعوا السواد الأعظم، من شذّ فى النار»(۳) .

وعن أمير المؤمنين (ع): «ألزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإنّ الشاذ من الناس للشيطان، كما أنّ الشاذ من الغنم للذئب، فلا تكونوا

۱- ميزان الحكمة ۷۶۵: ۱

۲- كنز العمال ۲۰۵: ۱ ح ۱۰۲۵

۳- ميزان الحكمة ۴۰۶: ۱

ص: ۲۰۷

أنصاف الفتن، وأعلام البدع، وألزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة»(۱) .

وعن الإمام الصادق (ع) انه قال: «إنّ قوماً جلسوا عن حضور الجماعة، فهمّ رسول الله ۹ أن يشعل النار فى دورهم حتى خرجوا وحضروا الجماعة مع المسلمين»(۲) .

وقد جعل الله تعالى فى لقاء المؤمنين رحمة وبركة وخيراً كثيراً، وجعل اللقاء والحوار من منازل رحمته وبركاته ...

كما أنّ الشيطان يجعل من التباعد سبباً للنفور والقطيعة والخلاف.

واللقاء لا يتمّ من غير حوار عادة، فهما متلازمان من ناحية اللقاء، وقد رأينا بركات كثيرة فى اللقاءات الأخيرة المعاصرة التى تمت فى إيران بعد قيام نظام الجمهورية الإسلامية ... بين المذاهب الإسلامية فقد كانت هذه اللقاءات مصدر خير كثير فى حياة هذه الأمة، تعارف خلالها بعضهم على بعض، وتحابوا، ووجدوا فرصاً واسعة للتفاهم والتعاون، لم يكونوا يعرفوها من قبل ... فى هذه اللقاءات إرتفع كثير من اللبس والغموض الذى كان ينظر من خلاله بعضهم إلى بعض من قبل، واكتشفوا مساحات مشتركة واسعة جداً فى الفكر والثقافة والمعرفة، كانوا يعدونها من قبل مما ينفرد بها بعضهم عن بعض.

(الجماعة) و (الجمعة)

إنّ اجتماع المؤمنين واللقاء بينهم أمر يحبّه الله تعالى، وما يحبّه الله يجعل فيه البركة والخير، ويجعله من منازل رحمته.

وهذا اللقاء، وما يستتبعه من الحوار يدخل فى صلب التشريع .. فقد شرَّع الله فى

۱- نهج البلاغة: الخطبة ۱۲۷

۲- مستدرك الوسائل ۴۵۰: ۶

ص: ۲۰۸

هذا الدين للمسلمين (الجماعة) و (الجمعة) و (الحج) ..

ويدخل فى (الجمعة) صلاة العيدين الفطر والأضحى.

وهذه الثلاثة (الجماعة، والجمعة، والحج) تجمعات إسلامية ثلاثة تجمع المسلمين من مختلف الأقاليم و القوميات والمذاهب والاتجاهات والاجتهادات .. ولاشك أنّ الحالة العبادية والذكر فى الصلاة والحج جزء لا يتجزأ من هذه الثلاثة ... إلّا أن حالة اللقاء والاجتماع أمر مقصود فى هذه التشريعات الثلاثة من دون شك.

ورغم أن الإنسان يُقبل على صلاته فى الخلوات أكثر من الإقبال عليها فى الاجتماعات ... مع ذلك كله يفضّل الإسلام إقامة الفرائض اليومية جماعة على الصلاة بالانفراد، وذلك نظراً لأهمية التقاء المؤمنين وتواجدهم فى ساحة واحدة.

وقد بلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أنّ رسول الله (ص) هدد أقواماً كانوا مقاطعين لصلاة الجماعة فى المدينة بأن يحرق بيوتهم، كما فى الرواية.

روى الشيخ الطوسى فى التهذيب عن الصادق (ع): أنّ أناساً كانوا على عهد رسول الله (ص) ابطئوا عن الصلاة فى المسجد، فقال رسول الله (ص): «ليوشك قوم يدعون للصلاة (يَدَعون الصلاة ظ) فى المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم النار فنحرق عليهم بيوتهم» (۱).

وكذلك الاهتمام بأمر (الجمعة) فى الإسلام وتحشيد المؤمنين من كل منطقة فى جامع عام لإقامة الجمعة، وقد روى عن الإمام الباقر (ع):

«صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإنّ ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض، من غير علة إلّا منافق»(۲) .

۱- التهذيب ۲۵: ۳، ووسائل الشيعة ۳۷۶: ۵، نقلًا عن ميزان الحكمة ۴۱۰: ۵

۲- وسائل الشيعة ۴: ۵ نقلًا عن ميزان الحكمة ۴۲۶: ۵

ص: ۲۰۹

واجتماع الحج هو الاجتماع الأوسع للأمة كلها، تجتمع فی موعد واحد ومكان واحد، لإقامة هذه الفريضة، وهو أوسع اجتماع يعرفه الناس على وجه الأرض .. يقيمه المسلمون فی كل عام تلبية لأذان أبيهم أبی الأنبياء إبراهيم (ع) (وَأَذِّن فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) ((۱)).

الجماعة والجمعة تجمعان كل الشرائح والمذاهب

وقد حرص الإسلام أن يحضر المسلون بكل مذاهبهم واتجاهاتهم هذه الاجتماعات الثلاثة لأداء الفريضة اليومية وصلاة الجمعة وفريضة الحج مجتمعين.

وكان أئمة أهل البيت: يؤكدون لشيعتهم حضور الجماعات والجمعات لأهل السنة.

عن الإمام الصادق (ع): «من صلّى خلفهم كان كمن صلّى خلف رسول‌الله ۹».

وفی حديث آخر عنه (ع): «إذا صليت معهم غُفِرَ بعدد من خالفك فی قراء البسملة وحضر الصلاة فی المسجد».

وذلك أنّ الأحناف من أهل السنة يلغون البسملة فی القراءة، على خلاف مذهب أهل البيت: فی اعتبار البسملة جزءاً من كل سورة، إلّا سورة التوبة.

ويشكو أحد الرواة إلى الإمام الصادق (ع) حاله فی حضور صلوات جماعة أهل السنة يقول: إنّ لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم، فقال (ع): «ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكن أنت أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقل خيراً».

ويقول الإمام الصادق لإسحاق بن عمار: «يا إسحاق أتصلی معهم فی

۱- الحج: ۲۷

ص: ۲۱۰

المسجد؟ قال: قلت نعم، قال: صلّ معهم فإنّ المصلى معهم فى الصف الأول كالشاهر سيفه فى سبيل الله».

*** إنّ من الضـرورى تعبئة الجماعات والجمعات بحضور الشـرائح الإسـلامية المختلفة من كل المذاهب والطوائف الإسلامية، وكسر الحواجز الطائفية والمذهبية فيهما.

ومن الضرورى أن يكون خطاب أئمة الجمعات والجماعات، خطاباً تقريبياً، وحدوياً، توحيدياً، يكسب كل الفرق والطوائف الإسلامية، ولا يفرّقهم ولايُنَفِّرُهم.

ومن الضرورى تعبئة الحج بالحوار الهادف الموجّه بين المسلمين فى شؤونهم السياسية والثقافية والاقتصادية.

مساحات اللقاء والحوار

أهم مساحات اللقاء والحوار، هى المساحـة الثقافيـة، والمعرفية، والمساحة السياسـية، والمساحة الاقتصادية، والاختلاط العائلى بالتزاوج والمصاهرة.

اللقاء، والحوار الموجّه فى شؤون الثقافـة والمعرفـة، يؤدى إلى تقريب وجهات النظر من المذاهب الإسـلامية فى شؤون المعرفة والعلم، كالفقه واصول الفقه والكلام والتفسير.

ويؤدى إلى اكتشاف مساحات مشتركة بين المذاهب الإسلامية فى مختلف أبواب المعرفة، ويتبين لهم أنّ الخلاف فى ما بين المذاهب الإسلامية فى هذه المسائل لم يكن إلّا خلافاً لفظياً، وهم متفقون على جوهر هذه المسائل.

كما يؤدى إلى التكامل والتلاقح العملى لدى الجميع.

ص: ۲۱۱

وقد كانت هذه الطريقة مألوفة لدى العلماء، وطلبة العلوم من المذاهب الإسلامية المختلفة، فى التردد على المدارس، والحوزات العلمية المختلفة لتلقى العلم، رغم اختلاف المذاهب .. وكان لهذا الترافد العلمى والثقافى أثر كبير فى إثراء المعرفة والثقافة الإسلامية، وتكامل العلوم والمعارف لدى المسلمين.

المساحة السياسية مساحة واسعة ... وهذه المساحة اليوم أصبحت مساحة لهواة السياسة، والإنتهازيين، واللاعبين الدوليين فى السياسة، وأنّ للسياسة لاعبين، يلعبون فى هذه المساحة كما يلعب اللاعبون من هواة الشعبذة والمسرح .. ويقيسون العمل السياسى ويفهمونه ويقيّمونه بنفس المقاييس التى يفهم فيها الناس العاب التمثيل السينمائى .. يكذبون ويُكَذّبون حتى يصدقهم الناس، ويستخدمون بيوت أموال المسلمين بسخاء لكسب آراء الناس، ويبطلون الحقائق، ويحققون الزيف والكذب والباطل، بأدوات الكذب والتضليل والتغرير.

وللأسف أنّ المساحة السياسية فى العالم اليوم تحكمها هذه العصابات، إلّا ما ندر وشذّ، ولا نطيل فى هذا الحديث، وسوف يطول موقفنا بين يدى الله تعالى يوم السؤال الأكبر والمحاسبة الكبرى (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ) ((۱)) تجاه هذه القضية.

فقد عرف الناس الظالمين، وسكتوا عنهم، وجاوروهم وتعاونهم معهم، ولم يحرّكوا ساكناً، ولم يزعجوهم بموقف أو كلمة، وتركوهم يمرحون ويلعبون بمصالح هذه الأمة وقضاياها الكبرى، وينهبون ثرواتها، ويمكّنون أنظمة الاستكبار العالمى من بلاد المسلمين، إلّا القليل النادر، الذين نهضوا بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجابهوهم بكلمة الحق، وكسروا كبريائهم وأذلوا غرورهم .. وهؤلاء

۱- الصافات: ۲۴

ص: ۲۱۲

قلة فی هذه الأمة، ولكنّها قلة مباركة.

والسبيل الوحيد إلى طرد هذه العصابات السياسية الانتهازيّة من الساحة الإسلامية السياسية هو حضور جمهور المسلمين فی هذه الساحة، حضوراً مُوحّداً بالإيمان والوعی والعطاء.

إنّ حضور الجمهور فی الساحة يغيّب هذه العصابات، ويسلب منهم الأضواء التی يتألّقون بها، وتكشفهم وتعرّيهم.

وهذا الحضور عبادة، بمستوى الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر، لأنّه يطرد حملة المنكر من الساحة، ويفتح المجال للمعروف والعاملين به.

وهذا الحضور عبادة، كما أنّ الصلاة والصيام عبادة، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر.

شريطة أن يكون هذا الحضور عن وعی وبصيرة، وليس حضوراً غوغائياً انفعالياً، وبشرط أن يحمل هذا الحضور خصلة المقاومة والعطاء، وليس حضوراً واهياً ضعيفاً انفعاليّاً، تفرّقه طلقات من الرصاص والغازات المسيلة للدموع.

وبشرط أن يكون هذا الحضور حضوراً وحدوياً، تتجسّد فيه وحدة الصف.

ويتم الحوار فيه على أساس مصلحة الإسلام الكبرى، ويتعامل الجمهور فی هذه الساحة من منطلق (الأمة الواحدة)، ويتفقون فيها على موقف واحد ورأی واحد.

إنّ مثل هذا الحضور واللقاء والحوار عندما يعمّ الساحة الإسلامية، وينتشر فی العواصم والحواضر والمراكز الإسلامية، يكون له دور كبير فی توجيه قضايانا السياسية ... ولست أريد أن أشُطَّ فی الخيال وأقول: إنّ حضور الناس فی المساحة سوف يؤدی إلى تغيير شامل لأوضاعنا السياسية الفاسدة فی العالم الإسلامی، ولكنني أقول إنّ هذا الحضور الواحد الشامل سوف يُعدّل كثيراً من قرارات

ص: ۲۱۳

الأنظمة السياسية الكبرى، مثل قرار (التطبيع)، وتبادل السلام بالأرض فى فلسطين، والموقف من الإحتلال الأمريكى للعراق وأفغانستان والموقف من المسألة النووية الإيرانية، والموقف السلبى الذى اتخذته الأنظمة العربية من (حماس) فى خلافها مع (منظمة التحرير الفلسطينية)، تبعاً للموقف الأميركى- الأوربى- الإسرائيلى، والموقف من التأييد الأمريكى لإسرائيل والرفض الأمريكى للمقاومة الإسلامية فى لبنان وفلسطين (حزب الله وحماس والجهاد)، و ضرورة التفكيك بين (المقاومة) و (الإرهاب)، واحترام الأول وتبنّيه، ونبذ الثانى ورفضه ...

إنّ مثل هذا اللقاء والحوار فى الساحة الإسلامية العريضة من أهم ضرورات المرحلة، شريطة أن نحصّن هذا اللقاء والحوار من نفوذ الأنظمة واختراقاتها، فإنّ الأنظمة الحاكمة فى العالم الإسلامى، تملك من وسائل إختراق الساحة ما يهدّد وحدة الساحة ووعيها، ويؤدى إلى تفريقها وتضليلها، وقد شاهدنا فى حياتنا السياسية المعاصرة نماذج كثيرة من هذا الاختراق والتضليل والتجهيل والتفريق.

شروط اللقاء والحوار

ولكى يكون هذا اللقاء والحوار نافعين يجب أن يتوفر فيهما الشروط التالية:

فقد تتدافع الأطراف الإسلامية فيما بينها، ولا يصلون إلى قناعة مشتركة، عند ذلك يجب عليهم أن يقدّموا المصلحة الإسلامية العليا على كل مصلحة .. وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) قدوة لكل المسلمين فى ذلك .. يقول (ع) فيما جرى عليه من بعد رسول الله (ص) فى تقديم الآخرين عليه فى أمر الولاية والخلافة، وتنحيته عن حقّه فى هذا الأمر:

«فوالله ما كان يلقى فى روعى، ولا يخطر ببالى أن العرب تُزعج هذا الأمر من

ص: ۲۱۴

بعده ۹ عن أهل بيته، ولا أنهم مُنَحَّوهُ عنى من بعـده، فما راعنى إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسـكت يـدى (عن البيعـة)، حتى رأيت راجعـة الناس قد رجعت عن الإسـلام، يَدْعُون إلى محق دين محمد ۹، فخشـيت إنْ لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة بها علىّ أعظم من فوت ولايتكم»(۱) .

إنّ سوء الظن إذا اسـتولى على الناس فى علاقـة بعضـهم ببعض أفسـد اللقاء، وكانت نتائـج اللقاء سـلبية .. وإنّ سوء الظن آفـة كل لقاء وحوار وعمل مشترك ... وقد نهانا الله تعالى عن سوء الظن فى دائرة العلاقات التى تربط المسلمين بعضهم ببعض: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)(۲) .

إنّ تعاطى سوء الظن فى العلاقة يفسد العلاقة ويلغيها.

عندما نكون فى منعطف تاريخى حساس، كالمنعطف الذى تعيشه الأُمّة الإسلامية اليوم.

وعندما تكون الأمة الإسـلامية ناهضة، وتخوض صـراعاً مريراً فى مواجهة الأنظمة المرتبطة بعجلة الاسـتكبار العالمى وأنظمة الاسـتكبار العالمى التى تقف خلف هذه الأنظمة.

وعندما تُحشّد أنظمة الاسـتكبار العالمى كل إمكاناتها لمواجهة التيار الإسلامى العظيم، الذى يعمّ كل العالم الإسلامى، وكان الموقف بيننا وبين الاستكبار العالمى

۱- نهج البلاغة: كتاب رقم ۶۲

۲- الحجرات: ۱۲

ص: ۲۱۵

موقفاً تاريخياً مصيرياً فاصلًا ...

أقول عنـد ذلك فإنّ من أفدح الأخطاء فی ظروف صـعبة وعسـيرة مثل هذه الظروف، أن تغلب العاطفة والانفعال والشـعار علی مواقفنا السياسية، ولقاءاتنا، وخطابنا لجماهيرنا، وحواراتنا المتبادلة داخل البيت الإسلامی الكبير.

إنّ لغـة العاطفـة والانفعـال والشـعار، كمـا هو نـافع فی إثـارة الهمم وإنهـاض الجمهور، يُمكنُ أن يتحول فی بعض الحالاـت إلی ألغام سريعة الانفجار تُحَوّل الساحة إلی ساحات للسجال والجدال العقيم الضار.

ونتمنی، لو أنّ طرفـاً أو جهـة أو شـخصاً أراد أن يسـتخدم هـذه اللغـة فی إثارة التشـنج فی صـفوف المسـلمين، ويعكر صـفو العلاقات الإسلامية داخل الصف الإسلامی ... من أیّ مذهب، وأيّة طائفة، نتمنی أن يواجهه الآخرون بالعقلانية الإسلامية، والدعوة إلی ما يأمرنا الله تعالی به من الاعتصام بحبل الله (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ) والنهی عن التفرقة (وَلَا تَفَرَّقُواْ).

إنّ الحالة السياسـية والإعلامية فی العالم، والعلاقات السياسـية والاقتصادية بين أنظمة الاسـتكبار العالمی، والأنظمة التابعة لها فی العالم الإسـلامی، والعلاقة بين السياسة والإعلام ... حالات معقدة شديدة التعقيد، ويدخل فی تكوينها عوامل غير مرئية كثيرة، وما يظهر علی السطح من التصريحات والعلاقات لا يعبّر عن كل شیء ...

أذكر فی المصالحـة التی تمت بين نظام عربی وإسـرائيل بالوساطة الأمريكية ... فتصافح زعيمان من الطرفين أمام أضواء الكاميرات فی حضور الرئيس الأمريكی فاجأ الرئيس الأمريكی المسؤول العربی بالسؤال التالی:

ص: ۲۱۶

منذ كم كانت لكم علاقة وارتباط ولقاءات مع المسؤولين فى إسرائيل؟

فقال المسؤول العربى الكبير مأخوذاً بهذه المفاجأة ممتعضاً من هذا الإحراج: منذ عشرين عاماً.

إنّ هـذا السؤال والجواب يكشف عن الاحتقـار الأـمريكى لجملـة من زعمـاء الأنظمـة العربيـة الـذين تحميهم أمريكا نفسـها، ويحمون مصالحها، كما تكشف عن عمق الفساد السياسى فى طائفة من الأنظمة العربية.

منذ عشـرين عاماً يتعامل مع إسرائيل، ويتعاطى معها، ويلتقى بقادتها فى لندن وواشنطن .. ولا يعرف الناس على سطح الإعلام السياسى عنه إلّا لغة الشجب والتهديد لإسرائيل ..!!

إنّ هذه الأنظمة السياسية، بين الواقع والتصريحات التى يقدمونها للإعلام، تشبه الكتل الثلجية العائمة على مياه البحار، تسعة أعشار منها غاطسة فى الماء لا تُرى، وعُشْرٌ منها فقط تظهر على سطح الماء ...

إنّ هذه الأنظمة بين واقعها الغاطس فى مستنقع العلاقة بأنظمة الاستكبار العالمى، والشطر الظاهر المسموع والمرئى منها فى الإعلام، تشبه هـذه الكتـل الثلجيـة .. ومن أفـدح الخطأ أن نتعامـل مع هـذه الأنظمـة من خلال الإعلام المرئى والمسـموع، ومن خلال الخطب والتصريحات السياسية التى يطلقوها بين حين وآخر.

إنّ لقاءاتنـا السياسـية، وخطابنـا السياسـى، يجب أن يمتلـك خلفيـة غنيـة من الوعى السياسـى، والإحاطـة بالظروف السياسـية المعقـدة، والمعرفة بالخلفيات السياسية التى تقع خلف المواقف والقرارات والتصريحات السياسية.

ومن دون هذا الوعى السياسـى سوف يقع جمهورنا وساحتنا فى تخبّط سياسـى واسع ... ونحن قد تحدثنا عن ضـرورة الوعى السياسـى وأهميته الكبيرة فى هذه

ص: ۲۱۷

المرحلة ... وعلى علماء المسلمين، وخطبائهم، ومثقفيهم، والحركات الإسلامية، إشاعة الوعى السياسى ونشره، فى الأوساط الإسلامية الشعبية.

قد ينقلب الحوار إلى جدال عقيم، بل ينقلب إلى عائق يعيق حركة الأمة، وحجاب يحجب المسلمين بعضهم عن بعض، وقد يكون الحوار جسراً للتفاهم والتعاون والتلاقى فى المساحات المشتركة السياسية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمة، وذلك عندما يكون الحوار بالأسلوب الذى علّمنا الله تعالى ب- (التى هى أحسن، وأقوم للعلاقة الحسنة والتفاهم بين المسلمين)، يقول تعالى: (وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) ((۱)).

ويقول تعالى: (وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ) ((۲)).

ولا سبيل لدفع (نزغ الشيطان) فى العلاقة بين أطراف هذه الأمة إلّا أن يخاطب بعضنا بعضاً بأحسن ما نستطيع عليه من القول.

إنّ علينا أن نحصّن هذه اللقاءات والحوارات الإسلامية من نفوذ الأنظمة التى تقع تحت سلطان أنظمة الاستكبار العالمى واختراقها، فإنّ هذه الأنظمة تملك من وسائل الإعلام والاستخبار ما يمكّنها من اختراق هذه اللقاءات والحوارات، وإحباطها وإفسادها ... ولكى نتمكن من تفعيل هذه اللقاءات واستثمارها يجب علينا أن نحصّن هذه اللقاءات من نفوذ هذه الأنظمة واختراقاتها.

۱- النحل: ۱۲۵

۲- الإسراء: ۵۳

ص: ۲۱۸

أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) فى ضرورة اللقاء والحوار

كان أهل البيت: يوجهون شيعتهم واتباعهم دائماً إلى اللقاء والاجتماع بأهل السنة، والحضور معهم فى جوامعهم، واجتماعاتهم، ومجالسهم، وندواتهم، وينهونهم عن الابتعاد عنهم، ويؤكدون لهم بضرورة التواجد فى الساحة الإسلامية العامة، وحضور الجمعات والجماعات، وتوحيد المواقف فى الحج، ولم يردنا- ولا حديث واحد- عن انفراد أئمة أهل البيت: فى موقف من مواقف الحج عن الموقف العام الذى كان يحدده الحكام فى تلك البرهة، لعامة المسلمين.

وقد تصدى بعض المنحرفين عن أهل البيت: للدسّ فى أحاديثهم: لعزلهم وعزل شيعتهم عن الوسط الإسلامى الكبير .. وكانت هذه الأحاديث على أنحاء، منها أحاديث الغلوّ، ومنها أحاديث التحريف، ومنها أحاديث فيها تخليط فى الفقه، ومنها أحاديث فيها انتقاص وتسقيط لأهل البيت:، ومنها أحاديث فى الطعن واللعن على خصومهم.

وكانوا يعملون لإشاعة هذه الأحاديث عنهم:، وقد روى عن الإمام الصادق (ع) فى هذا المعنى: «إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، فيسقط صدق كلامنا بكذبه»(۱) .

وعنه (ع) أيضاً: «إنّ المغيرة بن سعيد دسّ فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها أبى، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبيّنا» (۲).

وروى عن يونس عن أبى الحسن الرضا (ع)، قال: «إنّ أبا الخطاب كذّب على على بن أبى طالب ۷، لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبى الخطاب، يدسّون من هذه الأحاديث إلى يومنا هذا فى كتب أصحاب أبى عبدالله ۷ فلا

۱- رجال الكشى: ۳۰۵ الرقم ۵۴۹

۲- المصدر السابق: ۱۹۵ ترجمة المغيرة بن سعيد.

ص: ۲۱۹

تقبلوا علينا خلاف القرآن»(۱) .

وعن أبى الحسن الرضا (ع) فى حديث إلى ابن أبى محمود: «يابن أبى محمود، إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً فى فضائلنا، جعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلوّ، وثانيها التقصير فى أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا» (۲).

وقد كان أئمة أهل البيت: يعملون لكسر هذا الطوق عنهم وعن شيعتهم بتكذيب هذه الأحاديث، وفضح الوضّاعين الذين كانوا يضعون عليهم من الحديث ما لم يتحدثوا به والتأكيد على رفض كل حديث يروى عنهم يخالف القرآن.

فكانوا يقولون: «فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبينا»، «فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن» (۳).

وكانوا يطلبون من فقهاء شيعتهم، ورواة أحاديثهم، أن يتحرّوا الأحاديث الصادقة المروية عنهم: ويحذروا ما وضعه النواصب، والمنحرفون عنهم، عليهم من الأحاديث المنتحلة، وكانوا يضعون لهم الأصول والقواعد العلاجية لمعرفة الأحاديث الصادقة من الأحاديث المتعارضة، والأحاديث الضعيفة، وكانوا يَدْعُون شيعتهم للتعايش مع سائر الطوائف الإسلامية، والانفتاح عليهم، والتعاطى العلمى والثقافى معهم وحضور اجتماعاتهم وصلواتهم.

وكانوا لا يرضون لشيعتهم أن يعتزلوا الوسط الإسلامى العام، فهم جزء من هذه الأمة الكبيرة، واختلافهم عن أهل السنة فى بعض الفروع والأصول، ومقاطعتهم للحكام الظلمة الذين كانوا يحكمون المسلمين فى العصر الأموى

۱- رجال الكشى: ۲۲۴ الرقم ۴۰۱

۲- عيون أخبار الرضا ۳۰۳: ۱

۳- بحار الأنوار ۲۵۰: ۲ ح ۶۲

ص: ۲۲۰

والعباسى لم يكن يحمل معنى الاعتزال عن الساحة والانقطاع عنها.

وقد كان أئمة أهل البيت: يعيشون معهم وفى أوساطهم، ويجتمع إليهم المسلمون من كافة المذاهب والاتجاهات، ويحضرون مجالسهم، ويأخذون منهم العلم، ولو أحصينا أهل العلم الذين أخذوا العلم عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام)، لوجدناهم امة كبيرة من أهل العلم، وكانت مجالسهم ومحاضرهم عامرة بفقهاء المسلمين، وحملة الحديث النبوى، وأهل‌العلم من كل اتجاه ومن كل بلد ... وهذه الحالة يعرفها جيداً من يعرف حديث أئمة أهل البيت: وسيرتهم، وهى تعبّر عن حالة الانفتاح والتعايش المذهبى الإيجابى السليم لكل الاتجاهات والمذاهب الإسلامية. فى الوقت الذى كان أهل البيت: يرسمون ويوضحون لشيعتهم وللمسلمين عامة الخط الفكرى الصحيح فى الاصول والفروع بوضوح وصراحة وبشكل دقيق.

وفى أحاديث أهل البيت: دعوة واضحة وصريحة إلى هذا الانفتاح مع المسلمين والتعايش الإيجابى، والتواصل، والتعاطف، والتعاون معهم، وإليك نماذج‌من أحاديث أهل‌البيت: فى هذا الشأن:

روى محمد بن يعقوب الكلينى بسند صحيح فى الكافى عن أبى اسامة زيد الشحّام قال: قال أبو عبدالله (ع): «أقرأ على من ترى أنه يطيعنى منهم، ويأخذ بقولى السلام، أوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ والورع فى دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد ((ص)). وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، وأنّ رسول الله ((ص)) كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.

صِلُوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإنّ الرجل منكم إذا ورع فى دينه، وصدق الحديث و أدّى الأمانة، وحسن خلقه مع

ص: ۲۲۱

الناس قيل: هذا جعفرى، فَيُسَرّنى ذلك ويدخل علىّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل علىّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر، والله لحدثنى أبى ۷ إنّ الرجل كان يكون فى القبيلة من شيعة علىّ فيكون زينها، أدّاهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، واليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان أنّه أدّانا للأمانة، وأصدقنا للحديث» (۱).

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبى عبدالله الصادق (ع): كيف ينبغى لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال (ع) «تؤدون الأمانة إليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم»(۲) .

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت له (الصادق (ع)): كيف ينبغى أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ومن ليسوا على أمرنا فقال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم ويؤدون الأمانة لهم»(۳) .

وفى رواية اخرى للكلينى فى الكافى بسند صحيح عن حبيب الحنفى قال: سمعت أبا عبدالله الصادق (ع) يقول: «عليكم بالورع والاجتهاد، و أشهدوا الجنائز، و عودوا المرضى، وأحضروا مع قومكم مساجدهم، وأحبّوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحى الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حقّ جاره» (۴).

وبسند صحيح عن مرازم قال: قال أبو عبدالله الصادق (ع): «عليكم بالصلاة

۱- وسائل الشيعة ۳۹۸: ۸، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۱

۲- المصدر السابق، ح ۲

۳- المصدر السابق، ح ۳

۴- وسائل الشيعة ۳۹۹: ۸، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة، الباب الأوّل، ح ۴

ص: ۲۲۲

فی المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، إنه لابدّ لکم من الناس، أنّ أحداً لا یستغنی عن الناس فی حیاته، والناس لابد لبعضهم من بعض» (۱).

ثالثاً- الأعمال والمشاریع المشترکة

اشارة

قرأنا فیما سبق أنّ النقاط الثلاثة التالیة من أفضل المناهج لمکافحة الفتنة الطائفیة .. وهذه الثلاثة هی:

۱- الوعی والخطاب.

۲- اللقاء والحوار.

۳- العمل المشترک.

وقد تحدثنا فیما مضی عن النقطة الأولی والثانیة، وها نحن نتحدث إن شاء الله عن النقطة الثالثة، وهی العمل المشترک، سواءً کان العمل فی المجال العملی والثقافی أم فی مساحة العمل السیاسی، أم فی المساحة الاقتصادیة.

والتجارب العدیدة التی مارسها المسلمون فی الآونة الأخیرة فی المشاریع الاقتصادیة والفقهیة تؤکّد هذا المعنی.

و نظراً للتحدیات العظیمة التی یواجهها المسلمون الیوم لابدّ من مواجهة هذه التحدیات بالمشاریع الإسلامیة السیاسیة، والاقتصادیة، والثقافیة، التی یشترک فیها عامّة المسلمین من کل المذاهب والشرائح الإسلامیة، فلم تعد الأعمال الفردیة، و التی تقوم بها طائفة من المسلمین کافیة لمقابلة هذه التحدیات، فإنّ التحدیات التی تواجهنا فی ساحتنا أکبر من أن نقابلها بمثل هذه المشاریع.

إنّ مشاریعنا السیاسیة والاقتصادیة والثقافیة والإعلامیة یجب أن تکون بحجم

۱- المصدر السابق، ح ۵

ص: ۲۲۳

الأمة كلها .. عندئذ تكون يد الله مع هذه المشاريع، وعليها، إن شاء الله تعالى.

وعندئذ تكون هذه المشاريع والأعمال قادرة على مقابلة التحديات القويّة التى تواجهنا فى ساحة عملنا.

جدلية الشرعية و الواقع:

وسوف أتحدّث عن واحدة من هذه التحدّيات التى تواجهنا فى حياتنا السياسية والثقافية، و لايتأتّى لنا مقاومتها و إحباطها إلّا ضمن مشروع سياسى وثقافى كبير، وبتضامن إسلامى واسع على قدر سعة هذه الأمة.

أمامنا قضيتان متخالفتان ومتقاطعتان، فى ساحة حياتنا و يجب علينا أن نتعامل معها بالضرورة، وليس بوسعنا التشكيك فى أى منهما، وليس بوسعنا الإعراض عن أى منها أو كليهما ومقابلته باللامبالاة.

وليس بوسع أحد أن يشك فى هذه الحقيقة، وقد تلوت عليكم قريباً قوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ).

وقوله تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ).

وهذه حقيقة من حقائق الوحى.

و وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، من غير شك ولا ترديد، وإذا تعددت الولاءات والبراءات تتعدد الأمة، ولا تبقى الأمة واحدة، كما تخبرنا بها سورة (الأنبياء) و (المؤمنون).

و لايمكن فصل القيادة السياسية والنظام والقرار السياسى عن مسألة الولاء.

كما لايمكن فصل التقاطعات والصراعات السياسية والعسكرية بين الأنظمة عن مسألة البراءة ...

ص: ۲۲۴

أقول إنّ وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، فإنّ الولاء للقيادة السياسية الصالحة للأمة تأتى فى امتداد الولاية لله ولرسوله ولأولى الأمر .. يقول تعالى: (أَطِيعُواْ اللّهَ وَ أَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَ اوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ) ((۱)).

و وجود ولائين أو أكثر من ذلك- فى عرض بعض- ينافى وحدة الأمة ... فضلًا عما إذا كانت هذه الولاءات متعارضة فيما بينها، كما هو حاصل عادة فى الأنظمة السياسية المتعددة الواقعة على خطوط سياسية متعددة.

أما الولاءات السياسية الطولية (التى يقع بعضها فى امتداد بعض) فلا تنافى وحدة الأمة مهما تعددت وكثرت.

إذن لهذه الأمة، طبقاً لهاتين الآيتين الكريمتين من سورتى الأنبياء والمؤمنون قيادة واحدة صالحة .. وهذه هى الحالة الشرعية التى نطلبها فى نظام الحكم والقيادة السياسية للعالم الإسلامى.

هذه هى القضية الأولى (: الشرعية).

القضية الثانية: قيام أنظمة متعددة من الحكم فى طول العالم الإسلامى وعرضها ...

و هذه الأنظمة- فى الأغلب- لا تمثّل الحالة الشرعية لأنها غير صالحة، وغير مؤتمنة على دين الناس ودنياهم، وغير منتخبة من قبل الناس، وإنما تُفرض على الناس بآليات عسكرية، أو عبر وسائل أنظمة الاستكبار العالمى ... وهذه الأنظمة تفرض طاعتها والالتزام بقراراتها على الناس بالنار والحديد والعنف .. والتغرير والتجهيل الإعلامى.

ولابد للناس من الالتزام بقرارات هذه الأنظمة: وهذا هو (الأمر الواقع)

۱- النساء: ۵۹

ص: ۲۲۵

اللاشرعى.

و بين هذا (الأمر الواقع) و (الشرعية) تقاطع شديد ولكل منهما ثقافة، وسياسة، وقوانين، وأنظمة، وآليات، وقوة للتنفيذ.

هذه هى الجدلية القائمة بين (الشرعية) و (الأمر الواقع).

ماهو تكليف المسلم تجاه هاتين القضيتين (الشرعية المحظورة) و (الواقع المفروض).

(فلا يجوز) الاستسلام للأمر الواقع المفروض، وإلغاء الحالة الشرعية، و (لايمكن) تجاوز الأمر الواقع المفروض بالقوة من قبل الأنظمة ..

هذه هى الجدلية بين (ما لا يجوز) و (ما لا يمكن) وهى جدلية قديمة فى التاريخ الإسلامى.

فما هو موقف (الفقه الإسلامى) تجاه هذه الجدلية الصعبة.

منهج أهل البيت (عليهم السلام) الفقهى

إنّ منهج أهل البيت: الفقهى تجاه هذه الجدلية فى الفترة الطويلة التى عاشوها فى العصر الأموى والعباسى، تتلخص فى ثلاث نقاط:

۱- النهى عن إسناد هذه الأنظمة ودعمها، وتحريم (التعاون مع الظلمة)، فلايجوز للمسلم أن يقوم بأىّ عمل فيه إسناد و دعم لهذه الأنظمة غير الصالحة بأى شكل، ولو كان ذلك بإعداد ليقة دواة للحاكم الظالم .. وقد وردت روايات كثيرة عن أهل البيت: فى هذا المعنى؛ راجع أبواب: (حرمة التعاون مع الظلمة) فى مباحث المكاسب المحرمة، و كتاب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)، فى وسائل الشيعة وسائر كتب الحديث والفقه.

۲- الأمر بمعايشة الواقع السياسى الاجتماعى لأنّ الانفصال عنه بمعنى الخروج

ص: ۲۲۶

من ساحة الحياة والانتحار السياسى والاقتصادى.

ولا مناص للمسلمين من أن ينتظم أمر معاشهم ومعادهم ضمن هذا الواقع، و لامناص لهم من أن يعايشوا هذا الواقع، لتستقيم لهم أمور معاشهم و دينهم .. حتى لو يتطلب الأمر أن ينضمَّ المؤمنون إلى مواقع المسؤولية من هذه الأنظمة الفاسدة، ولكن لا لغاية إنعاشها ودعمها، وإنما لغاية تحقيق الضمان لمعيشة المؤمنين وخدمة الناس فى معايشهم ومكاسبهم؛ (راجع الروايات الواردة فى مستثنيات التعاون مع الظلمة و أبواب التقية).

فلايستغنى الناس عن المدارس والجامعات، وجهاز الشرطة، والمستشفيات، والمؤسسات الخدمية وغيرها، وكل هذه المؤسسات مؤسسات قائمة ضمن هذه الأنظمة الفاسدة ... لاحيلة للناس عنها، فيجوز الدخول فى هذه المؤسسات لخدمة الناس، و يجوز الاستفادة من هذه المؤسسات، و من دون ذلك تتعطل حياة الناس، والله تعالى لا يريد تعطيل حياة الناس.

وبين الأمر الأول (المحظور)، والأمر الثانى (السائغ) فرق واضح.

۳- العمل على تحويل هذا الواقع الفاسد إلى نظام صالح، و قيادة صالحة و قوانين وتشريعات صالحة.

و هذه النقطة الأخيرة تختلف من مجتمع إلى مجمع، فقد يتم ذلك عن طريق ثورة مسلحة، وقد يكون ذلك عن طريق الترحيل الثقافى والتبليغى للناس، و قد يكون بالوسائل الديمقراطية الحديثة، التى تمكّن الأكثرية الصالحة من الوصول إلى مواقع الحكم و تغيير الحكم إلى نظام صالح، و قيادة صالحة، بصورة سليمة، أو غير ذلك من الوسائل و الآليات؛ (راجع روايات باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأبواب الجهاد).

و هذه ثلاثة مشاريع عمل إسلامية سياسية، تتطلب مشاركة عامة من

ص: ۲۲۷

المسلمين، من كل المذاهب والفرق والشعوب الإسلامية التى تعانى من سلطة الحكومات الظالمة.

۱- مقاطعة الأنظمة الفاسدة وتحريم دعمها وإسنادها، ووجوب عزل هذه الأنظمة عن الأمة والتشهير بها وتسقيطها.

۲- المشاركة الإيجابية فى كل مسالك الحياة السياسية، و الاقتصادية، و الاجتماعية، و النفوذ إلى مواقع مختلفة من الحكم بهذه الذهنية، و لهذه الغاية.

۳- مشاريع أسلمة الأنظمة، وإقامة الدولة الإسلامية، على أسس شرعية، و ترحيل الحالة السياسية إلى قيام حكومة عالمية إسلامية صالحة، كما وعدنا الله تعالى فى كتابه .. وهذا المشروع يختلف من بلد إلى بلد، و من حالة سياسية إلى حالة أخرى، و لا يخضع لوصفة سياسية أو حركية واحدة.

المشروع السياسى الإسلامى

الأنظمة فى العالم الإسلامى- فى الغالب- غير صالحة، و لا يمكن الاعتماد عليها فى تقرير الموقف الإسلامى من القضايا السياسية الكبرى فى العالم الإسلامى .. ومن الواضح أنّ المواقف الرسمية للأنظمة تجاه القضايا الكبرى تبقى خاضعة لتأثير الدول الكبرى، و ليس بوسع هذه الأنظمة أن تتجاوز الخطوط الحمراء التى ترسمها دول الاستكبار العالمى ...

نعم، هناك مساحات صفراء يتحرك عليها هؤلاء الحكام .. وقد تكون هذه الحركة مخالفة لقرارات الدول الكبرى ...

أما الخطوط الحمراء، فليس بوسع هذه الأنظمة تجاوزها، مهما كان الثمن الذى تدفعها هذه الأنظمة .. مثل النفط، فليس بوسع هذه الأنظمة أن تستخدم «النفط» فى قضايا الأمة السياسية، والعكس حاصل فعلًا، فانّ الدول الكبرى، و مجلس

ص: ۲۲۸

الأمن يستخدمان العامل الاقتصادى سلاحاً قاطعاً فى قراراتها السياسية، و فى عقوبة الأنظمة التى تتجاوز الخطوط الحمراء، فى حين لا يجرأ حُكّامنا، أو لايملكون فى أكثر مناطق العالم الإسلامى، تجاوز الخطوط الحمراء، فيما يتعلق بأنظمة الاستكبار العالمى.

ومهما يكن السبب، فإنّ الساحة الإسلامية الواسعة، لاتمتلك اليوم مقومات القرار، و الموقف السياسى الراشد الإسلامى، إلّا ما يصدر بصورة عفوية من مواقف و قرارات، يتبناه جمهور المسلمين فى مختلف أقاليم العالم الإسلامى، كما رأينا ذلك فى التعاطف الشديد لمواقف المقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان (حزب الله)، من جانب جماهير المسلمين فى كل أقاليم العالم الإسلامى، وفى المهاجر الغربية.

و رغم أنّ الأنظمة العربية- فى الغالب- كانت ممتعضة من انتصار المقاومة، و ماسجلتها من انتصارات باهرة خلال ۳۳ يوماً إلّا أنّ تيار التضامن و التعاطف الإسلامى مع حزب الله كان أقوى من أن تعاكسها الأنظمة، و أدواتها الإعلامية المسخّرة لخدمة مواقفها السياسية ... و لكن هذه الأنظمة تمكّنت أخيراً من إبراز كراهيتها لانتصار حزب الله، فى الاصطفاف الواسع الذى قامت به إلى جانب فؤاد السنيورة، وجعجع، والحريرى، وجنبلاط، فى إفشال مشروع حكومة الوحدة الوطنية التى دعت إليها المعارضة .. و فى مقدمتها حزب الله؛ ولولا التصرف العقلائى لحزب الله فى هذا الموقف المعارض لاستئثار الأقلية بالحكم فى لبنان، لكانت العاقبة حرباً أهلية واسعة فى لبنان، إلّا أنّ (حزب الله) آثر ممارسة الاعتراض، بصورة سلمية، حتى عندما كانت الحكومة تقابل المعارضة بالعنف .. و كفى الله اللبنانيين القتال.

ومهما يكن من أمر فلابدّ للساحة الإسلامية الكبرى من أدوات نابعة من

ص: ۲۲۹

إرادة الأمّة، و من عمق الساحة لتنضيج القرار السياسی الذی يهم الأمة- كلها- و لتوحيد الرأی، والموقف السياسی فی القضايا الكبری، و تعميمها علی كل الساحة الإسلامية، و تحشيد الرأی العام الإسلامی لإسناده، و الوقوف إلی جانبه، و تفعيله فی الساحة من خلال المسيرات، والاحتجاجات، والهتافات، والإعلاميات، والآليات المشاعة التی يمتلكها الشارع، للتعبير عن موقفه، ورأيه، واعتراضه، واحتجاجه، وحبّه، وبغضه.

ومن دون وجود مشروع سياسی- مثل هذا المشروع- ينضّج الرأی السياسی الراشد الناضج الموحّد، تبقی الساحة معرّضة لأمواج الفتن السياسية، و ضغوط وسائل الإعلام الرسمية التی تجعل من الحق باطلًا ومن الباطل حقاً، و تقرّب البعيد، و تبعّد القريب.

وتبقی الساحة الإسلامية تتخبط بين اختلاف الآراء والمواقف، والفتن، والضغوط الإعلامية.

ولكی تسلم الساحة الإسلامية الكبری من هذا التخبّط، لابدّ من مشروع سياسی إسلامی كبير، خارج حوزة نفوذ هذه الأنظمة، تمارس هذه المسؤولية فی تنضيج القرار، والموقف الإسلامی، وتوحيده، وتعميقه، وتفعيله فی الساحة.

ولابدّ أن يمثّل هذا المشروع السياسی كل الشرائح والمذاهب والأقاليم الإسلامية تمثيلًا صادقاً حقيقياً، ليكون لرأی هذا التجمع الإسلامی، النفوذ والتأثير الفعلی علی كل الساحة الإسلامية.

ويكون هذا التجمّع مركزاً لتنضيج القرار الإسلامی الراشد الذی تتبناه الساحة الإسلامية كلها، فی المسائل الأمّ الكبری فی العالم الإسلامی، مثل قضية القدس والمسجد الأقصی، والقضية الفلسطينية، والاحتلال الإسرائيلی لأجزاء واسعة من أراضی الوطن الإسلامی من سوريا ومصر والأردن ولبنان؛ ومثل المشكلة

ص: ۲۳۰

الصوماليـة، و تـدخل القوى المتعـددة الجنسـيات فى دارفور؛ والمشـروع الإـيرانى النووى السـلمى؛ و الاحتلالـ الأـمريكى لأفغانسـتان والعراق؛ والموقف الأمريكى المعادى للقضيهٔ الفلسطينيهٔ، والداعم لإسرائيل؛ والموقف البريطانى، بل الاتحاد الأوروبى من دعم المرتد سلمان رشدى؛ والموقف الروسـى المتعنت من الولايات الإسـلاميهٔ كالشـيشان، وقضـيهٔ الصـحراء المغربيهٔ، واضطهاد الأنظمهٔ فى العالم الإسـلامى لأبنـاء الحركـهٔ الإسـلاميهٔ، كمـا فى الجزائر وتونس ومصـر، وكمـا فى العراق فى عهـد الطاغيـهٔ، ومثل الصـراع الفلسـطينى- الفلسـطينى بين حمـاس وفتـح، والـدعم الإسـرائيلى والأـوربى والأمريكى والعربى لفتـح، وتضـييق الحصار على غزهٔ وحماس إقتصادياً وسياسـياً، وعزل حماس عزلًا سياسـياً كاملًا ... و أمثال ذلك، و التخريب الواسع الذى قامت به إسرائيل للبنان، انتقاماً لانتصار حزب الله عليها فى الحرب التى دارت بينها و بين حزب الله فى جنوب لبنان، و سـكوت الـدول الغربيـهٔ- الأوروبيـهٔ و الأمريكيهٔ- برمّتها تجاه هذا العدوان السافر على لبنان، و دعم الموقف الإسرائيلى بشكل مطلق، بكل أشكال الإسناد والدعم ... وأمثال ذلك.

و قد يتساءل أحد عن الصـيغهٔ العمليهٔ لهذا المشـروع السياسـى ... فأقول: إننى لست بصدد عرض صيغهٔ محددهٔ لهذا المشروع السياسى ... يمكن أن يكون على هيئهٔ مؤتمر دورى لأهل الحل والعقد من المسـلمين، ويمكن أن يكون بصيغهٔ أخرى ... و أيّاً ما تكون الصيغهٔ العمليـهٔ لهـذا المشـروع، فهو مركز سياسـى، يمثل الأمّـهٔ الإسـلاميهٔ، بعرضـها العريض، فى تنضـيج القرارات، و التوصـيات السياسـيهٔ، و الاقتصاديـهٔ، و الثقافيـهٔ، وغيرها، و بلورتها و تقـديمها، فى الأمور التى تهمّ الأمّـهٔ، و يكون هـذا المركز فى مقابل مراكز القرار الرسـميهٔ للأنظمـهٔ، يعبّر عن إرادهٔ النـاس و انتمـائهم، و هويتهم الإسـلاميهٔ ... و هو أمر قائم فعلًا، فى بعض الحـدود، و لكن يحتاج إلى تثبيت، و تطوير، و توسعهٔ، و تعديل، و تقنين، و تبنى من قبل المسلمين.

ص: ۲۳۱

تساؤلات حول هذا المشروع

وقد يثير أحد حول هذا المشروع التساؤلات التالية:

۱- أين يمكن إقامة هذا المشروع السياسى المستقل، عن الإرادة الأمريكية- و الدول الغربية، و أمريكا تقول اليوم للسحاب: أينما تذهبين فإنّك تمطرين فى مساحة نفوذى و سلطانى.

۲- ما جدوى رأى هذا المركز السياسى إذا كان لا يملك آلية التنفيذ فى مقابل قرارات الأنظمة التى ينفذها أصحابها بالإرهاب والإعلام.

۳- و كيف يمكن عزل رأى هذا المركز أو توصياته عن تأثير و نفوذ الأنظمة ودول الاستكبار العالمى، فى هذه الدنيا المتشابكة المتداخلة.

والجواب عن السؤال الأول:

إنّ ارض الله واسعة، و نحن لدينا مناقشات جوهرية فى صدقية النفوذ الأمريكى الكونى المطلق، ليس هنا مجال بسط الكلام فيها.

وعن السؤال الثانى:

أقول إنّ رأى هذا المشروع وتوصياته، يكون مدعوماً بالرأى العام الإسلامى، وسوف يكون له دور واضح فى تعديل القرارات السياسية للأنظمة إن لم تكن قادرة على إلغائها.

وعن التساؤل الثالث:

لا ننفى إمكانية نفوذ الأنظمة ومن ورائها أنظمة الاستكبار العالمى إلى صلب هذا المركز وآرائه وتوصياته، ولكنه على كل حال إمكانية محدودة و ليست مطلقة، و لايمكن أن يحقق أى مشروع سياسى فى هذه الدنيا المتداخلة المتشابكة غايته بصورة مطلقة.

ص: ۲۳۲

وبعد فإننا نرى أنّ أمثال هذه المشاريع طموحات سياسية واقعية، يمكن أن نسعى إليها وليست ضرباً من أحلام اليقظة فى واقعنا السياسى المعاش.

المرجعية السياسية للعالم الإسلامى:

نحن اليوم أمة فاعلة قوية على وجه الأرض؛ و لهذه الأمة ثقل كبير فى المعادلات السياسية، وحضور واسع فى القضايا السياسية ذات الشأن بالحالة الإسلامية خصوصاً، وبالحالة الكونية عموماً.

ورغم أنّ أكثر الأنظمة الحاكمة فى العالم الإسلامى تعمل لتشتيت هذه القوة الكبرى على وجه الأرض، لكن تبقى الأمة الإسلامية التحدى الأكبر للغرب؛ و الذين يقرءون التاريخ و المستقبل من المنظّرين فى الغرب يفهمون هذه الحقيقة، و ينذرون أنظمة الاستكبار الغربى من هذا العملاق الذى بدأ ينهض من سباته فى القرن العشرين.

و فى ضوء هذا الفهم نقول:

۱- إنّ الحقائق المتقدمة فى نهضة الأمة بعرضها العريض لايمكن أن تخفى على مراكز الرصد الاستكبارى فى الغرب.

۲- و لابدّ أن تلقى هذه الأمة تحديات صعبة من ناحية الغرب لإحباط المشروع الإسلامى الكونى الكبير.

۳- و لاتخصّ هذه التحديات إقليماً، أو قوماً و مذهباً من المذاهب، وإنما تعم الأمة الإسلامية برمّتها، لأنّ هذه الأمة هى التربة الصالحة للمشروع الكونى الذى يخبرنا به الله تعالى فى كتابه: (وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بعْدِ الذِّكْرِ أنّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالحوُن) والذى يتبّأ به المنظرون فى الغرب.

۴- إذن المسلمون جميعاً فى مواجهة صراع حضارى، وعسكرى، وسياسى،

ص: ۲۳۳

وثقافی قاس، من أقسی ما یعرفه تاریخ الإنسان من الصراعات الحضاریة السیاسیة، والعسکریة، شئنا ذلک أم أبینا.

والمطالبة بالمعایشة السلمیة، وشجب الحروب والصراعات، لایعفینا من هذه المعرکة .. و لسنا نحن الذین ندفع الغرب إلی مثل هذا الصراع، و إنما العکس هو الصحیح، الغرب هو الذی یدفعنا إلی مثل هذه المعرکة ... فإنّ الکیانات السیاسیة، والعسکریة، والثقافیة فی الغرب، یرون أنهم قد وصلوا إلی نهایات التاریخ، والعاقبة التی آل إلیها أمر الاتحاد السوفیتی لیس ببعید عنهم، والقوانین والسنن التی آلت إلی سقوط الاتحاد السوفیتی هی التی تؤول بهم إلی تلک العاقبة؛ و هم یدافعون عن أنفسهم فی معرکة مصیریة بالنسبة لحضارتهم، وکیانهم الاقتصادی، والسیاسی، والعسکری، ومن الطبیعی أن یکون هذا الصراع أشرس صراع یعرفه الإنسان، لأنه صراع علی الموت والحیاة.

۵- و من أفدح الخطأ أن ندخل هذا الصراع من غیر الإعداد المکافئ لهذه المعرکة الحضاریة، ومن غیر الإعداد لآلیات هذا الصراع .. والدخول فی مثل هذه المعرکة من غیر الإعداد المکافئ لها یعادل الفشل والهزیمة فیها ... یقول تعالی: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ) ((۱)) ولیست القوة کلها فی السلاح، وإن کان السلاح من مقومات ساحة القتال، إلّا أنّ دائرة الإعداد الذی یأمرنا به الله تعالی أوسع من السلاح.

۶- و من أهم الآلیات التی تُعِدُّ هذه الأمة لدخول مثل هذه المعرکة التی‌نتوقعها کل حین، بل نعایشها الیوم، دون أن ننتبه لها .. فی مقدمة هذه الآلیات (: المرجعیة السیاسیة الواحدة للأمة الإسلامیة) ... فلیس من الممکن أن تدخل هذه الأمة صراعاً سیاسیاً، وحضاریاً واسعاً، وتواجه تحدیات کثیرة، دون أن تمتلک الأمّة

۱- الأنفال: ۶۰

ص: ۲۳۴

(مرجعية سياسية)، توحّد قرارها، وموقعها، وصفّها.

إنّ وحدة الأمة، و وحدة القرار السياسى، لاتتحقق إلّا من خلال الآليات التى أعدّها الله تعالى لذلك، وفى مقدمة هذه الآليات المرجعية السياسية التى يسميها الفقهاء ب- (ولاية الأمر).

يقول تعالى: (أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَ اولِى الأَمْرِ مِنكُمْ).

۷- و (الموقع الأول) و (الموقع الثانى) الذين تحدّثنا عنهما مؤسستان إسلاميتان للأمة الإسلامية كلها تتكاملان، يؤدى الأولى دور الشورى وتنضيج القرار السياسى الذى تشير إليه آية الشورى (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ((۱)) وتقوم الثانية بدور (الولاية السياسية) فى حياة المسلمين .. تنفيذاً لقوله تعالى:

(أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَ اولِى الأَمْرِ مِنكُمْ).

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ((۲)).

فى المساحة الاقتصادية

إنّ عملًا واسعاً يجرى اليوم لإلحاق أسواق العالم الإسلامى، ومصادر ثرواته الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية، وهو أمر حاصل بالفعل فى بعض الحدود، ولكن الحركة التى تقوم بها الأنظمة فى العالم الإسلامى هى إلحاق أسواقنا فى العالم الإسلامى وثرواتنا الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية بشكل كامل .. وهذا الأمر إذا تمّ يجعل من حركتنا الاقتصادية حركة تابعة لاقتصاد الدول الصناعية الكبرى، وتجعل من أسواقنا معرضاً ومحلًا لاستهلاك ما تنتجه المصانع فى الدول الصناعية الكبرى، وتجعل مصادرنا الطبيعة للثروة مثل النفط، والكبريت، والصلب، والحديد،

۱- الشورى: ۳۸

۲- المائدة: ۵۵

ص: ۲۳۵

والقطن، وقصب السکر، والمطاط، والتمور، مصدراً لتموین المعامل والمصانع فی الغرب.

ونتحول من موقع الإنتاج والاکتفاء الاقتصادی إلی مرکز لتموین المصانع فی الدول الصناعیة الکبری بالمواد الخام التی تحتاجها هذه المصانع، ومحلًا لاستهلاک ما تنتجه هذه المعامل.

و هذه العاقبة، أسوأ عاقبة اقتصادیة للعالم الإسلامی، وتؤدی هذه التبعیة الاقتصادیة إلی تبعیة سیاسیة خالصة، وانهیارات اقتصادیة واسعة کما حصل لجنوب شرق آسیا قبل سنین، وتفقدنا حالة الاکتفاء الذاتی فی الاقتصاد، بشکل کامل.

وکما یستخدم الغرب الآلة الصناعیة والاقتصادیة فی تحقیق (التبعیة السیاسیة) فی العالم الإسلامی، بشکل واسع، کذلک یستخدم الغرب المقاطعة الاقتصادیة والحظر الاقتصادی لإخضاع أنظمة العالم الإسلامی لإرادتها السیاسیة، کما حصل ذلک لإیران ولیبیا وسوریا والسودان ... عندما امتنعت من تنفیذ إرادتها.

وقد کان بوسع العالم الإسلامی أن یستخدم الآلة الاقتصادیة، مثل تصدیر النفط فی تعدیل بعض المواقف الغربیة المتطرفة عموماً، والأمریکیة خصوصاً، تجاه العالم الإسلامی، مثل الجنوح المتطرف إلی جانب إسرائیل، والوقوف إلی جانب إسرائیل فی کل مراحل عدوانها علی فلسطین ولبنان؛ والتشدید علی إیران بسبب محاولاتها لتخصیب الیورانیوم، والوصول إلی مرحلة استخدام الطاقة النوویة لإنتاج الکهرباء وسائر الغایات السلمیة، و السکوت عن إسرائیل ومفاعلاتها النوویة وترساناتها التی تختزن أکثر من ۲۰۰ رأساً نوویاً جاهزاً للتفجیر والعدوان، کما یقول بعض المؤسسات العسکریة.

لو أنّ المسلمین کانوا یستخدمون الآلة الاقتصادیة فی تعدیل المواقف السیاسیة

ص: ۲۳۶

الغربیة المتطرفة تجاه العالم الإسلامی لتغیّر وجه العلاقات الإسلامیة- الغربیة، ولم یتمکن الغرب من أن یمارس هذا النفوذ الواسع فی العالم الإسلامی، ولم یسع الغرب أن یستهتر بهذه الصورة بکل القیم الدبلوماسیة، والسیاسیة، فی علاقاتها بالعالم الإسلامی.

ولکن ما الحیلة إذا کان حکام العالم الإسلامی فی الغالب لا یجرءون علی التطوّل علی الإرادة السیاسیة الغربیة، وبشکل خاص الإرادة السیاسیة الأمریکیة، ولا یمتلکون الشجاعة الکافیة لاتخاذ أی قرار سیاسی أو اقتصادی یعارض مصالح أنظمة الاستکبار العالمی، ویتجاوز الخطوط الحمراء المرسومة لهم؟!

إنّ حرکة غاصبة عفویة قامت بها جماهیرنا فی مقاطعة البضائع الدنمارکیة، عندما أساءت صحیفة دانمرکیة إلی رسول الله (ص)، وامتنعت الدانمارک من الاعتذار إلی المسلمین ومعاقبة الصحیفة، کان لها تأثیر کبیر فی تعدیل موقف الحکومة الدانمرکیة والحکومات الاسکندنافیة، التی وقفت إلی جانب الدانمارک فی حینه.

إنّ الموقف الصحیح فی هذه المسألة الخطیرة هو الحضور المولیونی الموحّد فی الساحة، و الهتاف بمقاطعه العولمة الاقتصادیة الزاحفة إلی العالم الإسلامی، والمطالبة باستخدام الآلة الاقتصادیة فی قضایانا السیاسیة الأُم، والمناداة بتحریر أسواقنا من سیطرة البضاعة التی تصدرها إلینا الدول الصناعیة الکبری؛ والدعوة إلی تحریر مصادرنا الطبیعیة للثروة وإنتاجنا الزراعی والحیوانی من نفوذ الدول الکبری، والمناداة بالوصول إلی حالة الاکتفاء الذاتی، والتشهیر بالأنظمة والحکام الذین یستخدمون مواقعهم فی الحکم لتمکین النفوذ الاقتصادی الغربی والشرقی (الاستکباری) من أسواقنا ومصادرنا الطبیعة، ودعوة الجمهور إلی استخدام المقاطعة الاقتصادیة عندما یتطلب الأمر، ویتقاعس الحکّام، و یجبنون عن اتخاذ القرار الاقتصادی المناسب.

ص: ۲۳۷

إنّ الحضور الواعی القوی للأمة فی الساحة الإسلامیة، فی کل المراکز والحواضر والعواصم الإسلامیة یؤدی بالضرورة إلی تعدیل قرار کثیر من الأنظمة، والحکام الذین یحکمون العالم الإسلامی، کما یؤدی إلی تعدیل القرارات الاقتصادیة والسیاسیة لدول الاستکبار العالمی تجاه العالم الإسلامی، وتخفیف الضغوط السیاسیة و الاقتصادیة علیه.

الوعی والخطاب

الجماعة، واللقاء، والحوار

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹